حضرموت الثقافية

Hadhramaut AL-Thaqafiah - March - 2022 شعبان ١٤٤٣هـ

مجلة فصلية - السنة السادسة - العدد (23)

مركز حضرموت للدراسات التاريخيه والتوثيق والنشر
Hadhramaut Centre for Historical Studies Documentation and Publication.



مفلح.. مشروع رؤية لم ينقطع

زهو الفقهاء وبأو الحُكَّام

ظلال وارفة وثمار يانعة

فن الرسائل في حضرموت



من أعلام حضرموت



القاص/ عبدالله سالم باوزير

(١٩٣٨- ٢٠٠٤م)

محتويات العدد

حديث البداية

- **العَلَامة** ..... رئيس التحرير 4

أضواء

- **من الرعيل المؤسس لأندية حضرموت.. عبدالله عبدالرحيم باوزير**... أ. د. محمد بن هاوي باوزير .. 8
- **مكانة الحضارم ونفوذهم لدى أمراء مكة المكرمة وأشرافهم**..... د. خالد حسن الجوهي..... 12
- **صفحات مجهولة من التاريخ الحضرمي.. عائلة السلطان بهادر شاه الكجراتي في الشحر**..... أنور السكوتي..... 16
- **من تاريخ القضاء بحضرموت.. خطابات عدم الإنفاق** ..... عصام محمد بن عبيدالله..... 22
- **اللغز المحيِّر.. عمر محمد محيرز**..... كمال محمود علي اليماني..... 25
- **من معالم مدرسة حضرموت في التعامل مع القضايا السياسية من خلال كلام الإمام الحداد**.... منير بن سالم بازهير.. 28
- **فرقة الطيّالة السلطانية القعيطية للأعياد والمراسيم الرسمية بمدينة شبام حضرموت**.... يسلم سالم خراز ... 31
- **الأوزان والمقاييس في الأمثال الحضرمية**..... بدر بن عقيل... 34
- **الروابط الفكرية والدينية بين يافع وحضرموت**..... طارق سالم سعد الموسطي..... 41

دراسات

- **فن الرسائل في حضرموت في القرن ١٣هـ.. مكاتبات الحبيب حسن بن صالح البحر أنموذجا**.. أ.د. مسعود عمشوش... 48
- **زهو الفقهاء وبأو الحُكّام** ..... وضاح عبدالباري طاهر..... 55
- **المؤلفات الحضرميَّة في علم الطب والنبات (كالببليوجرافيا)**..... عادل حاج باعكيم.... 65

ترجمة

- **أرضٌ بلا ظِلال** ..... ترجمة: د. خالد عوض بن مخاشن..... 70

نقد

- **ظلال وارفة وثمار يانعة.. قراءة في ديوان (تحت ظل نخلة)**..... د. محمد صالح الشنطي.. 76

كتابات

- **أصوات الحياة وصوتي** ..... عمار باطويل..... 81
- **مفلح مشروع رؤية لم ينقطع برحيله** ..... د. سعيد سالم الجريري..... 82
- **"قصتي مع القمر"**..... طارق بن محمد سكلوع العمودي..... 84
- **ليتها تقع بين يدي قارئ!** ..... مسعود علي الغتيني..... 90

شخصيات

- **السيد العلاّمة القاضي حسين بن محمد بن الشيخ أبو بكر**..... د. زين محمد حسين العيدروس... 92

حوار

- **حوار مع عمر محمد العمودي** ..... يوسف عمر باسنبل... 102

إبداع

- **شهارة.. قصة عشق لا تنتهي**..... سالم محمد بجود باراس..... 104
- **نوافذ حضرمية على شجن في الطريق.. نصوص قصيرة جدًّا**..... صالح سعيد بحرق..... 108
- **لو كُنتُ.. لكُنتُ!!** (سرد) ..... علي سالم الشرفي..... 109
- **عِقدٌ من مشاعر** (سرد)..... دعاء سعيد باصحيح..... 110
- **حُلُم** (سرد) ..... وردة عوض بلسود..... 112

توقيع قلم

- **"الشوق ولا المشقة"**..... أ. د. عبدالله سعيد بن جسّار الجعيدي... 113

حضرموت الثقافية

مجلة فصلية

السنة السادسة العدد (23)

يناير - مارس 2022م

تصدر عن مركز حضرموت

للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر

رئيس مجلس الإدارة

الأستاذ محمد سالم بن علي جابر

المشرف العام

أ. د. عبدالله سعيد بن جسّار الجعيدي

رئيس التحرير

د. عبدالقادر علي باعيسى

سكرتير التحرير

أنور سالم باكركر

السكرتير الفني

حسن أحمد بلجعد

التدقيق اللغوي

د. جمال رمضان حديجان

الهيئة الاستشارية

أ.د. عبدالله حسين البار

أ. د. عبدالله صالح بابعير

أ. د. ناجي جعفر الكثيري

أ. د. مسعود سعيد عمشوش

أ.د. خالد يسلم بلخشر

د. حسن صالح الغلام العمودي

د. طه حسين الحضرمي

د. أحمد سعيد عبيدون

د. صادق عمر مكنون

التنفيذ الطباعي

مطابع وحدين الحديثة للأوفست - المكلا

- المواضيع المنشورة تعبّر عن آراء أصحابها ولا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- ترتيب المواد جاء وفق ضرورات فنّية إخراجية.
- المجلة غير ملزمة بإعادة أي مادة تتسلمها للنشر، سواء نُشرت أم لم تُنشر. ولا تلتزم بنشر المقالات المرسلة إليها بخط اليد.

مراسلات المجلة

hc.magazine16@gmail.com

Baaesa-١@hotmail.com

موقعنا على الشبكة الإلكترونية

www.hadramout.center

العنوان: المكلا - حي الشهيد - (معهد باشريف سابقًا) - ت. ٣٥٠١٢٥

العدد (23)
يناير
مارس
2022م

العلّامة



د. عبدالقادر علي باعيسى
رئيس التحرير

انتشرت في السنين الأخيرة مؤلفات وأبحاث أكثر فيها كاتبوها من توزيع صفة العلاّمة على كثير من الناس وفق تصنيف شخصي من لدن الكاتب يسقطه على من يريد متوجًا ذلك بإطار زاهٍ من مدح نفسي، أو صداقي، أو روحي، أو شخصي، أو عاطفي، أو إعجابي، أو نفعي، فيرسخ في أذهان الناس أنهم أمام علاّمة، بل أمام عدد من هؤلاء.

وربما كان إطلاق تلك الصفة انطلاقًا من وجهة نظر تقويمية سليمة فيما كتبه الشخص الموصوف، ولكن يتم استمراؤه وفق مناخ معين وتضخيمه حتى يغدو ذريعة تتصل بالترويج لموقف جماعة معينة، وربما لأجل تعزيز اتجاهات معينة بحيث يدخل (العلمي) في إطار الاجتماعي أو الحزبي ويغيب فيه كأنه جزء منه.

العدد (23)
يناير
مارس
2022م

وينمو ذلك الوهم، وتتناوله مؤسسات اجتماعية وعلمية حتى تسمع تلك الكلمة في عنوانات عدد من الندوات والمؤتمرات، وفي كثير من الكتابات، والنتيجة خلق مشهد آخر يطغى على المشهد العلمي الحقيقي على تواضعه في بلادنا. والأدهى أن من يصدر اللقب لا يمتلك المؤهلات العلمية لإصداره، والأدهى بعد ذلك أنه لا يسمح الاقتراب من صاحب هذا اللقب، ونقده، وإبداء الرأي في ما يقول، وإلاّ فالتصنيف جاهز، والأدهى أن ترى أولئك الذين أطلقت عليهم تلك الصفة أيهم يسبق الآخر في الانتفاع بهذا اللقب لاسيما حينما يتكرر الاسم مقرونًا بصفة (علاّمة) بوصفها لازمة، حتى يصير له أثر كبير على عامة الناس، فيؤدي صاحب تلك الصفة (مجرد الصفة) وظيفة ناشطة في المجتمع الله أعلم بنتائجها.

إن مما يؤدي إلى تفاقم تلك الظاهرة عدم التعرض لها بالنقد وهي طريقة غريبة لم يجر عليها السلف في ما أظن الذين كانوا حريصين على إطلاق هذه الصفة إلاّ في مواضعها الدقيقة، فليس في العلم صفات توهب للزينة والصداقات والمجاملات، فهذه مشكلة حقيقية من مشاكل الثقافة لدينا في حضرموت لاسيما في هذه العقود المتأخرة التي توزعت فيها الألقاب العلمية وغير العلمية بسخاء، مما يقتضي إعادة النظر في هذه الطريقة وإعادة توصيف الصفات والألقاب العلمية ووضعها في مواقعها بأمانة، لمعرفة واقعنا العلمي المعاصر، واستشراف آفاقه القادمة.

أ. د. الجعيدي في زيارة لكلية التربية بالمكلا



إعلام المركز:

قام أ. د. عبدالله سعيد الجعيدي مدير مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر، بزيارة إلى كلية التربية بالمكلا جامعة حضرموت استقبله خلالها د. سعيد سالمين بلعفير عميد كلية التربية ود. محمد حسن مقيبل نائب العميد للشئون الأكاديمية ود. سوزان سعيد باغويطة نائب العميد لشئون الطلاب، وجرى خلال الزيارة تبادل الأحاديث الودية والتأكيد على أهمية العملية التعليمية التي تضطلع بها الكلية، وأهمية بناء شراكة علمية بين الطرفين، وبدورهم ثمن عميد الكلية الدكتور بلعفير ونوابه هذه الزيارة، وأثنوا على الجهود والنشاطات التي يقوم بها مركز حضرموت في حفظ تاريخ حضرموت وتراثها.

وفي نهاية اللقاء شكر الأستاذ الدكتور الجعيدي حفاوة الاستقبال راجيًا للقائمين



على الكلية كل تقدم ونجاح في سبيل الارتقاء بالمستوى التعليمي للكلية.

بن عثمان وبازياد في زيارة لمركز حضرموت

إعلام المركز:

قام د. عبداللاه بن عثمان المدير التنفيذي لمؤسسة العون للتنمية ود. صالح بازياد المدير التنفيذي لمؤسسة نماء الدولية بزيارة لمركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر، وكان في استقبالهما أ.د. عبدالله بن جسار الجعيدي، مدير المركز، الذي أطلعهما على خطط وأنشطة المركز العلمية المختلفة خاصة مشروع الموسوعة



الحضرمية، ومن جانبهما تقدما بالشكر لمدير المركز على حفاوة الاستقبال راجين للمركز دوام التوفيق.

زيارة طلاب جامعة الأحقاف للمركز







إعلام المركز:

قام عدد من طلاب جامعة الأحقاف يرافقهم الشيخ عمر عبدالله بخيت بزيارة إلى مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر مساء الأربعاء الموافق ٨ / ٦ / ٢٠٢٢م وقد أبدوا إعجابهم بما سمعوه عن المركز لاسيما أنه نفذ مؤتمرا دوليا في إندونيسيا عن دور الحضارم في إندونيسيا في العام ٢٠١٧م، فرغبوا في التعرف عليه وعلى أساتذته عن كثب، وقد أعرب أ.د. عبدالله سعيد الجعيدي عن سعادته بهذه الزيارة شارحا لهم أبرز النشاطات العلمية التي قام بها المركز والتي يزمع في تنفيذها مستقبلاً، وجرى خلال ذلك تعرفهم على إدارات المركز التنفيذية ولجان الموسوعة الحضرمية، وفي آخر اللقاء تم التقاط صورة تذكارية لإدارة المركز مع الضيوف.



من الرعيل المؤسس لأندية حضرموت

عبدالله عبدالرحيم بن هاوي باوزير



• من مواليد الحبشة عام ١٩٢٤م من أبوين حضرميين، والده من غيل باوزير، ووالدته من حضرموت الداخل من آل عقيل، والمعروف أن المهاجرين الحضارم مرتبطون بجالياتهم في المهجر، وغالبهم يفضل الارتباط بزوجة من أصل حضرمي، إلا فيما ندر من يتزوج من جالية عربية أخرى أو من أصل أفريقي أو شرق آسيوي.

• متزوج وله خمسة أبناء وبنت (أحمد، محمد، عمر، عبدالحكيم، عبدالقادر).

• تلقى دراسته في الكتاتيب العربية الإسلامية في الحبشة وفي مدارسها (التعليم الأساسي).

• التحق مع والده عبدالرحيم عبدالله بن هاوي باوزير بالحياة العملية في الأعمال التجارية الحرة.

• ظل يمارس أعماله الحرة متنقلًا بين الحبشة وعدن، وفي أثناء ذلك كان مواظبًا على زيارة موطنه غيل باوزير لزيارة أقاربه وذويه، وقد كان هو وزملاؤه القادمون من المهجر حريصين على الالتقاء بزملائهم الشباب من أبناء الغيل، ويتحدثون عن ضرورة وجود تجمع شبابي رياضي ثقافي اجتماعي لأبناء البلدة.

• في منتصف الستينيات هاجر إلى العربية السعودية، ولكنه لم يمكث فيها إلا فترة وجيزة نظرًا لظروفه الصحية عاد إلى الغيل واستقر بها عند أولاده بعد مشوار طويل من الغربة بين الحبشة وعدن السعودية، وظل ملازمًا منزله بحافة الوجيدة، وكان لديه ديوان صغير (مربعة) يستقبل فيه يوميًا زُوَّاره من الأصحاب بعد صلاة العصر حتى المغرب، وأحيانا يزوره بعض رياضيي وإداريي نادي الشباب للاستشارة والاستعانة به كمرجعية عند حدوث بعض الخلافات، وكان يوفق بينهم.

• انتقل من غيل باوزير إلى عدن عام ١٩٧٢م هو وعائلته، واستقر بها حتى وافته المنية في عام ١٩٧٥م، ودفن في مقبرة العيدروس بكريتر.



أ. د. محمد بن هاوي باوزير

عرفت حضرموت عامة الرياضة وبخاصة كرة القدم في مطلع الثلاثينيات من القرن العشرين، وقد مارسها الأطفال والشباب بالطرق البدائية في الشوارع.

أما القاعدة الأساسية لهذا النشاط الرياضي وبخاصة كرة القدم في حضرموت عامة وغيل باوزير خاصة فكان في مدارس غيل باوزير، وبخاصة المدرسة الوسطى منذ افتتاحها في عام ١٩٤٤م، فأصبحت أساسًا ورافدًا للأنشطة الرياضية في غيل باوزير وحضرموت عامة، ورافدًا لأنديتها.

أما أندية غيل باوزير فقد تشكلت في بداية ظهورها من خلال الحركة الذاتية والتطوعية عند الشباب، وذلك بهدف انخراط الشباب في الأندية لإشباع هواياتهم الرياضية والثقافية والاجتماعية، ويعود الفضل في تأسيس أندية غيل باوزير، وهما: نادي الشباب ونادي الاتحاد (تأسس عام ١٩٤٩م) إلى شباب منطقه الغيل، وكذا إلى الشباب المهاجرين والعائدين إلى أرض الوطن في إجازاتهم ومنهم: عبدالله عبدالرحيم بن هاوي باوزير، محمد عبدالله خريصان، عمر علي بن همام، وهمام علي بن همام، وغيرهم من أبناء الغيل المهاجرين.



عبدالله عبدالرحيم مؤسسًا لأول ناد في غيل باوزير:

يعود الفضل إلى تأسيس أندية غيل باوزير (الشباب والاتحاد) إلى الكثير من الشباب في منطقة الغيل الراغبين في إشباع هواياتهم الرياضية والثقافية والاجتماعية، وقد وقف إلى جانبهم لتحقيق هذه الأمنية الشباب العائدون من المهجر، وقد أسهموا في ذلك بخبراتهم وإمكاناتهم المادية، على سبيل المثال: متابعاتهم ودعمهم لتأسيس أول ناد في الغيل، ونذكر منهم عبدالله عبدالرحيم باوزير، ومحمد عبدالله خريصان وآخرين من أبناء خريصان، وعمر علي بن همام، وهمام علي بن همام وغيرهم من أبناء المهجر، وقد بذلوا جهودًا جبارة ماديًا ومعنويًا لإشهار نادٍ رياضي ثقافي اجتماعي، وقد أثمرت تلك الجهود في إشهار أول نادٍ في مدينة الغيل والحصول على ترخيص حكومي من الدولة القعيطية لتأسيس نادي الشباب في عام (١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م).

ويبدو أن نشاط النادي في السنة الأولى قد اقتصر على لعبة كرة القدم، ولكن الشباب المتنورين العائدين من المهجر لم يكتفوا بتلك الخطوة، بل أرادوا مزيدًا من التطور والتقدم لناديهم، أي أرادوا أن يكون ناديًا رياضيًا وثقافيًا واجتماعيًا، لكي تستفيد مدينة الغيل من هذا النشاط وبخاصة شبابها، لذلك وضع هذا الأمر في أولويات عمل أول هيئة إدارية للنادي، وناقشت الهيئة الإدارية آليات وسبل هذا التطور.

وبعد أن تكللت الجهود بالنجاح في إشهار النادي والحصول على الترخيص الحكومي في عام (١٩٤٧م)، واصلت الهيئة الإدارية نشاطها. (أول هيئة إدارية للنادي) والمكونة من:

الاسم	الصفة
عبدالله عبدالرحيم بن هاوي باوزير	رئيسًا
أحمد عمر باشطح	نائبا للرئيس
محمد عبدالله خريصان	سكرتيرًا
أحمد عبدالصمد باوزير	أمينًا للمال
همام علي بن همام	سكرتيرًا للرياضة
محمد أحمد جوهر	مديرًا للأعمال
مسعود محمد بامطرف	مستشارًا
سالم حسين الحضرمي	مستشارًا



وقد بذلت هذه الهيئة مزيداً من جهودها في تنشيط النادي، كإحياء الليالي الثقافية والفنية إلى جانب نشاط النادي الرياضي، وحتى تكون أنشطة ناديهم ذات طابع رسمي تحصل النادي في عام (١٩٤٩م) على تصريح رسمي آخر بمزاولة الأنشطة الثقافية والاجتماعية إلى جانب النشاط الرياضي، وذلك بأمر من رائد التنوير في حضرموت السلطان صالح بن غالب القعيطي، الذي كان من أوائل المشجعين لأندية حضرموت لأي جهود تبرز الأنشطة الرياضية والثقافية في البلاد، وقد كان شرفًا لنادي الشباب أن قام السلطان صالح بزيارة مقر نادي الشباب وسجل كلماته وتوجيهاته في سجل تشريفات النادي.

وهكذا كان لعبدالله عبدالرحيم بن هاوي باوزير وزملائه من المهاجرين ومن المقيمين في الغيل جهوداً جبارة ستظل محفورة في ذاكرة غيل باوزير وأبنائها، وبخاصة عشاق الرياضة، ورغم عودة مؤسس نادي الشباب ورفاقه لأعمالهم في المهجر فإنهم ظلوا متواصلين وداعمين للنادي وقياداته اللاحقة، ومن الجدير بالذكر أن مؤسس النادي يحمل بطاقة عضوية النادي كغيره من الأعضاء (نوع العضوية مؤسس).

الوطن والاستقرار به:

عاد عبد الله عبدالرحيم بعد منتصف الستينيات إلى بلدته غيل باوزير واستقر بها.. وبحسب المعلومات من أحد أبناء محمد بن هاوي باوزير الذي كان شاهداً على توافد الكثير من رياضيي وإداريي نادي الشباب وغيرهم من زملائه في ديوانه المتواضع في منزله بحافة أو حارة الوجيدة لاستشارته كمرجعية لحل بعض خلافاتهم والتوفيق بينهم، وهكذا ظل عبد الله عبد الرحيم المرجعية للنادي ومنتسبيه من الرياضيين والإداريين والمشجعين طيلة مدة إقامته الدائمة في الغيل.

تحت كلمة (الوفاء للأوفياء) صدرت نشرة خاصة بمناسبة ذكرى فقيد الحركة الرياضية حسين سالم باغويطة عن اتحاد الرياضة للجميع حضرموت الساحل، وجاءت في كلمة (الوفاء للأوفياء) للأستاذ عوض بركات تيسير - رئيس اتحاد الرياضة للجميع - ساحل حضرموت الآتي:

منذ أول يوم تم فيه تأسيس اتحاد الرياضة للجميع ساحل حضرموت أخذت على نفسها عهداً للبحث في إبراز المعالم الرياضية بالمحافظة التي كادت تندثر، فجاء ضمن خطة الفرع البحث عن مؤسسي الأندية الرياضية بحضرموت، فهذا بالطبع كلفنا جهداً غير عادي فكانت النتيجة:

النادي	المكان	الرئيس المؤسس
نادي كوكب الصباح	المكلا	عبدالرحيم محمد بارحيم
نادي الاتحاد	المكلا	أحمد محمد العطاس
نادي الشباب	المكلا	محمد سالم باشريف
نادي الوحدة	المكلا	علي صالح الحضرمي
نادي الأحرار	المكلا	سالم محمد بافضل
نادي الجنوب	المكلا	مبارك مبروك بصفر
نادي الشعب	المكلا	أبو بكر عمر باناعمة
نادي الشباب	غيل باوزير	عبدالله عبدالرحيم بن هاوي باوزير
نادي الاتحاد	غيل باوزير	سعيد أحمد سواحلي
نادي الشعب انشق هذ النادي عن نادي شباب الغيل لمدة وجيزة ثم عاد الوئام بينهما وعادوا تحت راية النادي الأساس شباب الغيل.	غيل باوزير	محمد سعيد مديجح
نادي الكوكب	الشحر	منصور عبد أحمد
نادي شباب الجنوب	الشحر	محمد علي مخارش

وقد شملت خطتنا فتح موقع في الإنترنت لحفظ تراثنا الرياضي الكبير، ولا ننسى هاجسنا لتكريم (١٠٠) شخصية رياضية، وهناك اتجاهات متنوعة ومتعددة في خطتنا سنعلن عنها حال اكتمالها... انتهت كلمة الأستاذ عوض تيسير (الوفاء للأوفياء).



بالغيل، وقد كان المرحوم عبدالله عبدالرحيم بن هاوي باوزير أحد هذه الأعلام والرموز الرياضية الحضرمية القديمة، فهو مؤسس نادٍ من أقدم أندية حضرموت وهو أول نادٍ بغيل باوزير، إذ تم تكريمه في حفل مهيب في مدينه المكلا تناولته وغطته وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة.

وقد حضر هذا الحفل الرياضي الكبير نجل المرحوم عبدالحكيم عبدالله بن هاوي باوزير واستلم الهدايا والشهادات التقديرية وذلك تقديراً لجهود والده في الحركة الرياضية في مدينة غيل باوزير.

وأخيراً لا بد من الإشارة إلى اللفتة الكريمة التي أولتها السلطة المحلية واتحاد الرياضة للجميع ساحل حضرموت في تكريم الرعيل الأول من مؤسسي الأندية والرياضيين، واختيار أقدم (١٠٠) شخصية رياضية أسهمت في تشجيع الرياضة وتطويرها في حضرموت وتكريمهم بمدينة المكلا في عام (٢٠٠٥م)، وكان لمدينة غيل باوزير حضورٌ في ذلك التكريم من خلال تكريم أقدم شخصيتين رياضيتين أسهمتا في تأسيس نادي الشباب والاتحاد



المراجع:

• محمد بن هاوي باوزير وعبدالله سعيد دحمان: مدينة العرفان غيل باوزير حاضرة العلم والثقافة والتراث (١٣٠٦ - ١٩٦٧م) الطبعة الأولى، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، ٢٠١٠م.

• محمد بن شيخان: نفحات وعبير من تاريخ غيل باوزير، مكتبة الثقافة عدن، ودار التيسير صنعاء.

• عدنان أحمد سالم جروان: مدينة غيل باوزير (١٩٣٦ - ١٩٦٧م)، الطبعة الأولى، دار الفاتحين للطباعة والنشر، الرياض، (٢٠١٢م).

• سعيد عوض باوزير: الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي، الطبعة الثانية، مكتبة الصالحية للنشر والتوزيع، غيل باوزير، (٢٠١١م).

• نشرة تصدر عن اتحاد الرياضة للجميع - حضرموت الساحل تحت إشراف عوض بارك تيسير - عدد خاص بمناسبة ذكرى فقيد الحركة الرياضية حسين سالم باغويطة.

12
العدد (23)
يناير
مارس
2022م

مكانة الحضارم ونفوذهم لدى أمراء مكة المكرمة وأشرافهم



د. خالد حسن الجوهي

توطئة:

لقد تميَّز الحضارم في مكة المكرمة في جميع المراحل التاريخية بعلاقات حسنة وطيبة مع حكام مكة المكرمة من أمراء وأشراف؛ إذْ تميَّزوا بنفوذ ومكانة كبيرة لدى هؤلاء الحكام، ألجأهم إليهم لاستشارتهم في المهمات، طالبين منهم الدعم المعنوي من توجيه ودعاء، ولعل هذا الأمر نابع من اعتقادهم بأن هؤلاء الحضارم لديهم من الإمكانيات علميًا واقتصاديًا ما يؤهلهم للقيام بهذا الدور.

هذه المكانة والنفوذ اللذان وصل إليهما الحضارم في مكة المكرمة كانا كبيرَيْنِ؛ فقد تقلدوا مناصب عليا في الدولة؛ إذ شغل البعض منهم وظيفة الوزير لدى أشراف مكة المكرمة، والبعض الآخر أصبح مقربًا من الحكام لدرجة أن يكون ممثلاً لشريف مكة المكرمة لدى السلاطين العثمانيين في أثناء تقسيم الصرة العثمانية.

على الرغم من ذلك فإنه قد شابت هذه العلاقات الحسنة بين الطرفين في بعض الحقب التاريخية فتورٌ وجفوة، كان سببها الصراعات السياسية، والتنافس على السلطة، ونفوذ بين الأمراء بعضهم على ببعض، ولكن سرعَانَ ما تزول أسباب هذا الخصام بوصول أمير جديد لمكة المكرمة، أو بموت هذا الأمير أو ذاك.

كما أن السلاطين العثمانيين وأمراء مكة المكرمة من الأشراف، قد ميَّزوهم بأوامر وفرمانات خاصة بهم، حثوا فيها وزراءهم وقضاتهم على إعطائهم حرمتهم والقيام بمحبتهم، مع التحرِّي لأنسابهم وحفظ شرفهم وأحسابهم، بغاية العز والاحترام. ولهذا كان العلماء والفضلاء من أهل الحرمين الشريفين يهرعون إليهم في القضايا الشائكة والمعقدة وفي أثناء ظهور الفتن والاضطرابات(١).

منزلة الشيخ العلامة أحمد بن الفضل باكثير لدى أشراف مكة

ألف العلامة أحمد بن الفضل باكثير مؤلفًا في مناقب الشريف إدريس أمير مكة المكرمة ومحاسنه آنذاك أسماه (وسيلة المآل بذكر فضائل الآل)، كما أن له منزلة وشهرة عند أشراف مكة، وفي موسم الحج كان الشيخ أحمد باكثير يجلس في المكان المخصص لتقسيم الصرة العثمانية بالحرم الشريف بدلاً عن شريف مكة(٢).

الشيخ باقشير مادحًا الشيخ حمود

قام الشيخ محمد باقشير مادحًا السيد حمود بن عبدالله بن حسن حين تزوج ابنة الشريف زيد بن محسن أمير مكة سنة ١٠٦٧ هـ قائلاً(٣):

قد قام سعد السعود منتدبًا يخطب لي في محفل الأدب
يهز عطفيه بالهنا مرحًا يملي علينا شقاشق الخطب

إلى أن قال:

أورثه الله كل مكرمة قد انطوت في سوالف الحُقب

السيد سالم شيخان خليل الشريف أحمد بن عبدالمطلب وأذية الشريف أحمد للشيخ باقشير

كان السيد سالم بن أحمد شيخان من أخلاء الشريف أحمد بن عبدالمطلب قبل تولِّيه الإمارة، ولكن بعد توليه الإمارة قلب له ظهر المجن، فكان ضمن الذين طالته أذية الشريف أحمد مع عدد كبير من أهالي مكة المكرمة وتجارها(٤)، فكان من بين العلماء الحضارم الذين فرُّوا من مكة خوفًا من أذية الشريف أحمد بن عبدالمطلب الشيخ جمال الدين محمد باقشير؛ فقد فر الشيخ باقشير من مكة متوجهًا مع الحج المصري إلى مصر، وفي ليلة خروجه من مكة صادف الشريف أحمد في طريقه؛ إذ كان عائدًا من العمرة، فكتب بطاقة فيها أبيات، وأمر بعض العامة أن يسلمها للشريف أحمد، فلما قرأها الشريف أحمد فإذا فيها:

تستحل الدماء وتحُرم بالعمرة دعها وعن دماء الناس أمسك
ما رأينا والله أعجب حالاً منك واها لفاتك متنسك(٥)

حيث بقي الشيخ باقشير في مصر حتى مقتل الشريف أحمد سنة ١٠٣٩هـ، حينها عاد إلى مكة.

السيد عبدالله الحداد يدعو للشريف بركات

ومن النماذج أيضًا للعلاقة الحسنة مع أشراف مكة هي طلب الشريف بركات بن محمد بن أبي نمي من السيد العلامة عبدالله بن علوي الحداد في أثناء مجاورته في مكة المكرمة قبل تولية الشريف بركات الإمارة بأيام جاءه وسأله الدعاء بتيسير المطلوب، فدعاء له السيد عبدالله بذلك(٦).

المكانة والنفوذ اللذان وصل إليهما الحضارم في مكة المكرمة كانا كبيرَيْن؛ فقد تقلدوا مناصب عليا في الدولة

مكانة السيد العيدروس لدى أمراء مكة وأشرافهم

كانت للسيد محمد بن علي العيدروس (صاحب الشبيكة) مكانة كبيرة وهيبة ووقار لدى العام والخاص، وكان أشراف مكة المكرمة وأمراؤها تقدِّره وتحترمه وتهابه إذا جلس للمحاضرة، ولا يردون له شفاعة حتى وإن تكررت هذه الشفاعات كل حين، وعندما يأتيه الرجل يطلب مسألة من شريف مكة كان السيد محمد يقول له اذهب للشريف تُقضى حاجتك، وكان أشراف مكة يهدون إليه العطايا؛ إذْ كان السيد محمد العيدروس يقضي الأشهر في منى يأتيه أعيان مكة فيكرمهم بما عنده من خير، فقد كان يشبه الأمراء في المال والجاه(٧)، كما كانت للسيد محمد بن علوي السقاف وكل السادة آل باعلوي والمشايخ آل باقشير مكانة كبيرة بين أهالي مكة من أمراء وعامة.

وجاهة السيد السقاف لدى أشراف مكة

كانت للسيد علوي بن علي السقاف (ت: ١٠٨٤هـ) مكانة ووجاهة كبيرة لدى أشراف مكة المكرمة ولدى عامة الناس؛ إذ كان يقصده أكابر مكة وأعيانها لالتماس دعائه لهم، كان مهابًا مقبول الشفاعة عند الملوك؛ فقد كان شريف مكة يحترمه غاية الاحترام، وللسيد علوي عددٌ من المواقف التي تثبت الجاه الذي يتمتع به، حضر جنازته شريف مكة محسن بن زيد ودفن بالمعلاة(٨).

عبدالرحمن بن عبدالله بن عتيق
(وزير الشريف حسن بن أبي نمي)

لقد حظيت هذه الشخصية الحضرمية في مكة المكرمة باهتمام من قبل مؤرخي الحجاز؛ إذْ كان مصدرهم العلامة المفتي عبدالكريم بن محب الدين القطبي، ومنها نقلها معظم من تحدَّث عن هذه الشخصية، منهم المؤرخ العصامي في سمطه، والمؤرخ المحبي في خلاصته وغيرهم، وجميعهم يتحدثون عن عبدالرحمن بن عتيق الحضرمي بنمط واحد من الصياغة التاريخية، ونسجوا حول هذه الشخصية هالة كبيرة من الرهبة وتصوير العلاقة التي تربطه بالشريف حسن بن أبي نمي أمير مكة المكرمة القوية، بأنها علاقة سيطرة كاملة على قرارات الأمير وتصرُّفاته، وتم تصوير أمير مكة بأنه مسلوب الإرادة أمام وزيره ابن عتيق، وأمام هذا النفوذ بدأوا في المس من شخصية ابن عتيق؛ إذ يتبادر إلى ذهن القارئ بأن هذا الرجل - ابن عتيق - مجرد من أي خلق إنساني، وأنه رجل ظالم غشوم، وأحيانًا خارج عن سواء الصراط، وبموته قد ارتاحت العباد والبلاد منه.

ذكر المؤرخ العصامي عن ابن عتيق ما نصه: كان الشريف حسن - رحمه الله - استخدم في آخر عمره سنة ثلاث بعد الألف بشخص من الحضارم يسمى: عبدالرحمن بن عبدالله بن عتيق. كان عبد الله بن عتيق تزوج بنتًا من بنات الشيخ محمد جار الله بن أمين الظهيري، فجاءت منه بعبد الرحمن هذا وأخيه أبي بكر، فتحشر عبدالرحمن المذكور من الشريف حسن، وبقي يفهمه النصح في الخدمة، وسحر الشريف حسن، حتى تمكن منه غاية التمكن، وبقي حاله كما قال الشاعر:

أمرك مردود إلى أمره وأمره ليس له رد

فتسلط عبدالرحمن المذكور على جميع المملكة، وتصرف

الأمور المنسوبة إلى ابن عتيق فيها شيءٌ من المبالغة قد تكون ناتجة عن مناكفات ومنافسة شخصية من قبل المعارضين له

فيها كيف شاء، وبقي كل من يموت سواء من أهل البلد أو من التجار، أو من الحجاج يستأصل ماله بحيث لا يترك لوارثه شيئًا.. فإذا تكلم الوارث أظهر له الحجة أن مورثه كان قد اقترض منه في الزمن الفلاني كذا وكذا ألف دينار، ويقول: هذا الذي أخذته دون حقي وبقي لي كذا وكذا، وطريق كتابته لهذه الحجة وأمثالها على ما بلغني ممن أثق به أن كتبة المحكمة تحت أمره وقهره، فيأمرهم بكتابة الحجة فيكتبونها، وعنده أكثر من مائة مهر للقضاة والنواب السابقين، فيمهرونها ويأمر عبدالرحمن المحالبي أن يكتب إمضاء القاضي الذي مهر الحجة بمهره، ويكتب خاله الشيخ علي بن جار الله، وأخوه الشيخ عبدالقادر بن محمد بن جار الله شهادتها، ويكتب الشيخ علي أيضًا عليها ما نصه: تأملت هذه الحجة فوجدتها مسدَّدة، ويشهد بذلك محمد بن عبدالمعطي الظهيري وابن عمه صلاح الدين بن أبي السعادات الظهيري وغيرهم. ثم إنه يظهر الحجة ويقرؤها بين الناس، وجميعهم يعرفون أنها زور ولا أصل لها، ولا يقدرون أن يتكلموا بكلمة واحدة خوفًا من شره وقهره، واستولى بهذا الأسلوب على ما أراد كما أراد، وإذا اشتكى على الشريف حسن يقول هذه حجة شرعية وشهودها مثل هؤلاء الجماعة الأجلاء كيف أردُّها؟ فنفرت قلوب

الناس من ابن عتيق وضجوا وضجروا، وكل من أمكنه السفر سافر، وما تأخر إلا العاجز... انتهى(٩).

من النص السابق يبين لنا مدى النفوذ والقوة التي تمتع بها ابن عتيق في مكة المكرمة كونه وزيراً للشريف حسن، ولكن الأمور المنسوبة إليه فيها شيءٌ من المبالغة قد تكون ناتجة عن مناكفات ومنافسة شخصية من قبل المعارضين له، ينظرون إليه بنوع من الحسد لوصوله هذا المكانة المرموقة لدى الأمراء، وهذا ما نلاحظه كثيراً من قراءاتنا السابقة لتاريخ المنطقة، ويدلل الباحث رأيه هذا بعدد من الشواهد:

أولاً: شخصية أمير مكة المكرمة الشريف حسن أبي نمي نفسه؛ فقد كان من أجلِّ الأمراء وأشهرهم وأقواهم آنذاك شجاعة وشهامة ونُبلاً وذكاءً وفراسة، وهذا ما شهد به كل مَنْ تحدَّث عن الشريف حسن ومنهم صاحب الرواية نفسه العصامي -، ووصفه الشلي بقوله: كان حسن السياسة وافر الجلالة والرياسة، مدحه جماعة من العلماء وكثير من الفضلاء بقصائد عظيمة، ومدائح جسيمة(١٠)، فلا يمكن بعد هذه المكانة للشريف حسن بن أبي نمي أن تنطلي عليه أساليب ابن عتيق.

ثانيًا: أن أخواله من الأسرة الظهيرية هم من الأسر المكية المشهود لها بالعلم والورع والشهرة، فلا يمكن أن يشهدوا زوراً أو يكونوا عونًا لابن عتيق مهما بلغت نسبة القرابة به، وممن ورد ذكرهم من علماء الأسرة الظهيرية يعدون قامات كبيرة في مكة المكرمة آنذاك، وهذا ما شهد به الشريف حسن نفسه عندما قال: هذه حجة شرعية وشهودها مثل هؤلاء الجماعة الأجلاء كيف أردُّها؟

ثالثًا: اتهام جميع الكتبة والقضاة والعمال لدى محكمة مكة المكرمة بأنهم تحت سيطرة ابن عتيق ونفوذه، وأن لدى ابن عتيق مائة مهر للقضاة والنواب السابقين كلام مبالغ فيه لدرجة كبيرة.

رابعًا: ضعف الحجة التي استند عليها منافسوه، وهي اتهامه بأنه قد سحر الشريف حسن؛ إذ لا يمكن الاعتماد على أمرٍ كهذا في تفسير الأمور بعيداً عن الواقع والحقائق.

خامسًا: هذه الرواية انفرد بها العصامي والجميع نقلوا عنه، وغاب الكثير من المؤرخين الحجازيين والمعاصرين للشريف حسن عن ذكر هذه الرواية.

وفي الأخير يمكننا القول إن ابن عتيق قد وصل إلى مكانة ونفوذ كبيرَيْنِ لدى أمراء مكة المكرمة، وقد يكون قد مارس نوعًا من الجبروت والقوة لفرض هيبته ونفوذه كونه وزيراً للشريف حسن، ولكن ليس إلى الدرجة التي وُصف بها.

الهوامش:

١) محضار بن عبدالله السقاف، الشهب المكية على من تعرض للسادة الحسينية، مخطوط رقم ١٧٥٧، جامعة الملك سعود، ص٥.

٢) أحمد بن زيني دحلان، خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام، مطبوعات أرض الحرمين (د. ت) ص١٤٦. محمد المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، دار صادر، بيروت (د. ت)، ج١، ص١٧٢.

٣) عبدالله مرداد أبو الخير، المختصر من نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر، اختصار وترتيب وتحقيق محمد سعيد العامودي وأحمد علي، ط٢، ١٩٨٦م، عالم المعرفة جدة، ص٤٠٨-٤٠٩.

٤) عبدالله الغازي المكي، إفادة الأنام بذكر أخبار البلد الحرام، تحقيق: عبدالملك بن دهيش، ط١، ٢٠٠٩م، ج٣، ص٣٩٤.

٥) المرجع نفسه، ج٣، ص٣٩٧، دحلان، خلاصة الكلام، ص١٥١، مرداد، نشر النور، ص٤٠٩.

٦) دحلان، خلاصة الكلام، ص١٧٣.

٧) محمد بن أبي بكر الشلي باعلوي، المشرع الروي في مناقب السادة الكرام آل باعلوي، المطبعة العامرية الشرفية، ط١، ١٣١٩هـ، ج١، ص١٩٥.

٨) محمد بن أبي بكر الشلي باعلوي، عقد الجواهر والدرر في أخبار القرن الحادي عشر، تحقيق: إبراهيم المقحفي، مكتبة تريم، حضرموت، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط١، ٢٠٠٣م، ص٢٤٩-٢٤٩. ٩) العصامي، سمط النجوم، ج٤، ص٣٩٠-٣٩١.

١٠) الشلي، عقد الجواهر، ص٨١.

العدد (23)
يناير
مارس
2022م

صفحات مجهولة من التاريخ الحضرمي (٣)

عائلة السلطان بهادر شاه الكجراتي في الشحر

كثيرة هي الأحداث المجهولة التي اختزلها التاريخ أو طوتها أيادي النسيان، فالتفَّ حولها الظلام، ولكن في خضم هذا الظلام الحالك تتجلى دومًا ومضات لا تكاد تبين، متى ما تتبعها الباحث واسترشد بها، ازداد وميضها، وانقشع عن دربها ظلامها، فاستنار بنورها الجميع. وتاريخنا الحضرمي مليء بمثل هذه الأحداث المجهولة. ولعل أحدها ما سنورده هنا بعد أن تتبعنا وميضها في أكثر من مصدر ومرجع، وربطنا بينها لنخرج بهذه الحصيلة التي لا نعدها الخلاصة النهائية. وهي في مضمونها تفصح عن بعض أشكال العلاقات الحية التي ربطت بين شعوب جنوب شبه الجزيرة العربية وبلاد الهند في القرون الوسطى..



أنور حسن السكوتي

ففي آواخر ربيع الثاني من سنة ٩٤٢هـ/ نهاية أكتوبر ١٥٣٥م وصلت إلى بندر الشحر عدد من السفن الهندية التابعة لسلطان كوجرات (قطب الدين بهادر شاه ابن السلطان مظفر شاه (الثاني))(١). وعددهن كما في بعض المراجع أربع خشب وأربعة غربان(٢)، وفيهن عدد من أفراد أسرته الحاكمة ووزراء حكومته بصحبة خدمهم وعبيدهم، ويرافقهم للحماية جنود غالبيتهم من قبائل يافع والمهرة، نظرًا لاعتماد سلاطين الهند على مثل هذه القوة العربية في جيوشهم(٣)، وبصحبتهم أيضًا قلة من الهنود والأفارقة والأتراك(٤).

وكان المسؤول الأول عن محتويات هذا الأسطول هو أحد وزراء السلطان (بهادر شاه) ويدعى الوزير (آصف خان)(٥) (ت: ٩٦١هـ/ ١٥٥٣م)، وهو من عقد إليه السلطان الوكالة المطلقة في أهله وماله.

وقد احتوت سفنهم تلك على كميات كبيرة من خشب الساج والفيني المستخدمين في بناء السفن. إلى جانب الكثير من الكنوز والنفائس الثمينة التي فرَّتْ بها هذه الأسرة في إثر هزيمة سلطانهم السلطان بهادر شاه أمام قوات المغول الغازية بقيادة (همايون بن بابر)، وفراره وأسرته وحاشيته إلى الديو شمال غرب الهند. وكان هذا قُبَيْلَ مقتل هذا السلطان بعام وبضعة أشهر على أيدي الغزاة البرتغاليين.

وكان في نية هذه الأسرة الحاكمة كما أشيع عنها في مدينة الشحر الذهاب إلى الحرمين الشريفين لغرض آداء مناسك الحج(٦)، قبيل أن يدخل عليهم (النيروز) وهم في المدينة فيتعذر عليهم السفر لهيجان البحر وتغير اتجاه الرياح. أشيع هذا لتلافي الدعوة بالمكوث أو الإقامة التي وجهها لهم حاكم المدينة آنذاك(٧).

وحقيقة أن مدينة الشحر، بل سواحل حضرموت عامة لم تعد هي أيضًا آمنة من هجمات البرتغاليين أو محاولاتهم المستمرة لبسط نفوذهم عليها. كما أن علاقة حاكم حضرموت السلطان (بدر بن عبدالله الكثيري أبوطويرق) بالبرتغاليين في تلك المدة كانت علاقة غير مستقرة ومتقلبة في كثير من الأحيان كما أنها أميل للمهادنة. وهي تشبه إلى حدٍّ ما علاقة السلطان بهادر شاه بالبرتغاليين(٨). فكان على الأسرة الهندية مواصلة السير والبحث عن منطقة أكثر أمنًا واستقرارًا إلى أن يستعيد ابنهم ملكه المتهاوي. وليس من منطقة أكثر أمنًا من سطوة البرتغاليين في تلك المدة من بلاد الحرمين الشريفين. كما أن في بلاد الحرمين المدرسة (المظفر شاهية)، وهي التي بناها والدهم السلطان مظفر شاه محمود (ت: ٩٣٢هـ/ ١٥٢٥م)(٩) وخصَّ لها أوقافًا وعطايا جزيلة. ويمكن أن تكون لهم مكانًا للسكن والإقامة، وموضعها كان بباب الصفا المجاور للمسجد الحرام.

وقد وصل هذا الأسطول بسلام لميناء جدة يوم الجمعة ١٠ جمادى الأولى ٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م وسط تعجب الجميع واستغرابهم؛ إذ إنَّ عادة السفر من الهند يكون في السبعين من النيروز وليس في العشرين منه(١٠).

إن الإبحار في غير الموسم كالذي فعله هذا الأسطول لم يفعله من قبله إلا الربابنة العظماء، أمثال الملاح الشهير أحمد ابن ماجد(١١). وهذا يدلُّنا على مدى معرفة ربابنة تلك السفن الهندية وإلمامهم بأصول الملاحة البحرية في المحيط الهندي والبحر الأحمر. ومن المحتمل أن يكون ربابنتها من العرب أنفسهم أو ممن تتلمذوا أو اطلعوا على علوم الربابنة العرب، كأمثال ابن ماجد أو سليمان المهري، وخاصةً أن ثمة ممن اشتغلوا في هذه السفن الملكية الهندية تحديدًا كانوا من العرب. وقد عرفنا اسم واحد منهم ويدعى (حيوت المهري)، الذي كان معلماً(١٢) في السفينة (درياسرا)، وهي السفينة التي حملت عائلة السلطان بهادر ونفائس خزائنه(١٣).

ومن الواضح أن البرتغاليين علموا لاحقًا بخبر تلك الأخشاب وبسببها اتهموا السلطان (بهادر شاه) بدعمه للعثمانيين ألدِّ أعدائهم مما تسبب بمقتله غيلة على أيديهم بالرغم من نفي هذه التهمة عن نفسه(١٤). وكان مقتل هذا السلطان المجاهد يوم الإثنين ٣ رمضان ٩٤٣هـ/ فبراير ١٥٣٧م(١٥). وقد أرَّخ المسلمون سنة موته بحساب الجمل بالقول (قتل سلطاننا بهادر)(١٦)، أما الهنود فيؤرِّخونه بحساب الجمل بالقول (سلطان البر شهيد البحر)(١٧). وبعضهم بالهندية: (فرنكيان بهادر كش)(١٨)، وكان هذا بعد بلوغ أسرة هذا السلطان للمدينة بقرابة أربعة عشر شهرًا.

إن هذا الأسطول الهندي الذي حمل عائلة السلطان وبعض رجال مملكته متوجِّهًا لبلاد الحرمين الشريفين، ليس الأخير، فقد تبعه أسطول آخر في ١٠ شوال ٩٤٢هـ/ أبريل ١٥٣٦م ضم عشرين مركبًا، فيهن (عمة السلطان بهادر شاه) ووزيران من وزراء مملكته هما الوزير (حميد الملك) وهو أخو الوزير سابق الذكر (آصف خان)، والوزير (شمس خان)(١٩)، ومعهم أيضًا أمين المبرَّة البهادرية (الصدقة)، ويدعى الخواجا (خليل بن زين الدين الكيلاني العجمي).

وهذه المراكب محمَّلة أيضًا بالكثير من الأموال والتحف والمؤن(٢٠). وقد عاد هذا الأسطول إلى الهند في ١٤ صفر ٩٤٣هـ/ أغسطس ١٥٣٦م محمَّلاً من جدة بالقماش والخيل والمماليك والسمن وغير ذلك، وفيه الوزير حميد الملك(٢١).

أما الوزير السابق الذكر (آصف خان) ومعه عائلة السلطان وخدمهم وحشمهم، فقد مكثوا بالحجاز حتى بعد أن وصلتهم الأنباء الأولى عن انتصارات ابنهم السلطان بهادر شاه على المغول، بل مما هو مؤكّد أيضًا أنهم

مكثوا فيها حتى بعد أن وصلتهم الفاجعة بمقتل ابنهم السلطان بهادر شاه على يد الغزاة البرتغاليين(٢٢). ولكن هل عادت الأسرة بعد ذلك؟ خاصة أن مملكتهم في كوجرات ما تزال في أيدي أبنائها.

ذلك أنه وبعد مقتل السلطان بهادر شاه وبناءً على وصيته تولى الحكم مباشرة ابن أخته ويدعى ميران محمد شاه فاروقي (محمد بن عادل بن نصير الفاروقي البرهانبوري)(٢٣)، وهو سبط السلطان مظفر شاه. وكان هذا أميرًا على برهانبور أحد أقاليم الكجرات، إلا أنه توفي سنة ٩٤٤هـ/ ١٥٣٨م بعد أن حكم شهرًا ونصف(٢٤)، ليتسلم السلطة بعده ابن أخ السلطان بهادر شاه ويدعى (محمود بن لطيف خان)(٢٥). وهذا السلطان الصغير بعد أن تمكن من ضبط البلاد والحفاظ على أمنها واستقرارها أرسل رسالة للوزير آصف خان يأمره بإعادة عائلة السلطان بهادر شاه للهند(٢٦). وكان هذا في شهر محرم سنة ٩٤٦هـ/ ١٥٣٩م، فتم له ذلك. أما الوزير (آصف خان) فلم يعد إلى الهند إلا سنة ٩٥٥هـ/ ١٥٤٨م(٢٧)، أي بعد أن قضى في بلاد الحرمين الشريفين قرابة ثلاثة عشر عامًا.

ولنا هنا بعد كل هذا أن نضع عددًا من التساؤلات لكي يستقيم لنا المشهد ويتضح أكثر لنتسائل عمن كان في استقبال تلك الأسرة المالكة؟ وكم كان مكوثها في المدينة؟ وما نوع الاستقبال والضيافة وحفاوتها؟ وغيرها من التساؤلات التي من شأنها أن تزيد المشهد جلاء ووضوحًا. والأهم من هذا كلِّه من هم هؤلاء الزوار العابرون تحديدًا والبالغ عددهم قرابة ألفي نسمة؟

من المؤسف له أن المصادر والمراجع المحلية لم تقدم لنا في هذا الشأن سوى إشارات عابرة عن هذا الأسطول، بل ولم تقدم لنا حتى المعلومات الكافية التي تحدد لنا فيها هوية حاكم المدينة الذي استقبلهم في تلك المدة، وإن كنا نرجح أنه الأمير أحمد بن مطران. وطبعًا وبالنظر لتاريخ وصول هذا الأسطول مدينة الشحر (أواخر ربيع الآخر)، وتاريخ وصوله ميناء جدة (١٠ جمادى الأولى) يعطينا مؤشرًا واضحًا على أن هذا الأسطول لم يمكث في المدينة سوى أيامٍ فقط بغرض التزود أو إصلاح بعض الأعطاب ومن ثمَّ مغادرتها على عجل.

أما عن هؤلاء العابرين والبالغ عددهم الألفان، وفيهم عائلة السلطان ووزراء دولته، فقد حاولت تتبُّعَهم في المصادر والمراجع المختلفة وتوصلت إلى بعض منهم:

عائلة السلطان بهادر شاه المؤكدين والمحتملين:

وفقًا لما في أيدينا من مراجع فقد أشار الطيب بافقيه في تاريخ الشحر أن الأسطول الذي وصل إلى مدينة الشحر وفيه عائلة السلطان بهادر شاه كان يضم ((أم بهادر وزوجته وعياله))(٢٨)، بينما في مراجع أخرى لم نجد أي ذكر لوالدته، وهذا يجعلها في حكم المحتملين وليس المؤكدين، ففي مصنف (نيل المنى بذيل بلوغ القرى) لجار الله بن العز بن فهد أن السلطان بهادر شاه لَمَّا أحس بالخطر المغولي أن يداهم مملكته، أركب في المراكب: ((زوجته وأخاه وجماعة من أهله وخواصه نحو ألفي نفس من الفضلاء والمعتبرين، وعين المقدمين الملقب آصف خان..))(٢٩).

ومن خلال البحث والتحري في المصادر والمراجع المختلفة تبين أن والدة السلطان بهادر شاه تدعى (مخدومة جهان)(٣٠). وهي وفقًا لرواية بافقيه كانت من ضمن أفراد العائلة التي قدمت المدينة. ولكن في إشارات أخرى تبين أن والدته هذه كانت موجودة بالهند لحظة مقتل ابنها السلطان بهادر(٣١)، فمن المحتمل إذا أخذنا بصحة رواية بافقيه، أنها عادت للهند مع رحلة العودة الأولى التي قادها الوزير حميد الملك وبصحبتها حفيدها محمود بن لطيف خان، الذي عين لاحقًا سلطانًا.

أما زوجة السلطان بهادر فهي من المؤكد أنها في الرحلة، وهي ابنة أحد أمراء السند يدعى (جام فيروز)، تزوجها السلطان بهادر سنة ٩٣٩هـ/ ١٥٣٣م. ومن المحتمل أن

يكون لديها ابنة واحدة أو ابنتان بصحبتها في الرحلة لقصر مدة الزواج. ومن المؤكد أيضًا جواريهم ومن بينهم داية عيال السلطان (المربية)، والإشارة إليها ذكرت في بعض المصادر(٣٢).

ومن المحتمل أيضًا أن تكون معهم زوجة أخيه السلطان المقتول (لطيف خان) (ت: ٩٣٣هـ/ ١٥٢٦م)، وتدعى (دولت خانة)، التي أصبحت لاحقًا سلطانة بعد أن تولى ابنها السلطان محمود بن لطيف شاه الحكم(٣٣). وكان هذا صغير السن عندما قتل عمه بهادر شاه؛ إذ لم يتجاوز اثني عشر عامًا. ومن المحتمل بحكم صغر سنه في تلك المدة أن يكون أيضًا من ضمن الوفد. وقد قتل هذا السلطان سنة ٩٦١هـ/ ١٥٥٤م ومعه وزيره ووزير العائلة الوفي آصف خان.

أما أخوه الذي أشير له في فقرة سابقة، فلم يتبين لنا أيٌّ منهم، على فرضية أن الإشارة صحيحة، ذلك أن السلطان مظفر شاه والدهم لديه سبعة من الأولاد إلى جانب السلطان بهادر، وهما السلطان إسكندر خان، السلطان لطيف خان، السلطان نصير خان (محمود)، جاندخان، إبراهيم خان. والإخوة الثلاثة الأوائل قتلوا بسبب الصراع على الكرسي قبيل أن يتولى أخوهم بهادر الحكم. فيبقى أحد الاثنين الأخيرين. إلا أن الغريب في الأمر أنَّه لم يذكر في أي من المصادر التي تحدثت عن وجود العائلة في مكة ولم تشر لأي ذكر لهذا الأخ. ومن المحتمل أن تكون الرواية التي تنص على ذكر أخيه بأن المقصود ابن أخيه، ومما يرجح ضعف رواية وجود الأخ أيضًا أنه في سنة ٩٤٦هـ/ ١٥٣٩م أرسل السلطان محمود بن لطيف خان السابق الإشارة إليه وبعد أن أصبح سلطانًا رسالة إلى الوزير (آصف خان) يطلب منه إرجاع عائلة السلطان بهادر إلى الهند، دون أي إشارة لوجود أحد أعمامه هناك(٣٤). وهذا الأمر متروك إلى تحقيق أكثر.

وإلى جانبهم - وهو من المؤكد - وأنها معهم (عمة السلطان بهادر)، وهذه مقدمها في الرحلة الثانية.

وزراء الحكومة ورجالها:

أما الوزراء وعوائلهم فأشهرهم:

١- العالي الوزير آصف خان، واسمه عبدالعزيز بن حميد الملك محمد بن ركن الدين محمد(٣٥)، وهو أكثر من حظي بالترجمة مقارنة ببقية الأعلام المذكورين باستثناء السلطان بهادر. وبطبيعة الحال ستكون معه زوجته؛ فقد ذكرت بعض المصادر من أن الوزير آصف خان وبعد وصوله لبلاد الحرمين الشريفين اصطحب معه اثنين من أبنائه لاختتانهم، أحدهما كان في سن المراهقة ويدعى (قطب خان)، والآخر لم يتجاوز عمره السنة(٣٦).

٢- الوزير عبدالحليم بن حميد الملك، وهو أخ الوزير آصف خان. وقد أتى في الحملة الثانية.

٣- الوزير عماد الملك كاويلي. أمير الأمراء في دولة السلطان محمود شاه.

٤- الوزير شمس خان. وقد تكرر ذكر هذا الوزير في الرحلتين. ففي ظفر الواله ذكر أنه من وزراء الرحلة الأولى(٣٧). وفي نيل المنى في الرحلة الثانية(٣٨).

٥- الوزير قيصر خان.

٦- كاتب الوزير آصف خان ويدعى ميا عمر الهندي.

٧- وكيل الوزير آصف خان ويدعى سراج الدين عمر بن كمال النهروالي(٣٩). وهو والد مصنف كتاب ظفر الواله الشيخ محمد بن عمر الآصفي الألغخاني(٤٠).

٨- أمين المبرة البهادرية، أي المسؤول عن الصدقات السلطانية. ويدعى الخواجا (خليل بن زين الدين محمد الكيلاني العجمي)، وهذا توفي بمكة شهر ذي القعدة سنة ٩٤٤هـ/ ١٥٣٨م(٤١). وفي إشارة أن لديه ابنة مقبلة على الزواج عندما كانوا في مكة، وعلى ما يبدو أنه اصطحبها معه من الهند.

٩- حيوت المهري. ذكره مصنف ظفر الواله، وأشار إلى أنه كان معلماً في السفينة (دریاسرا)، وهي السفينة التي نقلت فيها عائلة السلطان بهادر ونفائس خزائنه وأمواله. وكان شاهد عيان على الرحلة(٤٢).

١٠- مبعوث الوزير آصف خان وهو من قبيلة يافع، لم تفصح لنا المصادر والمراجع التي لدي عن اسمه، وهو من أرسله الوزير آصف خان في أثناء إقامته في الحجاز إلى السلطان العثماني حاملاً معه الهدايا النفيسة، وعاد حاملاً الرد الإيجابي من السلطان العثماني.

١١- محمد راجا. وهو من أتباع الوزير آصف خان، قتل في ١٤ محرم سنة ٩٤٥هـ/ ١٣ يونيو ١٥٣٨م في مكة على يد هندي آخر يعمل خياطًا(٤٣).

هؤلاء هم من استطعت جمعهم والتعرف عليهم من خلال متابعة ما لديَّ من مصادر ومراجع محدودة. ومن المحتمل أن مصادر ومراجع أخرى وبخاصة الهندية منها قد تزودنا بالمزيد من المعلومات عن الشخصيات التي رافقت الأسطول، بل المزيد من الأخبار عن تلك الأسرة الحاكمة، وعن علاقة الحضارمة بالهند.

ونود أن نشير هنا إلى أن الكثير من الأسر والشخصيات الحضرمية هاجرت في حقب تاريخية مختلفة إلى بلاد الهند وإلى إقليم كوجرات تحديداً، وكان لها الأثر البالغ في الحياة الاجتماعية والعلمية والفكرية لتلك البلاد، وفي الأكثر الأسر العلوية كآل العيدروس(٤٤)، ومنهم السيد شيخ بن عبدالله العيدروس الأحمد آبادي(٤٥) (ت: ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م)، وابنه عبدالقادر بن شيخ العيدروس(٤٦) مصنف (النور السافر في أخبار القرن العاشر)، والأديب النحرير عبدالله بن أحمد بافلاح الشحري(٤٧) (ت: ١٠٢٠هـ/ ١٦١١م)، والأديب أحمد بن محمد باجابر(٤٨). كما أن العلامة الفقيه محمد بن عمر بحرق الشحري(٤٩) (ت: ٩٣٠هـ/ ١٥٢٣م) صاحب المصنفات الشهيرة، الذي تولى قضاء مدينة الشحر مدة، هاجر قبيل وفاته إلى الهند واستقر في أحمد أباد حيث أكرم من قبل سلاطين هذه الأسرة وبخاصة من قبل السلطان (مظفر شاه الحليم) (ت: ٩٣٢هـ/ ١٥٢٥م) والد السلطان (بهادر)؛ إذ كان الفقيه محمد بحرق معلماً لهذا السلطان ومقربًا منه، وقد صنف له كتابه (تبصرة الحضرة الشاهية الأحمدية بسيرة الحضرة النبوية)، وهو الكتاب الذي غيرّ بحرق اسمه فيما بعد إلى كتاب (حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار). وفي تلك الأرض توفي العلامة بحرق ودفن. وبعض روايات تقول إنه مات مسمومًا(٥٠). وكذلك الأديب عبدالمعطي بن حسن باكثير (ت: ٩٨٩هـ/ ١٥٨١م)(٥١)، وغيرهما كثير.

الهوامش:

(١) من ملوك كوجرات (على الساحل الغربي للهند)، اعتلى العرش في ٢٤ شوال ٩٣٢هـ/ ١٥٢٥م. ويعد العاشر من سلالة ملوك كوجرات. كان ملكًا ذا همة ونشاط استطاع فتح مالوه في شعبان ٩٣٧هـ/ ١٥٣٠م. خاض معارك مع همايون بن بابر المغولي، فاضطر للاستعانة بالبرتغاليين، الذين قبلوا مساعدته مقابل شروط وافق عليها، ثم حاول التملص منهم ومساعدة المسلمين، فعلم البرتغاليون بأفعاله فكادوا له مؤامرة أفضت لمقتله سنة ٩٤٣هـ/ ١٥٣٦م. انظر ترجمته المفصلة في كتاب المسلمون في الهند من الفتح العربي حتى الاستعمار البريطاني، الترجمة الكاملة لكتاب طبقات اكبري لنظام الدين أحمد بخشي الهروي، ترجمه عن الفارسية د. أحمد عبدالقادر الشاذلي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (٣/ ١٢٦- ١٤٤)؛ الحسني، عبدالحي، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر المسمى الإعلام بمن في تاريخ الهند من أعلام (٤/ ٣١٨)؛ المنيباري، أحمد زين الدين، تحفة المجاهدين في أخبار البرتكاليين، تحقيق: محمد سعيد الطريحي، مؤسسة الوفاء، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٠م، ص٢٠١- ٢٠٢. الآصفي، عبدالله محمد العخاني، ظفر الواله بمظفر واله، لندن، ١٩١٠م. (١/ ١٣٩). وانظر خبر وصول الأسطول باسنجلة، عبدالله محمد، العقد الثمين الفاخر في تاريخ القرن العاشر، تحقيق: عبدالله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط١، ٢٠٠٧م، ص٥٤. بافقيه، محمد بن عمر، تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر، تحقيق: عبدالله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط١، ١٩٩٩م، ص٢٣١.

(٢) تباينت روايات المؤرخين في عدد سفن ذلك الأسطول فعند المؤرخ عبدالله بن محمد باسنجلة في كتابه تاريخ الشحر المسمى العقد الثمين الفاخر في تاريخ القرن العاشر، أن عدد تلك السفن هي ثمان (أربع برش وأربع غربان)، ص٥٤، بينما في تاريخ الشحر للمؤرخ محمد بن عمر بافقيه أن عدد السفن التي قدمت إلى الشحر حاملة عائلة بهادر شاه وخدمهم عددها نحو سبع خشب من

نوع البرش وغيرها. ص٢٣١. أما في ظفر الواله فعنده عدد السفن عشر، (١/ ٢٥٧)، وفي نيل المنى بذيل بلوغ القرى لجار الله بن فهد، أن عدد السفن التي حملت الأسرة ووصلت إلى الحجاز ست سفن. نيل المنى (٢/ ٦٠٢).

(٣) ذكر الباحث عمر الخالدي في بحثه الموسوم (عرب حضرموت في حيدر أباد) أن جيش بهادر شاه الذي حكم كوجرات من ١٥٢٦-١٥٣٧م ضم حوالي (١٠,٠٠٠) من الجنود جلهم من اليافعيين والمهريين ومن جماعات أخرى من جنوب الجزيرة العربية. انظر البحث ترجمة جمال محمود حامد، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، جامعة الكويت، العدد (٤٥)، ربيع ثاني ١٤٠٦هـ، ص١٣٦.

(٤) ظفر الواله، (١/ ٢٥٧).

(٥) لمعرفة المزيد من حياة الوزير آصف خان يمكن الرجوع إلى بحث د. لمياء أحمد شافعي، حياة الوزير الكجراتي الهندي آصف خان بمكة المكرمة، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد (٤٨) ذو الحجة ١٤٣٠هـ، ص٧٥٤، العيدروس، النور السافر، ص٣٢٥، بافقيه، تاريخ الشحر، ص٢٣٩، ص٣٤٥.

(٦) باسنجلة، العقد الثمين الفاخر، ص٥٤، بافقيه، تاريخ الشحر، ص٢٣١.

(٧) من المحتمل أن يكون حاكم مدينة الشحر آنذاك هو الأمير أحمد بن مطران نائبًا للسلطان بدر بن عبدالله الكثيري.

(٨) لتفصيل ذلك انظر كتاب السكوتي، أنور حسن، المختصر في تاريخ مدينة الشحر العام، من إصدارات مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر، توزيع دار الوفاق للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط١، ٢٠٢١م، ص٢٦٠- ٢٦٢، د. الجعيدي، عبدالله سعيد، السلطنة الكثيرية الأولى في حضرموت، دار تريم للدراسات والنشر، ط١، ٢٠١٤م، ص١٣٣.

(٩) هو مظفر بن محمود بن محمد بن أحمد بن محمد بن المظفر الكجراتي أبو النصر مظفر شاه الحليم. انظر ترجمته في المختار المصون في أعلام القرون (٢/ ٨٨١)، والإعلام بمن في تاريخ الهند من أعلام (٤/ ٤٣١)، المسلمون في الهند (٣/ ١١٠).

(١٠) نيل المنى، ص٦٠٢.

(١١) شهاب، حسن صالح، أحمد بن ماجد والملاحة في المحيط الهندي، مركز الدراسات والوثائق، الإمارات العربية المتحدة، ط٢، ٢٠٠١م، ص٣٦.

(١٢) المعلم تطلق على الخبير في قيادة السفن الشراعية لمسافات طويلة، ويتطلب منه أن يمتلك خبرة واسعة في شئون الملاحة، والفلك، ومعرفة تامة بالخرائط البحرية، وعمل البوصلة والاسطرلاب وغيرها، الكسادي، بدر بن أحمد، القاموس البحري، مراجعة: حسن صالح شهاب، المجمع الثقافي، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، ط١، ٢٠٠٤م، ص١٣٨.

(١٣) ظفر الواله (١/ ٢٥٧).

(١٤) بافقيه، تاريخ الشحر، ص٢٣٩، باسنجلة، العقد الثمين الفاخر، ص٤٧.

(١٥) انظر خبر مقتله: بافقيه، تاريخ الشحر، ص١٩٩، ص٢٣٨، المنيباري، تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين، ص٢٠١.

(١٦) العيدروس، النور السافر، ص٢٨٣.

(١٧) المنيباري، تحفة المجاهدين، بالهامش، ص٢٠٢.

(١٨) الحسني، الإعلام بمن في تاريخ الهند من أعلام (٤/ ٣١٨).

(١٩) ثمة إشارة في بعض المراجع إلى أن هذا الوزير كان من مرافقي الأسطول الأول. نيل المنى (٢/ ٦٢٥).

(٢٠) نيل المنى (٢/ ٦٢٥).

(٢١) المرجع السابق (٢/ ٦٤٧).

(٢٢) انظر خبر وصول الفاجعة في نيل المنى (٢/ ٦٧٢).

(٢٣) المسلمون في الهند (١٤٥/ ٣)، الإعلام بمن في تاريخ الهند من أعلام (٤/ ٤١١).

(٢٤) الإعلام بمن في تاريخ الهند من أعلام (٤/ ٤١١)، المسلمون في الهند (٣/ ١٤٥).

(٢٥) في نيل المنى أن من استلم السلطة بعده هو السلطان محمود بن إسكندر، وهذا وهم (٢/ ٧٨٥).

(٢٦) نيل المنى (٢/ ٧٨٥).

(٢٧) العيدروس، النور السافر، ص٣٢٥.

(٢٨) بافقيه، تاريخ الشحر، ص٢٣١.

(٢٩) نيل المنى، ص٦٠٣، وظفر الواله (١/ ٢٥٧).

(٣٠) المسلمون في الهند (٣/ ١٤٤).

(٣١) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٣٢) نيل المنى (٢/ ٦٠٤).

(٣٣) ترجمته في الإعلام بمن في تاريخ الهند من أعلام (٤/ ٤٢٤).

(٣٤) نيل المنى (٢/ ٧٨٥).

(٣٥) ترجمته الإعلام بمن في تاريخ الهند من أعلام (٤/ ٣٦٦).

(٣٦) نيل المنى (٢/ ٦٦١).

(٣٧) ظفر الواله (١/ ٢٥٧).

(٣٨) نيل المنى (٢/ ٦٢٥).

(٣٩) الإعلام بمن في تاريخ الهند من أعلام (٤/ ٣٦٧).

(٤٠) ترجمته المرجع السابق (٥/ ٦٢٤).

(٤١) نيل المنى (٢/ ٧٣٠).

(٤٢) ظفر الواله (٢/ ٢٥٧).

(٤٣) نيل المنى (٢/ ٧٤٣).

(٤٤) انظر للتفصيل باذيب، د. محمد أبوبكر، إسهامات علماء حضرموت في نشر الإسلام وعلومه في الهند، دار الفتح للدراسات والنشر، ص٧١ وما بعدها.

(٤٥) انظر ترجمته: الإعلام بمن في تاريخ الهند من أعلام (٤/ ٣٥٢)، السقاف، عبدالله بن محمد، تاريخ الشعراء الحضرميين، مطبعة حجازي بالقاهرة، ١٣٥٣هـ، (١/ ١٧١).

(٤٦) انظر ترجمته: بامطرف، محمد عبدالقادر، الجامع، الهيئة العامة للكتاب، صنعاء، ط١، ٢٠٠٣م، ص٣٢٣.

(٤٧) ترجمته تاريخ الشعراء الحضرميين، (١/ ١٨٥).

(٤٨) انظر ترجمته: الشلي، محمد بن أبي بكر، تحقيق: إبراهيم المقحفي، عقد الجواهر في أخبار القرن الحادي عشر، مكتبة الإرشاد، صنعاء، مكتبة تريم الحديثة، ط١، ٢٠٠٣م، ص١٧، تاريخ الشعراء الحضرميين، (١/ ٢٠٤)، الإعلام بمن في تاريخ الهند من أعلام (٥/ ٤٩٠).

(٤٩) انظر ترجمته: الإعلام بمن في تاريخ الهند من أعلام (٤/ ٤١٢). باذيب، إسهامات علماء حضرموت، ص٧٣.

(٥٠) الإعلام بمن في تاريخ الهند من أعلام (٤/ ٤١٤).

(٥١) المرجع السابق (٤/ ٣٧٧).

22
العدد (23)
يناير
مارس
2022م

من تاريخ القضاء بحضرموت

خطابات عدم الإنفاق





إعداد القاضي/
عصام محمد بن عبيدالله*

إنّ من أكثر الإشكالات العملية التي واجهتها المحاكم في زمن الدولة الكثيرية بحضرموت، هو غياب الأزواج عن زوجاتهم مع ما يستتبع ذلك الغياب من التوقف عن النفقة، وسائر الحقوق الزوجية. وسبب الغياب، هو الهجرة التي غلبت على المجتمع الحضرمي منذ العهود السابقة، وحتى اليوم ؛ إذ كان القطر الحضرمي من أبطأ بلاد الله سيراً، وأقلها تطوراً، وتقدماً إلى الأمام(١)، وساد فيه الترنح الاقتصادي؛ إذ يعيش الناس حالة تقشف، وضنك في العيش(٢)، ما جعل اغتراب الحضرمي أمراً ضرورياً لتوفير لقمة العيش، ولهذا فإن المرأة هي من تتحمل عبء هذا الأمر، فقد وجدت كثير من النساء بلا عائل، أو منفق. ولمعالجة هذه المعضلة، فإنَّ التنظيم القضائي بحضرموت قد طبق نظام الإنابة القضائية الدولية(٣)، متى كان الزوج مقيماً بالخارج؛ وذلك لإعلان الأطراف بكل ما يقام نحوهم من الطلبات، والدعاوى، إلا أن كثيراً من الأزواج يقيم داخليًا، أو أن الزوجة تعرف سبيلاً للوصول للزوج عن طريق أحد الأقارب، أو المعارف، لذا فإنَّ المحاكم تعمد إلى التخاطب مع الزوج نفسه، للقيام بالإنفاق على زوجته، أو حتى لتسريحها، لئلا تبقى الزوجة معلقة، وهذا الإجراء تقوم به المحكمة قبل الدخول في أي دعوى نحو الزوج الغائب، وهي في الغالب تغني عن السير في إجراءات دعوى عادية ؛ لأنهَّا تحسم الأمر، إما بالإنفاق، أو الفراق.

أهمية تلك الخطابات:

وتبرز أهمية هذه الطريقة في أنها تأتي للحد من تشدد المحاكم حينها في الحكم بفسخ النكاح بغياب الزوج؛ إذ لا تعد الغياب مبرِّراً للفسخ متى وجد لدى الزوجة ما تكسو به جسمها، وتشبع به بطنها، من مال زوجها(٤)، بل وتتشدد الأحكام كثيراً في ايجاد كل المعتبرات، والمبررات الشرعية للفسخ لعدم الإنفاق(٥)، كما تبرز أهمية هذه الخطابات للجهاز القضائي في التقليل من عدد القضايا المنظورة أمام المحاكم؛ إذ يحسم الأمر بمجرد خطاب يحرَّر للشخص المعني.

نموذج لخطابات الغياب:

وللوقوف أكثر على حقيقة تلك الخطابات المرسلة للشخص نفسه، قبل الدخول في خصومة قضائية، فإننا نورد هذا الخطاب المحرر لشخص يقيم بعدن، والذي جاء نصه فيما يأتي:

الحمد لله . من سيئون إلى عدن في ٣٠/ ذي القعدة / ١٣٦٦هـ

جناب : أحمد بن محفوظ بن أحمد با.....

بعد السلام أفيدك إن زوجتك: عطا الله بنت محفوظ بن أحمد با.... المقيمة بسيئون حضرت إلينا، وذكرت إنك سافرت منذ نحو سنة وثمانية أشهر، وإنك وعدتها بأنَّك سترسل إليها مساعدة في خرجها قدر خمس ربية، أو ست ربية كل شهر. وذكرت أنَّك قد أرسلت إليها قريب خمسين روبية متفرقة، وهي تطلب منك أن تواصلها على موجب ما ذكرته لها بخمس ربية، أو ست ربية، في الشهر. وبناء على ما ذكر فأرجوك أن تجيبها إلى ما طلبته، وهي راغبة فيك، وإذا قد رضيت بست روبية، أو بخمس في الشهر دل على أنها مساعدة لك، ومعاونة.

كتبنا بهذا إليك إجابة لزوجتك، وفي انتظار جوابك بالموافقة على ما ذكر والسلام.

مبارك عمير باحريش(٦)

نائب الشرع بسيئون

ثم ذكر كرامة باهديلة أن الزوج المذكور أعلاه طلق زوجته المذكورة أعلاه.

من هذا الخطاب يمكن القول إنّ تعليق أمر الزوجة قد زال، وإن كان بالطلاق إلا أنَّه حسم الإشكال القائم بشكل نهائي، وبدون الدخول بإجراءات التقاضي المطولة؛ ولهذا وجدنا الكثير من الخطابات المحررة من المحكمة لكثير من الأزواج يصرح فيه بتخييره، إمَّا بالإنفاق أو الطلاق، وأنَّ هذا هو طلب الزوجة الموجهة إليه؛ إذ ورد في أحد الخطابات ما نصه: "إنَّ صالحة بنت أحمد .... ذكرت أن زوجها برك ... غائب منذ تسع سنوات ولم ينفق عليها، وهي تريد طلاقها منه أو الإنفاق عليها، فذكرنا لها أننا سنكتب له. والذي يعرفه في عدن أمبارك بخيت"(٧)، فالزوجة هنا غاب عنها زوجها بعدن تسع سنوات؛ ولهذا فالزوجة لم تعد تبالي ببقاء العلاقة الزوجية مع كل تلك السنوات الطويلة من الغياب، وقد بين الخطاب أنَّ إرسال خطاب القاضي سيتم عن طريق من يعرفه بمكان وجوده.

كما جاء في أحد الخطابات ما نصه: "إلى جمعان بن عامر ... ذكرت زوجتك سلمى بنت أحمد ... أنَّك بقيت في قسم، وتركتها هنا في مريمة هي، وبنتك بلا نفقة. فالرجاء إمَّا أن تقوم بما عليك من نفقة، وكسوة، وغير ذلك، وإمَّا أن تفارقها، وأما كونك تتركها هكذا بلا نفقة فلا يسوغ "(٨).

غير أن بعض الأزواج يقوم بالإنفاق تجنبًا للإشكال؛ فقد جاء في أحد الخطابات ما يلي: "في ١١/ ١٠/ ١٣٦٦هـ، إنَّ الزوج أرسل لزوجته نيفًا وعشرين روبية..."(٩).

كما أن كثيرًا من الأزواج يعرض عن الرد على الخطاب الموجه نحوه، ما يجعل المحكمة تفرض للزوجة نفقة، وتأذن لها بالبيع من مال الزوج بقدر النفقة المستحقة لها(١٠).

وجميع ما يفضي له نتيجة ذلك الخطاب يدون أسفل الصورة المحفوظة في المحكمة، سواءً قام الزوج بالطلاق، أو بالنفقة التي أرسلها، أو الانتقال لمرحلة التقاضي العادية، وإصدار حكم على الغائب المتمرد على النفقة.

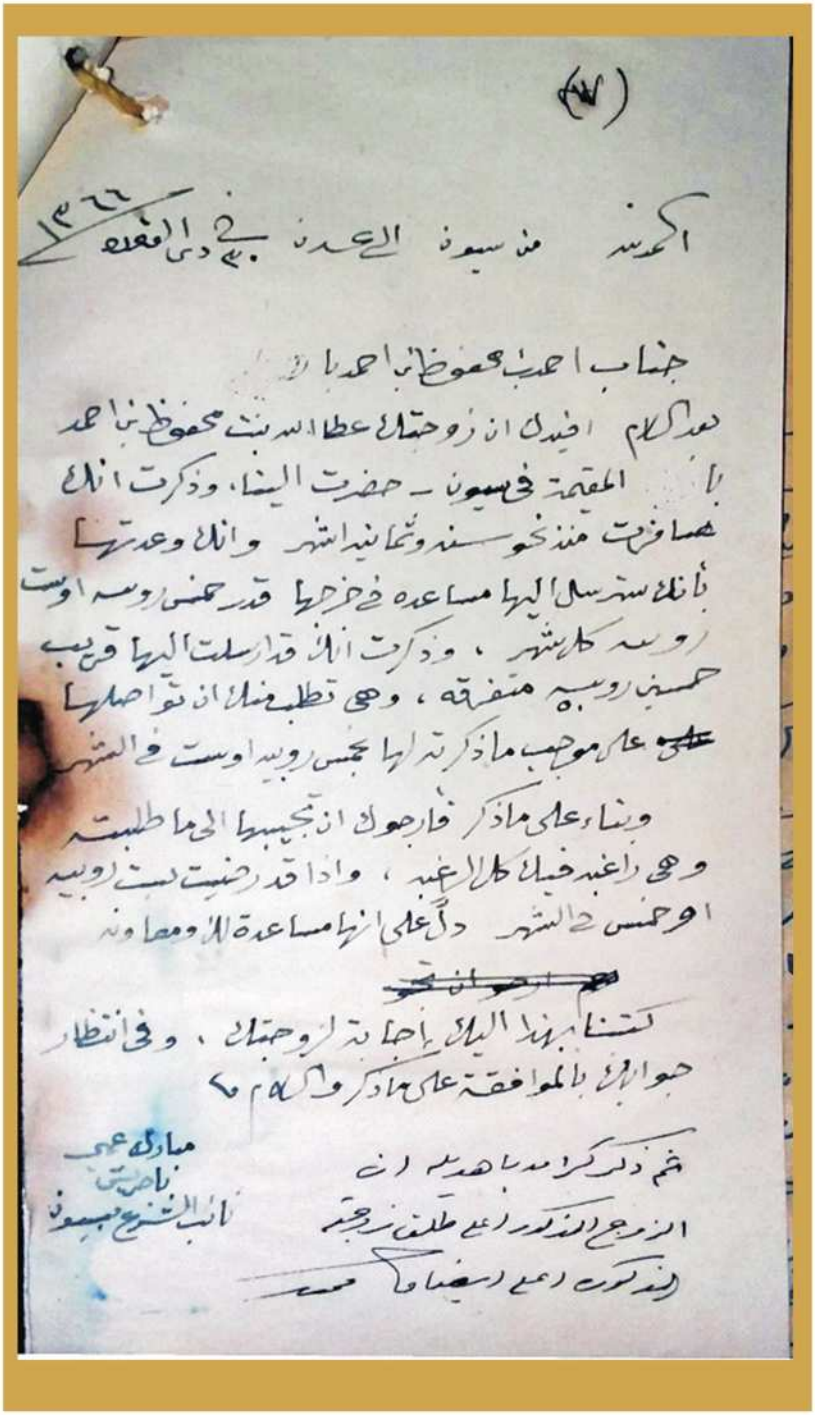
خاتمة:

وبهذا يظهر لنا أنّ النظام القضائي المطبق بحضرموت سابقًا، قد استطاع التعامل مع اكثر المشكلات العملية التي تعج بها أروقة المحاكم اليوم، وذلك من خلال التخاطب المسبق مع الزوج، قبل مباشرة إجراءات التقاضي العادية؛ ما يحد من عدد القضايا المرفوعة أمام

الحاكم، وعلى الرغم من أن نتيجة تلك الخطابات تنتهي بالطلاق غالبًا، والقليل منهم من يبادر إلى الإنفاق، فإنه وفي كلا الحالين فإنَّ نتيجة ذلك عدم بقاء المرأة معلقة.

الملحق:

ويشمل صور للخطاب المشار إليه أعلاه والمرسل الى عدن للشخص نفسه، وأصله محفوظ بأرشيف محكمة سيئون الابتدائية.



الهوامش:

* رئيس محكمة سيئون الابتدائية.

١) علي أنيس الكاف، مختارات من كتابات شيخ الصحافة محمد بن هاشم، ص١٨١.

٢) الحامد، تاريخ حضرموت، ج٢، ص٦٤٢.

٣) سبق تناول ما يتعلق بالإنابة القضائية في الحلقتين (١٣، ١٤).

٤) بعكس الحال بساحل حضرموت إذ تقرر الفسخ بتضرر الزوجة بغياب زوجها، متى زاد غيابه عن سنتين، عبد الرحمن بكير، المسائل المختارة، ص٣٥- ٣٧.

٥) ينظر للدلالة على تشدد المحاكم في الفسخ، حكم محكمة تريم الابتدائية بتاريخ ١٦/ جمادى الأولى/ ١٣٨١هـ، إذ رفضت المحكمة طلب الفسخ رغم غياب الزوج اثني عشر سنة مع عدم الإنفاق، الحكم مع تحليله، ينظر للباحث، القضاء بالدولة الكثيرية الثانية، ص ١٧٠-١٧١.

٦) القاضي/ مبارك بن عمير بن مبارك باحريش، ولد في تريم محرم ١٣٢٩هـ، وقبر بها شوال ١٣٦٧هـ، تولى قضاء تريم سنة ١٣٦٣هـ، نقل بعدها الى سيئون سنة ١٣٦٦هـ، عقب قضية السارية المشهورة والمعبر عنها بالمثل القائل: "يزول القاضي ولا تزول السارية" شغل قضاء سيئون سنة وستة أشهر، وصفه بن عبيد اللاه بأنه كان آية في النَّزاهة "قيل أنَّه قضى مسموماً، لأن البعض لم يكن راضياً عن اختياراته، وأحكامه" عبدالرحمن بكير، لقاء بمجلة حضرموت، العدد ٦- ٧ يناير، سبتمبر ٢٠١٢م، ص٤٥.

٧) أصل الخطاب محفوظ بأرشيف محكمة سيئون.

٨) أصل الخطاب محفوظ بأرشيف محكمة سيئون، رقم ١٤، بتاريخ ١٨/ ١٠/ ١٣٦٦هـ.

٩) أصل الخطاب محفوظ بأرشيف محكمة سيئون، رقم ١٢.

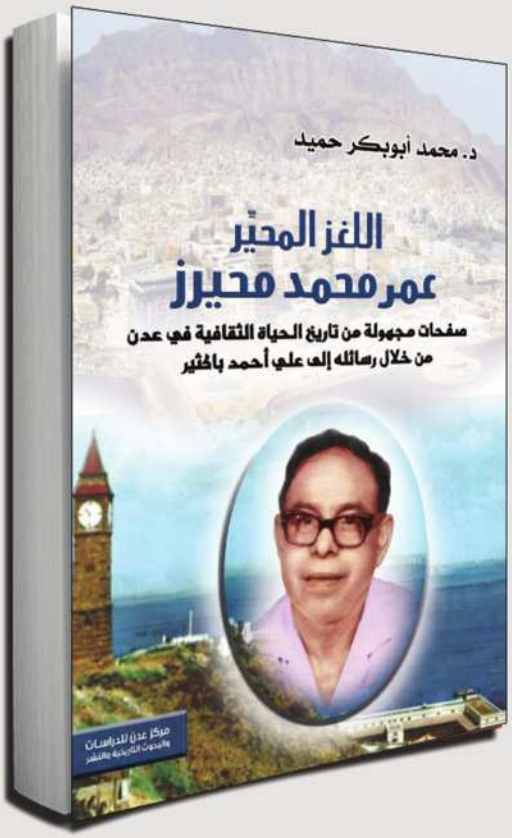
١٠) أصل الخطاب محفوظ بأرشيف محكمة سيئون، رقم ٣.

25
العدد (23)
يناير
مارس
2022م

اللغز المحيّر
عمر محمد محيرز

كمال محمود علي اليماني

((اللغز المحيّر.. عمر محمد محيرز))، كان هذا هو العنوان الرئيس البارز على وجه غلاف الكتاب/ البحث الذي كتبه الأستاذ د. محمد أبوبكر حميد، والذي وصلني للقراءة عبر الباحث العزيز هاني باسل، وقد ألحق العنوان الرئيس بما يشبه العنوان الفرعي التفصيلي إذ جاء فيه ((صفحات مجهولة من تاريخ الحياة الثقافية في عدن من خلال رسائله إلى علي أحمد باكثير)) وذكر اسم الشاعر والمسرحي والروائي والأديب الكبير علي أحمد باكثير هكذا دون أية القاب تعريفية، على الرغم من أن د. محمد أبوبكر متخصص في شؤون الرجل ويحمل له حبًا خاصًا، وأرى أنه تعمَّد فعل ذلك لأنه يرى ككل مثقف عربي أن علي أحمد باكثير لا يحتاج إلى تقديم، شأنه شأن الأدباء الكبار في عالمنا العربي من أمثال طه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم وغيرهم، فهو لا يقل شأنًا عن أي واحد منهم في عطاءاته وفي تأثيره في كثير من أدباء عالمنا العربي، لاسيما الإسلاميين منهم.



ويطالعنا وجه الأديب الراحل عمر محمد محيرز متوسطًا صدر الغلاف، وعلى يمينه ساعة التواهي الشهيرة ترميزًا لوجه عدن الثقافي.

الكتاب يقع في نحو ١٨٠ صفحة من المقاس الكبير، وخلفيته حملت اقتطافاً من تقديم للكتاب من لدن د. إيهاب عبدالسلام.

وقد ضم الكتاب بين دفَّتَيْه خمسة أقسام، شمل القسم الأول الحديث عن شخصية عمر محمد محيرز ومراحل حياته المجهولة، وانتقل الكاتب في القسم الثاني ليقدمه كشاعر من خلال قصائد ست أرسلها محيرز إلى علي أحمد باكثير، وعرَّج في القسم الثالث على رسائله المرسلة إلى باكثير التي اتضح فيها الجانب النقدي لمحيرز، أما القسم الرابع فقد ضم النصوص الكاملة لرسائل محيرز إلى باكثير، في حين أن القسم الخامس والأخير قد تزين بتلك النصوص بخط يد عمر محيرز ذاته .

والحق أنه لولا هذه الجهود التي بذلها د. محمد أبو بكر حميد، والتي استطاع من خلالها أن يميط اللثام عن واحد من أدباء منتصف القرن المنصرم، ويزيل تراب النسيان المتراكم على ذكراه؛ لما استطعنا التعرف على هذا الشاعر والناقد الحضرمي العدني، ولسقط اسمه من قوائم الأدباء المعروفين.

لاشك والحال هذه في أن المؤلف قد بذل جهوداً مضنية كي يصل إلى كل هذه الرسائل والقصائد والمقالات النقدية التي وثّقت أدبية الرجل المدروس، واستطاعت أن تبينِّ للقاصي والداني ما يتمتع به من شاعرية، ومن حس نقدي رفيع، وكيف لا يكون كذلك وكتاباته تنبئ عن كل ذلك، ولعل تعامله مع قامة أدبية رفيعة في اليمن وفي العالم العربي كالأستاذ الأديب علي أحمد باكثير لهو أكبر شهادة له عوضًا عن كتاباته.

والجلي أن عمر محيرز كان يشكل لغزاً محيراً للمؤلف وللكل، فهو الأديب الذي لا يعلم عن تاريخه الأدبي والثقافي حتى أقرب المقربين إليه من أسرته، كما أن أثره



د. محمد أبو بكر حميد

في الصحافة والمجلات الثقافية والأدبية لم يكن ظاهراً، مما يشير إلى اختفائه عن الساحتين الأدبية والثقافية لسبب ما لا أحد يعلمه.

ومن هنا نستطيع أن نقدّر كم الجهد الذي بذله الباحث في سبيل حل هذا اللغز المحير حقًّا، وإعادة الحياة ثانية لذكرى هذا الأديب والشاعر الراحل.

ولا يخفي د. محمد أبوبكر باحميد أنه استفاد في معرض بحثه هذا، لا من الوثائق والمخطوطات فحسب، بل ومن التاريخ الشفاهي الذي ارتبط بمحيرز من خلال حفيدته المستشار القانوني ضياء خالد محيرز، ومن الشاعر في الإمارات د. شهاب محمد عبده غانم، ومن الباحث هاني باسل الذي استطاع أن يمده بالكثير من المعلومات المفيدة في بحثه هذا. ومعلوم من خلال ما يورده د. أبوبكر في دواخل كتابه أن غالب الرسائل والوثائق قد حصل عليها د. أبوبكر من محفوظات الراحل علي أحمد باكثير مما يعني أن لباكثير فضلاً كبيراً في الكشف عمَّا استتر واختبأ من قصائد محيرز ومنثوراته التي جادت بها قريحته فترة حياته.

ونكتشف من خلال قراءتنا لهذا الكتاب/ البحث أن الشاعر والناقد عمر محيرز كانت له أنشطته الثقافية، وربما السياسية، ففي الجانب الثقافي نجد أن أهم مساهماته الثقافية كانت في مشاركته مع زملائه الشباب في تأسيس فرع (نادي الإصلاح العربي) في الشيخ عثمان، ثم شارك مع أخيه الأكبر عبدالقادر في تأسيس (نادي الإصلاح العربي الإسلامي) فرع كريتر، وهما ناديان ثقافيان في الأساس.

أما الجانب السياسي فعلى الرغم من أن عمر محيرز كان يتجنب الدخول في المعترك السياسي بشكل مباشر فإنه كانت تربطه علاقات بقادة بعض من الأحزاب السياسية آنذاك، فلقد ارتبط بعلاقة ود وحب وطني بالقائدين الوطنيين قحطان الشعبي، وفيصل عبداللطيف الشعبي، وكان يلتقي بهما سرًّا، كما ارتبط بعلاقة ربما أقوى - كما يذكر الباحث - بوطني آخر هو عبد القوي مكاوي. كما أنَّ له مساهماته الوطنية الفاعلة من خلال الوظائف التي شغلها فترة الاستعمار البريطاني في عدد من المناطق، وفي كثير من المواقف والمشاكل والخصومات بين القبائل.

الكتاب/ البحث استطاع أن يجلي لنا كثيرًا من جوانب حياة الشاعر والناقد عمر محيرز، وأن يضعها أمام نواظرنا كالبدر في ليلة التمام، وبذا فإن اللغز الذي كان محيرًا أضحى كتابًا مفتوحًا بكثير من كد وجهد تكبدهما د. محمد أبوبكر حميد، فكأنه جنى الشهد وأذاقنا إياه.

ولعله من المحتم عليَّ وأنا أحدثكم عن هذا الكتاب، وعن هذا الأديب والشاعر أن أنقل لكم مقتطفات من أشعاره المدللة على موهبته الشعرية الفذة.

يقول في قصيدة بعنوان (تُرى ما العمل):

تفضّلْ ومنَّ بعصماء من ... فرائدك الباترات مثّلْ
فنثرك درٌّ إذا ما نظمـ ... ـته ازدان عقداً بها قد كملْ
يضيءُ على جيدِ هذا الزمان ... فيبدي لنا من سناك الأجل

ويقول في قصيدة أخرى:

كلُّ شعرٍ - قد أتوهُ - جيداً ... كان بالحُسنِ لما قلتُ مدينْ
شعرنا الأصلي ومنهُ غيرُنا ... مستمدٌ قولَهُ في كلِّ حين
أنا في الشعرِ وإن جئتُ أخيراً، لا ... ولا فخرَ إمامُ الشاعرين

أما رسائله النثرية التي يتبدى فيها ناثرًا مبدعًا وناقدًا مبهرًا فهي كثيرة، وأحسب أن الابتسار يشوِّهها، ويفقدها كثيرًا من جمالياتها.

شكرًا للدكتور محمد أبوبكر حميد أن أثرى المكتبة اليمنية والعربية بكتابه هذا.

شكرًا له ولكل من ساعده لإظهار شخصية أدبية حضرمية عدنية عاشت في القرن المنصرم، وأهال عليها الزمان تراب النسيان، فكان أن قيض الله لها هذا الكاتب النابش في محفوظات الباكثير، والباحث عن المزيد هنا وهناك، وقيض له من سانده في مهمته هذه، فكان هذا العطاء الأدبي الرفيع.

عمر محيرز كان يتجنب الدخول في المعترك السياسي بشكل مباشر فإنه كانت تربطه علاقات بقادة بعض من الأحزاب السياسية آنذاك، فلقد ارتبط بعلاقة ود وحب وطني بالقائدين الوطنيين قحطان الشعبي، وفيصل عبداللطيف الشعبي، وكان يلتقي بهما سرًّا، كما ارتبط بعلاقة ربما أقوى بوطني آخر هو عبدالقوي مكاوي.

28
العدد (23)
يناير
مارس
2022م

من معالم مدرسة حضرموت في التعامل مع القضايا السياسية

من خلال كلام الإمام الحداد:

بحث تاريخي في منهجية المدارس



منير بن سالم بازهير

مدرسة سادة حضرموت بتريم مدرسة عريقة مباركة، تمتاز بمتانة أصولها، وبُعْدِ نظر مؤسسيها؛ فقد أسَّسوها لتربية الأنام والسير بهم نحو مرضاة العزيز العلام، همُّهم ربط الخلق بالخالق، وتحقيق الوفاق بين الخلائق، يعرف ذلك ويتيقنه من درس كتبهم بإنصاف ورويَّة.

وقد اتضحت لي بالمطالعة الدقيقة في كلام أكابرهم بعض معالم منهجهم في التعامل مع القضايا السياسية المحضة، وكذا ما يتصل بها من تنافسات ومماحكات، وذلك من خلال نماذج من كلام الإمام الحداد، مجدِّد الطريقة في القرن الثاني عشر، وهو رمز من رموز الطريقة العلوية الحضرمية، تأصل فيه الأخذ عن رجالها، وتشرَّب روحها، وأسسها في أرض مَنْبَتِهم تريم، عبر مجالسة الرجال من رموزها المتصلين بها تمامًا عبر سلاسل إسنادهم، وعبر فهم ما كتبه الأكابر من رجال الطريقة ممن سبقوه وخلفوا إرثًا مكتوبًا. فمن هذه الأسس والمعالم:

١- ابتعادهم عن التنافس السياسي مطلقًا:

يحرص سادة حضرموت في منهجيتهم على تجنيد أنفسهم للنصح المتزن للساسة والشعوب، أما وظيفتهم الأساسية فهي كما أفدت سابقًا (تربية الأنام، والسير بهم نحو مرضاة العزيز العلام)، وقد أدرك ذلك الإمام البرزنجي (ت ١١٠٣هـ)، وهو من أعيان القرن الحادي عشر الهجري وعلمائه، وهو من رموز المدرسة الحجازية آنذاك، فقد أفاد الإمام الحداد (ت ١١٣٢هـ) أنه كان يقول: (إن السادة الباعلوي، ما أسَّسُوا أمرهم إلا بالفقر المجرَّد، بقصد منهم، ولا هم لهم في شيء من الرياسات وحظوظ الدنيا، بل تركوها لغيرهم، حتى لو أنَّ أحداً منهم طلب الإمارة، أخرجه منها الباقون). ينظر تثبيت الفؤاد (١/ ٥٦- ٥٧).

فمنهجيتهم ترك أمر السياسة إداريًا للغير؛ لإدراكهم بخطر التنافس في هذه الدائرة، فكان نظرهم يتجه إلى إصلاح من يدير العملية السياسية من غير حرص على نزعه عن منصبه، ولا مزاحمته عليه، فيرون أن هذا هو الأنسب لهم دينيًا وإنسانيًا، (اسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين)، فإن من أراد أن تكون كلمته مسموعة، فلا بد أن يكون بعيداً عن الأطماع التي هي أساس الفتن والاحتراب.

٢- الفرار بالدّين من الفتن العمياء:

الفتن العمياء قديمة قدم التاريخ ذاته، وأقصد بالفتن العمياء: التي لا تميز ولا تبصر إلا مصالحها الذاتية فحسب.

فهناك عراك سياسي أعمى لا يبصر إلا في حدود ما تمليه عليه الرغبة والمصلحة القريبة، والقريبة فحسب، والحيلولة دونه ودون هدفه الأهوج، التي تضر أكثر مما تصلح، فيكتفون بإرسال رسائل النصح البريئة الحريصة على حقن الدماء، وإشاعة السلام وبسطه وتعميمه، من خلال مجالس نصحهم، وأروقة درسهم، ولكل من استمد نصحهم وقصدهم من رجال السياسة، مع مد أيدي الابتهال للعزيز العلام أن يصلح الجميع، وأن يطفئ نيران الفتن ما ظهر منها وما بطن، ومن النصوص الرائعة المجسِّدة لهذا المعلم قول الإمام الحداد: (ومثال الدول (أي السلاطين والملوك والساسة عمومًا) إذا اثنان كلاهما يريد الولاية، كثورين يتناطحان عند بقرة، يأخذها من غلب منهما، فلا تكن أنت خلفهما، ولا أمامهما، ولا بينهما. والسادة الباعلوي من قديم الزمن خارجون من بينهما، ولا يدنون منهما، ومن دنا خالف ما عليه سلفه).

أقول: وهذا كلام في غاية الجودة والنفاسة في تصوير حلبة الصراع السياسي، أنه في غالبه تدمير، ونزاع غير متعقل، تهيجه قوة وشهوة، يمارسه ثور أهوج مع مثيله، فإن حاولت فصله عن مراده طحنك في حلبته لفرط سعار غضبه المؤجج بنار الشهوة والرغبة والجهل الذي رمز له الإمام الحداد هنا بالثور..

والثور لا ينفك عن مراده وشهوته مهما حصل ولو كان في ذلك حتفه وحتف جميع من حواليه.

وفي رأيي أن هذا نص مهم في تجسيد معالم رؤية مدرسة حضرموت من القضايا السياسية، وهو قمين بالدراسة والنظر والتوقف بكل باحث يريد أن يفهم معالم مدرسة حضرموت من العراك السياسي.

منهجية آل باعلوي ترك أمر السياسة إداريًا للغير؛ لإدراكهم بخطر التنافس في هذه الدائرة، فكان نظرهم يتجه إلى إصلاح من يدير العملية السياسية من غير حرص على نزعه عن منصبه، ولا مزاحمته عليه، فيرون أن هذا هو الأنسب لهم دينيًا وإنسانيًا.

٣- الحرص على وحدة الصف وحقن الدماء:

يقول الإمام الحداد مبينًا معالم هذا المسلك: (وأما نحن فلا نشير إلا بما ظهر لنا فيه صلاحٌ للمسلمين وحقن دمائهم، وحفظ نفوسهم وأموالهم وحرمهم، فهذا الذي نحبه ونشير به، على جميع من ولي شيئًا من أمورهم، ومن التمس منا غير ذلك، أو نقله عنا، أو نسبه إلينا، فقد خان ومان، فاعتمدوا على ما ذكرناه، وأصلحوا النية مع الله تعالى، واطلعوه سبحانه من باطنكم على محبة ذلك والسعي فيه، بكل ما يمكنكم وتستطيعونه، ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوي عزيز). (المكاتبات ٢/ ١٢٩).

فالتسكين للفتن طبعهم وديدنهم، والحرص على حقن الدماء ووحدة الصف وصفهم ومسلكهم كما يفيده النص بوضوح تام.

٤- عدم الإثارة لغضب الساسة من غير موجب:

الحصيف في دعوته لا يحرك غضب الساسة نحوه ما دام لم ير منهم كفرًا صريحًا، فالساسة والسلاطين ممن قل فهمهم ودينهم ينبغي أن لا يُحرَّكوا أو يُثَارُوا؛ فإنهم عقاربُ وحيَّاتٌ

ساكنة، كذا قال الإمام الحداد في (تثبيت الفؤاد ١/ ٨٣).

فنصح أهل الشرع والتبصر بالسياسي الأرعن؛ لئلاَّ يوهمه أنهم يعادونه، فيشكل من نفسه عقربًا أو حية لبثِّ سمومه فيهم، بالتحريش تارةً، وبمحاولة النيل منهم تارة أخرى، مع أنهم لا يقصدون إلا نصحه، ووقايته من تحمل آثام العباد ممن تحت ولايته، ودعوته إلى الأمثل والأكمل وفقًا وما تمليه عليهم نصوص الشرع، ولكنْ قاتل الله الفهم السقيم.. ولهذا يقول الإمام الحداد: (لا ينبغي أن يحركوا، فإنهم كعقارب وحيات ساكنة)، وقال فيما يتصل بهذا الباب أيضًا: (لا تكلِّمْ من سكت عنك، ولا تُوقظْ مَنْ غفل منك، فربما ذلك يحركه بإيذائك). انظر: (تثبيت الفؤاد ١/ ٩٢). ولا شك أن قوله هذا مستفاد من تجربة ونظر فلا تتعجَّلْ في رفضه ونقده.

٥- صلاح العباد يكفيهم شر العداة والظلمة:

من معالم هديهم في التعامل مع الولاة الظلمة أنْ يدعوهم إلى الخير، ويسألوا الله لهم الهداية، فإن رجعوا عن ظلمهم فذاك الأحب إلى نفوسهم، وإن تمادوا فإن الله يكفيهم شر ذاكم المتعدِّي ((فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)).

قال الإمام الحداد: (إذا أكثر الإنسان الظلم ولم يزل يظلم، كان كالجريدة الخضراء، يتناقص ماؤها وخضرتها حتى تيبس، فعند ذلك تسرع النار في إحراقها) انظر تثبيت الفؤاد (١١٣/ ١).

فهم يرون أن صلاح العباد هو العنصر المسهم في إصلاح الولاة، يقول الإمام الحداد: (كنْ مليحًا لربك يكنْ كلُّ شيء مليحًا، فمن كان مليحًا لربه كان كل شيء له مليحًا، ومن كان بخلاف ذلك، كان كل شيء له كذلك، لأن الأشياء تابعة لخالقها) انظر تثبيت الفؤاد (١٧٤/ ١).

ويقول: (من راعى روعي، أنت تريد من الله أن يراعيك، فراع حقه أنت حتى يراعيك) تثبيت الفؤاد (١/ ١٦٩).



ومما سبق يتضح لنا منهجه في التغيير، وأنه يبدأ بالإنسان والمجتمع والقاعدة الشعبية، ومنهم يسري التغيير الإيجابي إلى الرأس والقمة، وهذا ما يؤكده قوله: (وإذا أردت أن الله يجري بك على العادة من لطفه وكرمه، فاجرِ أنت على العادة من طاعته وعبادته، فإن الله لا يغيرِّ ما بقوم حتى يغيرِّوا ما بأنفسهم) تثبيت الفؤاد (١٣٩/ ١).

ختامًا أقول: إن الغوص في تفهم كلام رجال المدرسة العلوية الحضرمية في مصادرهم المكتوبة، والتنقيب عنه، ودراسته، وتأمله، لقمين بتفكيك أبعاد كثير من القضايا، وتوضيح معالم النجاح فيها، والإحاطة بدلالات الهدى والرشاد المبصرة بسنن التعامل مع المتغيرات، وتجلية معالم الطريق وموقفهم من كل القضايا الموضوعة في ساحة المتغيرات الإنسانية، ولعليِّ هُديتُ إلى بعضها هنا، من خلال فقرات من كلام الإمام الحداد رحمه الله تعالى فيما يخص التعامل مع الفتن والقضايا السياسية، وبالجملة فهذا غيضٌ من فيضٍ من منهجهم، والأمر قابلٌ للمدِّ والبسط، ولكن الميسور لا يسقط بالمعسور، وهذا مفتتح نأمل تتميمه، ومن الله أرجو التوفيق والقبول، والحمد لله رب العالمين.

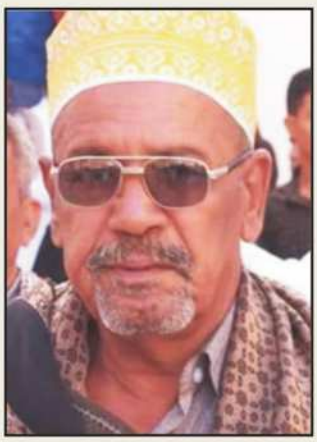
٨/ ذو القعدة/ ١٤٤٢ هجري. تريم حرسها الله تعالى من كل مكروه.

31
العدد (23)
يناير
مارس
2022م

فرقة الطيالة السلطانية القعيطية

للأعياد والمراسيم الرسمية بمدينة شبام حضرموت





يسلم سالم خراز

تأسست فرقة الطيالة السلطانية منذ أن تولت الحكم السلطنة القعيطية بمدينة شبام حضرموت آنذاك منذ قرون خلت ، المسلّمة من أسرة الحبيب العلامة آل الشيخ أبي بكر مولى عينات شرقي مدينة تريم حضرموت ، ومن ثم تم تسليمها للقيادة السلطانية بمدينة شبام حضرموت وبدوره سلمت فرقة الطيالة لأسرة آل خراز بمدينة شبام بمواثيق عرفية وشروط الالتزام بها .

وبقيت فرقة الطيالة لأسرة آل خراز منذ مئات السنين وهم يتوارثونها أبًا عن جدٍّ ولازالت إلى اليوم وهي قائمة عامًا بعد عام.



وعندما يهل هلال العيد معلنًا بقدوم العيد تدق طيالة العيد معلنة قدوم العيد منتصف ليلة العيد أعلى سطوح القصر السلطاني مع وابل من طلقات الرصاص معلنة يوم العيد .

تدق طيالة العيد صباح يوم الزينة عند خروج السلطان من قصره تتقدمه فرقة طيالة العيد ومن خلفه الموسيقى العسكرية المستحدثة، ثم يمر عبيد السلطان بالشارع العام حتى وصوله جامع هارون الرشيد لأداء صلاة العيد (للعيدين الفطر والأضحى المباركين)، ومن ثم تدق الطيالة والموسيقى العسكرية بعد خروج السلطان والمصلين بعد أداء صلاة العيد سيراً بالشارع الخلفي وصولاً إلى قصر السلطان. وبعدها تقوم فرقة الزامل التابعة (لدلل شبام) بالزامل والنشيد مروراً بالعودة بالشارع العام ووصولاً إلى بيت شيخ الدلل ومقدَّمهم الذي ينحدر من أسرة آل نصير حسب العرف المتبع لديهم .



يعدُّ قيام مراسيم العواد والأفراح مظهراً من مظاهر الاحتفال بالعيد، وبعد صلاة العيد وخطبتيه يخرج الطيالة والفرقة العسكرية يوم الزينة في جموع غفيرة من الجماهير والأطفال وهم متزينون بملابسهم الجديدة فرحون بقدوم العيد والاستمتاع بالأفراح ودقات طبول طيالة العيد، كما تطوف الطيالة السلطانية والفرقة الموسيقية العسكرية في بعض شوارع المدينة، مع زغاريد النساء من شرفات منازلهم في مشهد آخر يحاكي ويجسد مظاهر العيد أيام السلطنة. ومن تحت جامع المدينة تتوجه الطيالة إلى أمام قصر الحكم (ساحة الحصن)، وهي عادة منذ مئات السنين،



33
العدد (23)
يناير
مارس
2022م



وتقوم فرقة الطيالة لفترة قصيرة بعد الإفراغ من الزينة بدق رقصة البرعة لدقائق معدودوات تذكيراً برقصة البرعة (كما كان زمان)، وبعد وقوف الفرق من أداء مهامها تتجه الناس للتزاور والمعاودة للأهل والأقارب كلّاً في بيته، وفي أيام العواد تكون مداخل بيوت شبام مفتوحة للتزاور طيلة يوم العيد، كما تفوح الروائح الطيبة من العود والطيب للمعاودين، وتوافد الأولاد الصغار والبنات على مجموعات للمعاودة وحصولهم على عيدية العيد من مبالغ بسيطة وحلويات.



كما تقوم فرقة الطيالة في ثلاث ليال عصراً ابتداء من أول أيام العيد حتى غروب الشمس بدق رقصة البرعة تحت قصر السلطان في الساحة العامة. وهناك ضوابط البرعة؛ إذ لا يتبرع سوى السلطان وأفراد أسرته والعسكر التابعين له وعبيد السلطان وفرقة الطيالة، وهناك التزام للمتبرع في حال سقوط الجنبية، لا يحق للمتبرع أن يأخذها، وتسلم لفرقة الطيالة كأدب له بسقوط الجنبية، ويكون صلح للتسليم بالمقابل النقدي.

كما يقام عواد لمدة يومين ثاني يوم العيد، ويبدأ أولاً عواد العسكر والذهاب لبيت السلطان وأسرة آل القعيطي عامة، كلٍّ إلى لبيته، وفي اليوم الثاني عواد السادة العلويين ويقام في بيت الحبيب المنصب من أسرة آل بن سميط صباحًا فتدق الفرقة الخاصة لآل زبير وصولاً إلى بيت الحبيب، وهناك غرفة يقال لها أم الستة وهي على ستة أسهم، وتقام فيها مناسبات دينية، مثل الموالد والتسليم وحضرات ودروس دينية وفقهية.



34
العدد (23)
يناير
مارس
2022م

الأوزان والمقاييس في الأمثال الحضرمية



الحقيقة أن للحضارم وحدات قياسية معروفة، كانت ولازالت شائعة الاستعمال في حضرموت، وبعضها خاصة بهم، وحتى في مسمياتها.

ومن باب الحفاظ على موروثنا الأصيل ارتأيت الولوج إليها وتقديمها والاقتراب منها من خلال الأمثال الشعبية الحضرمية وكذا الشعر الشعبي؛ حتى تتضح الغاية والمعنى والدلالة بصورة أكبر.



بدر بن عقيل

• **من وحدات الوزن، أي الكتلة: (القفلة) وجمعها (قفال).. والقفلة تساوي ٢،٣ غرام.**

وتستخدم كوحدة وزن صغرى للبضائع الثمينة.

يقول المثل الشعبي الحضرمي:

(قفلة وشلّها الدّلاّل)

شلّها: خذها.

الدّلال: السمسار.

وهذا المثل يضرب عندما تكون تكاليف الشيء أكبر من حجمه أو فائدته.

قال الشاعر مستور حمادي:

شليت ميزان قفلة ما وزن إلا الذهب
كُلِّين بحرفه ونا حرف المحبة سبب
ذا يومنا من تريس
من يوم وافقت مضنوني بيوم الخميس

وفي أوبريت "الضحية" للشاعر حسين المحضار يقول على لسان الأم:

أوفى مخيزم الكلمة تعنّى وجالك
عيب ياعمرو في الميزان تنقص قفالك
جا من الخون على شان بنتك اعتنى لك

ويقول المثل الشعبي الحضرمي: (قفلة أدب خير من بهار علم)

ويفضِّل المثل التأدب على العلم، ولاشـــك في أن العلم بغير أدب عديم الفائدة.

• (أوقية) وجمعها (أواق)

وهي من وحدات الوزن الكتلة، وتساوي ٢٥ , ٢٩ غرام.

يقول المثل الشعبي الحضرمي: (نقول له رطل يفهم لي أوقية).

والمثل يضرب في الشخص البليد قليل الفهم والإدراك، أو فيمن يفهم القليل بعد الجهد الكبير.

كما يقول المثل الشعبي الحضرمي:

(رطله رجع أوقية).

ويطلق على الشخص الذي لم يكن حسب حسن الظن فيه.

يقول المثل الشعبي الحضرمي:

(بخير أمك قال عليها خمس أواق).

وزمان كانت الخمس أواق تساوي ريالاً واحدًا، ويطلق عليه "ماريا تريزا النمساوي"، وقد وصف ويندل فيلبس في كتابه (كنوز مدينة بلقيس) في عام ١٩٥٠م أن الريال ماريا تريزا كان العملة الوحيدة المقبولة في جنوب شبه الجزيرة العربية.

أما المثل القائل:

(بخير أمك قال عليها خمس أواق)

فيضرب حين يكون السؤال مبنيًا على أمر معينّ فيأتي الجواب على أمر آخر لا صلة له به.

ويضرب أيضًا على الإنسان اللبق الذي يتهرب من الخوض في أمور ربما لاتهم السائل، أو للهروب من أي جواب جارح.

كما يقول المثل الشعبي الحضرمي: **(وزن بالواق القاصرة).**

و"الواق القاصرة" هي الأواقي الناقصة عن معيارها القانوني. يقال: (فلان وزن لفلان بالواق القاصرة)، أي: غشه في المعاملة.

وبالمناسبة ما أجمل شاعرنا حسين المحضار في عدالته وهو يقتسم المعروف مع من يحب بالواق.

اسمعوه يقول:

إذا دامت أيامي معاك في شقاء ...
فما الفرق ما بين الجفاء واللقاء
بغينا جميل الذكر ما بيننا يبقى ...
وبا نقسم المعروف واق بواق
أحب الفراق ...
ذا كان في الفرقة الهدوء والرواق ... أحب الفراق

• من أكثر وحدات الوزن المستخدمة في حياتنا وتعاملنا اليومي هو (الرطل)، وجمعه أرطال، وبساوي١٦ أوقية.

ولهذا نجد للرطل حضوراً في امثالنا الشعبية، فإضافة لما تم ذكره سلفًا. يقول المثل الحضرمي:

(طرح الرطل على المفيش ويفيّش).

والتفييش هي عملية إعداد وتهيئة التربة الزراعية، وهي مهمة يقوم بها شخص يطلق عليه (المفيّش).

أما المثل القائل:

(طرح الرطل على المفيش ويفيش)

فيضرب لما معناه إذا ملكت المال سهل المنال.

يقول المثل الشعبي الحضرمي:

(من غطّله مارطّله).

وغطله: أي غرف التمر من زيره.

ومارطّله: أي ماوزنه بالرطل.

والمثل يضرب حين يراد القول: لا يجتمع تبذير واقتصاد.

ويقول المثل الشعبي الحضرمي:

(فلان حسّه رطال)

ورطال: أي أرطال لم ينقص وزنها تعاقب السنين من عمره الطويل.

وهذا المثل يطلق على الشخص المسن، الذي يتمتع بعقل راجح لم يتأثر بتقدم السن.

• من وحدات الوزن المعروفة في حضرموت مايعرف ب(البهار)، وجمعه (أبهرة)، ويساوي ٣٠٠ رطل، وغالبًا ما يوزن به التمر.

وذات يوم قال الشاعر عوض سعيد العماري قصيدة من مهجره في أرض الصومال، معبرًا فيها عن ماعاناه في وطنه. ثم ما تحصل عليه من مكاسب في مهجره، مخاطبًا بها صديقه في مدينة الشحر (عمر مبارك باخلة) ويغريه بالسفر إلى الخارج "أرض البحر" بقوله:

وضاق الصبر عندي وقالوا لي تخيرّ

فقلت البحر حيث الهنا والكأس دوّار

بفضل الله ربي الذي سهّل ويسرّ

مكاسب في مكاسب ورطلك يوزن ابهار

كما يقول الشاعر حسين المحضار:

يقولون الحبايب في انتظارك

قتل نحن السهن والانتظار

تعال اعمل كما نعمل وشارك

وحط العلو من فوق البهار

الما ينحني ظهرك

ألا يا قلبي الصابر على الأحباب صبرك

ويقول المثل الشعبي الحضرمي: (بهار الجنّي تمرة).

ومعناه: قليل البخيل كثير. كما يطلق على الهدية أو الإكرامية اليسيرة التي تعطى للفقير فهو يفرح بها مهما كان قدرها ضئيلاً أو نوعيتها متدنية.

ويقول مثل شعبي حضرمي:

(قيراط حظ ولا بهار شطارة)

والمثل يرى أن الشطارة لا تكفي إن لم يرافقها حظ وتوفيق.

كما يقال: (قيراط سلطة ولا بهار مروة)، ويقصد به أنك تصل إلى قصدك بواسطة قيراط من السلطة ولكنْ بهار من المروءة لن تتمكن من الوصول بواسطته.

والقيراط هو معيار خاص لوزن المعادن النفيسة. ومن الفدان يساوي مائة وخمسة وسبعين مترًا.

يقول شاعرنا حسين المحضار:

كفى لو معي قيراط معمور في الروضة أو مسكن بشعب النيل

يقول المثل الشعبي الحضرمي:

(حُب خام ما يكفيه بهار علك)

والحُب: هو زير التمر الكبير.

والعلك: نوع من اللبان طيب الرائحة.

يقول شاعرنا المحضار:

ما باشرب من غدير شربي معلّك.

والحقيقة إن مثل هذا الزير إذا كان قد تعفّن من تراكم الأوساخ فيه فإن بخور العلك مهما كثر فلن يزيل ما به من عفن.

ويحث هذا المثل على مداومة النظافة الداخلية؛ لأن عفونة البدن ووسخه لا يذهبان بلبس الثياب النظيفة أو التطيب عليها، ولكنهما يذهبان بالغسل المحكم والمطهّرات.

ويقول المثل الشعبي الحضرمي: (بهار ملح).

والبهار زنة ٣٠٠ رطل، وهو حمل البعير القوي. يقال: (فلان يحتاج بهار ملح)، أي: إنه مفتقر إلى الكثير من التدريب أو الخبرة أو التربية الحسنة.

• من وحدات السعة (مُصرى)، وجمعها (مصاري)، ويساوي ١٤ أوقية، والصاع يساوي ٢ مصاري. وتستخدم وحدة سعة للحبوب والغلال.

يقول المثل الشعبي الحضرمي:

(تلقيط الحَبْ ما يملي المصاري).

تلقيط: أي التقاط حبوب الذرة واحدة واحدة من الأرض.

ويضرب المثل عندما يكون الجهد المبذول للغاية الكبيرة هيّنًا، كما يأتي بمعنى أن الدخل الزهيد لا يؤدي إلى جمع ثروة.

يقول الشاعر حسين أبوبكر المحضار:

عين الحسد والبغض قتّاله

لكننا مانا سهب شلّيت مقتولي

كل من صرب موسمه ما كاله

ولا طعم حمّال من رزقه ولا كولي

ولا حفظ له في الوسل مصرى ولا مكيال

باب الزعل مقفول ما بيني وبينك لا تخلي شي يقع البال.

يقول المثل الشعبي الحضرمي:

(دقق شطر ولا تطحن مصرى).

والشطر نصف المصرى، وسنأتي على ذكرها.

والمثل يحث على إتقان العمل ولو طال الوقت فيه. ولا تستعجل إنجاز عمل من غير أن تحسنه.

كما يقول المثل الشعبي الحضرمي:

(غَنْ بمصرى وسكُت بقهاول).

والقهاول تساوي ١٢ مصرى، وسنأتي على ذكرها.

أمَّا هذا المثل فيقال لمن يطيل في الرد دون مبرر لإطالته، كما يقال لمن سكوته أريح من كلامه أو غنائه بعد أن طلب منه ذلك.

ويضرب هذا المثل أيضًا لمن تطلب منه أن يقص عليك حادثة أو حكاية معينة فيندفع في حديث طويل مملٍّ حتى تود أنه لم يتكلم أو أنه يصمت إلى الأبد.

أما المثل الشعبي الحضرمي القائل:

(كلّين يكيل على مصراه).

ويكيل أي بمكياله، فيضرب بمعنى المثل الفصيح (كل يرى الناس بعين طبعه).

ويقول المثل الشعبي الحضرمي: (ماطلع من قاع المصرى) أي كحبة الطعام لصغرها ظلّت لاصقة بقاع مكيال المصرى.. ويضرب المثل وصفًا للمرتبة المتدنّية للشخص.

ويقول المثل الشعبي الحضرمي: **(كيل بالمصرى الشاح)**

وشاح أي: قاصر عن الكيل المعتاد.

والمعنى أنه مقترٌ على نفسه وعلى أهله في المصاريف. وهو مثل قولهم: (فلان يكيل بقشرة البيضة).

• من وحدات السعة في حضرموت ما يسمى بـ (الشطر)، وجمعها (شطور أو شطار)، والشطر نصف كيلة من الذرة أو غيرها من الحبوب. وهو يساوي نصف مصرى، وتعادل حوالي نصف رطل.

يقول المثل الشعبي الحضرمي:

(دقق شطر ولا تطحن مصرى)

ويحث المثل على إتقان العمل ولو قُضيَ وقتٌ طويلٌ في إنجازه.

ويقول المثل الشعبي الحضرمي:

(إذا بينك وبين الفقر شطر طيرّه).

وهو مثل قولهم: **(إذا بينك وبين الفقر سترة دفرها).**

والمعنى: إذا كان وسلك من المال قليلاً فلا داعي للحفاظ عليه.

كما يقول المثل الشعبي الحضرمي:

(الشطر معاد فيه مطاحنة)

ومطاحنة، أي: أجرة من يطحنها. والمعنى: أن الطعام القليل لا يكفي لتوزيعه على آخرين؛ لأنه لا يكاد طعام يكفي لفرد واحد.

ويضرب هذا المثل للإحسان الزهيد الذي يُعطَى للسائل ثم يسترده المحسن من السائل بأساليب ملتوية.

• (المكيال) وجمعها (مكاييل)، ويساوي في غرب حضرموت ٨ مصاري. وفي القطن وشبام وسيئون يساوي ١٠ مصاري، ويستخدم وحدة سعة للحبوب والغلال.

قال الشاعر حسين المحضار:

يابخت من ادّى فروضه فيه وان حد تكاسل فيه ياويله

ومن غفل يحتاج له تنبيه قلّه يصفّي الحَبْ ويكيله

ويعدّل الميزان

يقول المثل الشعبي الحضرمي:

(أيش تمّش يا قارة قالت كيل المحارة).

تمّش من تمّ أي نفد.

والقارة: الجبل الصغير.

وكيل المحارة: الأخذ المستمر.

والمثل يضرب لما معناه أن الدوام في الأخذ ينفد الشيء مهما كبر أو كثر.

ويقول المثل الشعبي الحضرمي:

(حبّنا وباعطيك كيله قال له ما من الشنا حيله).

والشنا: العداوة والكراهية.

ويضرب المثل إذا قيل: العطاء لا يزيل العداوة والبغض.

كما يقول المثل الشعبي الحضرمي: **(فلان يكيل بالمحارة)**

والمحارة: هي صدفة البحر الصغيرة.

وهذا المثل يوصف به المقتر في الإنفاق على نفسه وأهله.

ويقول المثل الشعبي الحضرمي:

(ما للطعام الغشر إلا الكيّال العور).

والطعام الغشر هو الطعام الذي لم يتم تنظيفه.

والمثل يضرب حين يراد القول: إن ما للسيء إلا الأسوأ منه.

أما المثل الشعبي الحضرمي القائل: **(من كال يستكيل).**

يأتي بمعنى أن الدنيا أخذ وعطاء.

كما يقال: **(هم يكيلونها وهي تقصر).**

وهذا المثل يضرب فيمن يقحمون أنفسهم في مشكلة ثم يكتشفون أنهم تورطوا فيها أكثر.

كما يقول المثل الشعبي الحضرمي:

(ذي فيه الكيل ينجح).

وينجح: أي يتم.

والمعنى أنه يتم إنجازه بالصورة المطلوبة.

ويقول المثل الشعبي الحضرمي:

(هَيْل بلا كَيْل).

وهيل: من الفعل هال، أي: دفع الحبوب إلى داخل الكيس.

وبلا كيل: فهو لا يعلم مقدار ما في كيسه من الحبوب.

ويضرب هذا المثل للشخص الذي ينفق على مشروع له بغير حساب، فهو بهذه الطريقة لن يعرف فائدته من خسارته.

أما الأمثال الشعبية الحضرمية القائلة:

(كيل بقشرة البيضة)

و(كيل بالمحارة)

و(كيل بالمصرى الشاح)

فجميعها تعني الشخص المقتر على نفسه وعلى أهله في المصاريف.

كما يقول مثل شعبي حضرمي:

(حشف وسوء كيلة).

والحشف هي التمر اليابس.

والمثل يضرب عند المغالطة في الكيل أو الوزن.

• من وحدات السعة أيضًا ما يطلق عليه (قهول) وجمعه (قهاول)، وهو يساوي ١٢ مصرى.

يقول المثل الشعبي الحضرمي:

(سرقت أم مدودة عطوها قهاول سرقت صاع).

ومدودة: اسمم بلدة في وادي حضرموت.

والمثل يضرب وصفًا للئيم الذي حين يغض الطرف عن فعلته الأولى فيرتكب أكبر منها.

ويقول المثل الشعبي الحضرمي:

(مغروم من أكل قهاول قال مغروم من قرّبه له).

المغروم.. المجنون.

أي إن المجنون ليس له ذنب فيما يفعل؛ فالذنب يقع على العاقل الذي يقدّم له هذه الكمية الكبيرة.

ويضرب المثل لما ينسجم مع ذلك المعنى.

وعن الشخص الذي تطلب منه أن يقص عليك حادثة أو حكاية معينة فيندفع في حديث طويل ممل حتى تود أنه لم

يتكلم أو أنه يصمت إلى الأبد. فقد قالوا في المثل: (غن بمصرى واسكت بقهاول).

أما المثل الشعبي الحضرمي القائل:

(لاتغريني وغر غيري ياقهاول).

فيضرب لعدم الانخداع بالإغراءات المتأخرة.

• من وحدات الطول ما يعرف بـ (البنّه) وجمعها (بنين وفصيحها بنان)، وهي عرض الإصبع حوالي ٢سم.

قال الشاعر سعيد فرج باحريز:

يا حيد بانغلقك لا جبنا المزاحي والقلم

باتطرح القادي وبايصبح ذراعك بنتين

التمر حبه والعجم نقضمه واعبرع العجم

تشرق علي الشمس ما ندرى بها تشرق منين

ويقول المثل الشعبي الحضرمي:

(بين الصدق والكذب أربع بنين)

أي أربعة أصابع.

ومعنى المثل: أن (الصدغ) وهو المسافة بين الأذن والعين، طوله أربع بنان، وبما أن الأذن تسمع وأن ما تسمعه يحتمل الكذب والصدق، فإن العين ترى، وإن الرؤية - على وجه العموم - صادقة في نقل الخبر.

وقد ذكر شاعرنا حسين المحضار البنه في أشعاره فقال:

أنت محبوبي بحق وبلا نزاع من يدي ايش ينزعك

بعت لك حريتي الّلي ماتباع دوب امشي واتبعك

ما انصرف عنّك بنانه .. اللـه اللـه في الأمانه

يوم امنّتك بقلبي ..... اللـه اللـه في الأمانة

• ومن وحدات الطول (الصاع) وجمعها (صاعات)، وهي بعرض إصبعين حوالي ٤ إلى ٥سم.

يقول المثل الشعبي الحضرمي: (سرقت أم مدودة عطوها قهاول سرقت صاع).

والمثل يضرب وصفًا للئيم الذي حين يغض الطرف عن فعلته الأولى فيرتكب أكبر منها.

وتقول العرب في قولهم الشائع: (رد له الصاع صاعين): كناية عن أنه جازاه بضعف شره.

• ومن وحدات الطول (فِتر) وجمعها (أفتار أو فتور)، وهو المسافة بين طرفي الإبهام والسبابة حوالي ١٨سم:

يقول المثل الحضرمي: (فلان ما تحرك من مكانه فتر واحد)

أي: إنه هادئ وعديم الحركة.

• (شبر) من وحدات الطول. وجمعه (أشبار) وهي المسافة القصوى بين طرفي الإبهام والخنصر حوالي٢٤سم:

يقول المثل الشعبي الحضرمي: (البعير يطحس في شبر)

يطحس: أي ينزلق.

ومعنى المثل: على الرغم من ضخامة البعير وقدرته على قطع المسافات الطويلة فإنه قد ينزلق في شبر.

ويضرب المثل عندما يزل العاقل ويخطئ.

أما المثل الشعبي الحضرمي القائل: (خلّوا قيده شبر)

فيقال فيمن حوصر ولم يستطع الإفلات.

ويقول المثل الشعبي: (فلان غرق في شبر ماء)

فيضرب للفاشل الذي عجز في حل مشكلة سهلة. أو للاختلاف حول قضية واحدة.

كما يقول المثل الشعبي: (من قدّم بك شبر قدّم به ذراع)

ويضرب للمعاملة بأحسن من المثل.

والشبر جاء ذكره في شعر حسين المحضار حيث قال:

فقلت أنا عارف المجرى

واعرف طرق موحشه قفره

للوحش فيها سكن

وادور والـــف في العـــصره

لـــو عـرضها شـبر ولا فـــوت

والفوت من وحدات قياس الطول، ويساوي ٣٠سم.

يقول حسين المحضار:

فارقتهم والدمع من عيوني سبل
التذّكار في خاطري لا يزل
ياريت لي عندهم كن والا محل
يكفل الرأس لو حتى تنعشر فوت
باحل في الغنّاء مدينة حضرموت

• ومن وحـــدات الطول (الذراع) وجمعه (أذرعة)، ويساوي حوالي٣٦سم. فيما يساوي الذراع القيدوني نسبة إلى مدينة قيدون بوادي دوعن ٤٥سم:

يقول المثل الشعبي: (ذراع في العز خير من ألف باع في الهون)

أي حـياة شريفة ولو بـــعيش متواضع أفضل من حـــياة رغيدة مهانة.

أما عن الشخص الذي قوله أكثر من فعله، فقالوا:

(اللسان باع والرمح ذراع)

وعن المعاملة بأفضل واحسن منها، فقالوا:

(من قدّم بك شبر قدّم به ذراع)

كما يقول المثل الشعبي:

(البندق ذراع تتصدر بآه وتضرب بآه).

وذلك ما يقـــوله ذو الدخل المحـــدود، ماذا أصرفه على الطعام، وماذا على الكساء إلخ...

• ومن وحدات الطول (الباع) وجمعها باعات، وهي المســـافة من طرف الأنف إلى نهاية اصبـــع اليد اليمنى ممدودة حوالي ١٨٥سم.

وعن الحياة الشريفة فلو أعيش متواضعًا أفضل من حياة رغيدة مهانة. قالوا في المثل الشعبي:

(ذراع في العز خير من ألف باع في الهون)

كما قالوا فيمن قوله أكثر من فعله:

(اللسان باع والرمح ذراع)

ويقول المثل الشعبي:

(حقصة في مغضاف ولاباع في مصور)

وحقصة، أي: قضمة.

والمغضاف من أجزاء أحشـاء الغنمة تلف مع قـليل من الشحم بجزء من الأمعاء.

والمثل يضرب لاقتناء الأفضل.

ولكن ماذا يقول شاعرنا حسين المحضار عن الباع:

ضيّع العرف وبغانا مثيله ضيع
عاد عقلي معي بيردّنا من ضياعي
حاسب الحب سلعه يشتري ويبيع
ما وزن لي بميزاني ولا درع بباعي
والذي ما يراعي صاحبه في حضوره كيف لا قد غاب
في النفس يا مكثر الأصحاب إنما صاحبك عند الضيق

• وأخيرًا نتوقـــف عند (مطيرة) وجمعها (مُطر)، وهي من وحدات المساحة وتساوي ١٨,٧ إلى ٣٩,٧ مربعًا.

يقول المثل الشعبي: (مطيرة انقطبت على أختها)

و"مطيرة انقطبت" أي سال ماء قطعة زراعية.

و"على أختها"، أي: على قطعة زراعية مثلها.

ويضرب هذا المثل عندما يتزوج شخص امراة قريبـة له، أو عندما يضم أخوان رأس مالهما ويعملان بـــــرأس مال موحد.

المصادر:

• "معجم الأمثال والاصطلاحات العامية الحضرمية" محمد عبدالقادر بامطرف.
• "٤٠٠٠ مثل من حضرموت" حسن أحمد بن طالب العامري.
• "سياحة مع الأمثال الحضرمية" محمدعوض محروس.
• "موقع الشبامي على شبكة النت".
• "أشعار وأمثال شعبية حضرمية" بدر بن عقيل.

41
العدد (23)
يناير
مارس
2022م

الروابط الفكرية والدينية بين يافع وحضرموت





طارق سالم سعد الموسطي

مثلث الفرق والمذاهب الإسلامية الحركة الفكرية والعقائدية لدى الكثير من الشعوب في البلدان والحواضر الإسلامية، وانطلقت معتقداتها الفكرية في نطاق واسع في ظل الصراعات الفكرية في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، وقد اتسعت وانتشرت في نطاق واسع مع اتساع رقعة الإسلام والفتوحات الإسلامية، وقد أدَّت هذه الفرق دوراً كبيراً، وأحدثت تأثيراً سياسيًا بارزًا، واتسعت معها رقعتها الجغرافية، وامتدادها الاجتماعي والسياسي حتى وصلت إلى اليمن.

وقد تأثر الكثير من الدعاة بأفكار هذه الفرق، فنشروها في مدنهم بعد أن تلقَّوا أصولها من منابتها في العراق وغيرها من الحواضر الإسلامية الأخرى، وقد شهدت مدن يمنية تبني هذه الدعوات ومناصرتها والذود عنها بقوة الفكرة ومنعة السلاح، حتى أُسِّسَتْ دولٌ تبنَّت هذه الدعوات في بلدان عدَّة، وليست حضرموت ويافع - وهما المنطقتان المعنيتان بالدراسة - ببدعٍ عن ذلك.

المذاهب فرق الإسلامية في حضرموت ويافع:

تعود هذه الفرق في نشأتها الى عاملين رئيسين، هما:

- **العامل الاجتماعي:** ويقصد به القاعدة الجماهيرية الحاضنة للدعوة.
- **العامل السياسي:** ويقصد به السيطرة والحكم السياسي المباشر إطاراً لتلك الدعوة وحاميًا حياضها .

وما إن تحكم هذه الفرق سيطرتها سياسيًا على المدن، حتى تتمكن من نشر مذاهبها وتطويع الشعوب إلى اعتناق فكرتها بعد أن وجدت القوة والمنعة واتساع قاعدتها الجماهيرية، وقد أدَّت المذاهب والفرق الإسلامية دوراً بارزاً من الناحية السياسية منذ السنة الثانية للهجرة.

أولًا: مذهب الإباضية في حضرموت:

هامش (الإباضية: هم أتباع عبدالله بن أباض المري التميمي، صحب نافع بن الأزرق عندما تفرق الخوارج عن عبدالله بن الزبير رضي الله عنه، والتف حوله جمع من الخوارج وتفرق عنه آخرون، وكان يرى أن مخالفيهم من أهل القبلة ليسوا مؤمنين ولا مشركين ولكن كفار، ومع ذلك لم يحرم مناكحتهم وموارثتهم، وشهادتهم ولو على أوليائهم، بحجة أن معهم دعوة المسلمين، ولا تحل أموالهم عند الغنيمة، أما السلاح والخيل وما يكون من آلة الحرب فهو حلال. انظر: دخول الفرق الإسلامية اليمن في القرون الثلاثة الأولى للهجرة. عامر جارالله أبو جبلة، ٢٠٠٥م، المجلد٢٢، ص٢٠٠).

تأثرت حضرموت بدعوة الإباضية، وأول من نادى بها في حضرموت هو طالب الحق عبدالله بن يحيى الكندي، سنة ١٢٩ هـ، وأعلن ثورته على مروان بن محمد، واستولى على اليمن والحجاز، واستقل بحضرموت ووصل صنعاء وخطب بها وأظهر مذهبه (دخول الفرق الإسلامية اليمن في القرون الثلاثة الاولى للهجرة، المجلد٢٢، ص٥٥).

وفي سنة ٥٣٥ هـ جدد أبو اسحاق الهمداني الدعوة إلى مذهب الإباضية، وقد صاحبت هذه الدعوة الحركة السياسية في مرحلتها الأولى، في تثبيت المذهب ونشره في حضرموت، وتطويع الشعوب قهراً لاعتناقه، في حين اقتصر الثاني - في نشر دعوته إلى المذهب في حضرموت بولائه للإمام في عمان. وقد سجل في ديوانه، صراعه في نشر المذهب وإخضاع رقاب الحضرميين له كرهًا.

ثانيًا: التصوف في حضرموت:

لا يختلف اثنان في أن التصوف في حضرموت نشأ على يد محمد بن علي باعلوي الشهير بالفقيه المقدم (ت٦٥٣هـ)، وعن طريق الفقيه المقدم انتشر التصوف في حضرموت، وتأثر على يديه جمع كبير من الفقهاء في حضرموت (الصوفية والفقهاء في اليمن. عبدالله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد صنعاء ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م، ص٢٣). مروراً بأقطاب التصوف الأربعة: باعلوي، والعمودي، وباعمر، وباحمران، أصحاب التحكيم لصالح المغربي. (إدام القوت ص..).

ويعد الفقيه المقدم، صاحب اليد الطولى فيه، والذي خرج عنه المدرسة الفقهية الشافعية التي كان يترأسها الفقيه علي باهارون (ت ٥٥٥هـ) وأحدث التصوف، يقول الشلي: (وأهل حضرموت منشغلون بالعلوم الفقهية، وجمع الأحاديث النبوية، ولم يكن فيهم أحد يعرف الطريق الصوفية، ولا يكشف اصطلاحاتها السنية، فأظهر الفقيه المقدم علومها، ونشر في تلك النواحي أعلامها، فأخذ عنه الجم الغفير، وتخرج به العدد الكبير). (المشرع الروي في مناقب السادة آل باعلوي (٢/ ٥)).

وألزم أهله الطريقة العلوية وكسر السيف إيذانًا برفض السلاح واتخاذ العلم سُلَّماً للشرف الاجتماعي والتراتبي الاجتماعي، وتعددت خلفه بعد ذلك الفئات التراتبية في

المجتمع الحضرمي بين: سادة - ومشايخ - وقبائل - وحضر.

وتشير المصادر إلى وقوع نواة الخلاف بين الفقيه علي بن أحمد بامروان والفقيه المقدم وكان ملازمًا لحلقة بامروان يتلقى العلوم الشرعية حتى تصوَّف الفقيه المقدم وأعلن التصوف ولبس الخرقة التي تنتسب إلى أبي مدين شعيب المغربي. ولم يزل مهاجرًا له الفقيه بامروان حتى توفي. (قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، الطيب بن عبدالله بامخرمة (٧٨٠-٩٧٤)، دار المنهاج، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٨م، (٢/ ٩))، و(جهود الإمام القلعي العلمية، أكرم مبارك عصبان، ص٣٩).

واكتسح التصوف الحياة الاجتماعية والثقافية في حضرموت، ولم ينازع فقهاء حضرموت الصوفية بعد الشيخ باهارون منازع. ولم يحصل أي شقاق بين (النزعتين: الفقهاء والصوفية) رغم ما بينهما من خلاف؛ فقد ظلتا في وفاق تام في حضرموت، بل إن الكثير من فقهاء حضرموت اعتنقوا آراء الصوفية المعتدلة دون أن يروا فيها ما يصطدم مع نصوص الشريعة (الصوفية والفقهاء في اليمن، ص٢٤).

ولم يخرج التصوف عن مدرسة الفقه الشافعية، بل تلبس بها وعاش تحت ظلالها حتى مطلع القرن الثامن الهجري، وأخذ الكثير من المشايخ المتصوفة فكر ابن عربي وتأثروا به، وقد نهى هؤلاء المشايخ مريديهم عن قراءة كتب ابن عربي وغيرها حتى لا يقعوا على أمثال هذه الألفاظ الفلسفية فلا يفهم معناها (المذاهب والفرق الإسلامية في حضرموت، محمد يسلم عبدالنور، دار حضرموت، ط١، ص٨٥)، و) في القرن العاشر وما بعده، أخذ عدد من علماء المتصوفة فكرة الحلول والاتحاد (هامش) (الحلول: حلول الله في بعض الأجساد الخاصة كالأنبياء والأولياء مما يكسبهم بعض الصفات الإلهية. والاتحاد: اتحاد الذات الإلهية بالذات الإنسانية) انظر: تناقض أهل الأهواء والبدع في العقيدة، عفاف بنت حسن بن محمد مختار، مكتبة الرشد، ط٣، ١٤٢٦/ ٢٠٠٥م، (ج١/ هامش (٣) ص ٩٦) التي تربع على عرشها في القرن العاشر الشيخ أبوبكر بن سالم السقاف (ت٩٩٢هـ). ذكر باحسن أنَّ (آخر زيارة السيد أبي بكر بن سالم الشحر وهو محمول على سرير وذلك في آخر عمرة، ثم أمر أن ينادى عند القبر الشريف من أراد أن يأخذ إجازة أو تلقيًا أو تحكيماً على الشيخ أبي بكر فليأتِ، فأقبل عليه طوائف الخلائق يهرعون يلقن ويجير ويحكم وهو يكرر قوله: ((إن هو إلا عبدٌ أنعمنا عليه)) [الزخرف:٥٩]، انظر: (نشر النفحات المسكية في أخبار الشحر المحمية، باحسن: عبدالله بن محمد جمل الليل، تحقيق: د. محمد يسلم عبدالنور، تريم للدراسات والنشر، ط ١١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

سيطر التصوف على الساحة الحضرمي وصاغها بموروث ثقافي اجتماعي تراتبي، قسم في إثره المجتمع إلى فئات اجتماعية تتنازع الشرف والسلم الاجتماعي تنازعًا مقيتًا بين؛ سادة تتصدر السلام العرفي الاجتماعي، ومشايخ وهم قبائل شتى جمعها رابط علم التصوف، وقبائل بدوية حملة السلاح السطو والقوة، ومساكين مستأجرين وحرفيين جمعهم رابط التحضر والمدنية.

أولًا: مذهب القرامطة في يافع:

القرامطة نسبوا إلى حمدان القرمطي، انتدب إلى الدعوة، وصار أصلاً من أصول الباطنية (الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة، عبدالقادر شيبة الحمد، ط٤، ١٤٣٣هـ ص٨٧). بدأت دعوة الإسماعيلية (القرامطة) في اليمن سنة (٢٦٨هـ/ ٨٨١م) عندما بعث ميمون القداح من أهل الكوفة وصاحب الدعوة إلى اليمن منصور بن حسن بن حوشب بن زادان، وعلي بن الفضل الحميري، وأمرهما بالتستر حتى يتمكنا من أمرهما، ويتعاونا معًا. (دخول الفرق الإسلامية اليمن

في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، ص٥٩).

وفي يافع ظهرت دعوة علي بن الفضل سنة (٢٩١هـ/ ٩٠٣م) والتزم النسك والعبادة، إذ انتقل إليها لما لمسه في سر و يافع من سرعة الاستجابة إلى دعوته، وأخذ عليهم المواثيق بأن لا يشربوا خمرًا، وينكرون المنكر، ومازال يخدعهم بتنسكه وعبادته حتى أطاعوه إلى ذلك، فبنى حصنًا في ناحية من سر و يافع، ومازال يدعو سرًا إلى مذهب القرامطة، ويزعم أنه يدعو إلى مذهب أهل البيت وحبهم، إلى أن أفسد خلق كثير وملك حصون اليمن، حتى وصل إلى المديخرة فأعجبته وجعلها دار ملكه (دخول الفرق الإسلامية اليمن في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، ص٦٠).

وفي سنة (٢٩٣هـ/ ٩٠٥م) دخل صنعاء واستولى عليها، واستناب عليها أسعد بن أبي يعفر، وكتب إليه: من باسط الأرض وداحيها ومنزل الجبال ومرسيها علي بن الفضل إلى عبده أسعد بن أبي يعفر (دخول الفرق الإسلامية اليمن في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، ص٦٠).

وقد ادَّعى النبوة وكان أديبًا ذكيًا شجاعًا فصيحًا، أظهر مذهبه الخبيث، وانتهك المحرَّمات، ونكاح البنات والأمَّهات، وأسقط الحج. (دخول الفرق الإسلامية اليمن في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، ص٦٠).

ثانيًا: التصوف في يافع:

رُبِطَ التصوف في يافع بالتصوف في اليمن وتهامة عمومًا، وتشير المصادر إلى أن قومًا من يافع أدخلوا الطريقة الشاذلية، وشيَّد قوم من يافع من آل سعد القبيلة المشهورة من حمير قُبَّةً عظيمة متقنة محكمة البناء، وقاموا على سدنتها، شيَّدوها للولي الصالح علي بن عبدالله الشاذلي (٦٥٦هـ) في مدينة المخا. (هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن، أحمد بن فضل بن علي بن محسن العبدلي، تحقيق: أبي حسان خالد العبدلي، مكتبة الجيل، صنعاء، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤، ص٥٩).

وقد اشتهر عدد من الفقهاء اليافعيين بتصوفهم منهم: قاضي اليمن أبو بكر بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم اليافعي الجَنَدي، المتوفَّى سنة ٥٥٢هـ، وهو من القضاة المشهود لهم بالمعرفة والدراية، وقد ولي قضاء صنعاء وعدن، وصارت الفتوى إليه من كل ناحية، وكان خطيبًا، وله ديوان شعر (طبقات فقهاء اليمن، عبدالوهاب بن عبدالرحمن البريهي، تحقيق: عبدالله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد - صنعاء، ص١١٢ , ١١٣).

ومنهم محمد بن عبدالله بن إبراهيم اليافعي، قاضي إب، توفي سنة (٥٠٠هـ)، (طبقات فقهاء اليمن، ص١١٢).

والمقرئ بدر الدين حسن بن محمد اليافعي، قرأ على الإمام عفيف الدين الشنيني بالقراءات وغيرها، وجعله من خواصه، وزوَّجه ابنته، ودعا له بالخير، ففتح عليه بالمال، فاشترى أرضًا وعمر مسجدًا وأوقف عليه أوقافًا، توفي سنة ٨٣٠هـ، (طبقات صلحاء اليمن، ص٢١٥).

والأستاذ العلامة العارف عفيف الدين عبدالله بن أسعد اليافعي له مصنفات في التصوف وغيره. (طبقات صلحاء اليمن ص٦١).

مما لا شك فيه أن التصوف اليافعي من حيث المنشأ الأول قد ارتبط باليمن؛ فقد تأثر الكثير من رجالات يافع بالتصوف، وكان من أشهرهم عفيف عبدالله بن أسعد اليافعي، الذي يعد العلم الأبرز في تصدر التصوف، غير أنه لم يجعل من يافع قاعدة لدعوته، بل كان كثير السفر والتنقل بين اليمن وحضرموت، حتى استقر به المقام بمكة، وقد زار عفيف الدين حضرموت، وكان له مسجدٌ في الشحر بحافة الحوطة (الشهداء السبعة، محمد عبدالقادر بامطرف، دار

الهمداني للطباعة والنشر عدن، ط٢، ١٩٨٣م، ص٤٨).
وأخذ عن علمائها، كما مكث فترة في الشحر فاتخذ له مسجداً عرف باسمه. وقد ارتبط بحضرموت وكانت له دعوة بها. وكان أحد الشهود المصاحبة للسادة العلويين على تأكيد نسب السادة في مكة: إن السادة آل باعلوي لما ادعوا النسبة الشريفة، اعترف لهم أهل حضرموت، ولم ينكروه، ثم بعد ذلك أرادوا إقامة البينة وتوكيداً لما ادعوه، وكان في تريم إذذاك ثلاثون مفتياً، فسار بهم المحدث علي بن أحمد بن جديد إلى البصرة عند قاضيها، وأشهد على إثبات القاضي نحو مئة شاهد ممن يريد الحج ... ولما قدموا حضرموت وشهدوا بذلك فاعترف الناس لهم بالنسبة الشريفة، أقروا لهم بالفضل والحرمة، وأجمع على ذلك العلماء والمصلحون (جواهر الأحقاف ص٤٠٢).
وتكررت زيارة بنيه من بعده وكثيراً ما يستشهد الباحثون الحضارمة بالحركة العلمية في القرن التاسع والعاشر ببيت الفقيه عبد الرحمن بن عبدالله بن أسعد اليافعي وزيارته لحضرموت:

مررت بوادي حضرموت مسلِّماً

فالفيته بالبشر مبتسمًا رحبا

كل ذلك يلقي بظلاله على أسبقية الدعوة إلى التصوف في يافع إلى الفقيه عفيف الدين عبدالله بن أسعد اليافعي، قبل مرحلة بن هرهرة بقرنين من الزمن، فضلاً عن ارتباط الشيخ عفيف الدين عبدالله بن أسعد اليافعي بالتصوف باليمن وبحضرموت وعلمائها، ولم تحدث دعوته فرقًا سياسيًا أو اجتماعيًا بين يافع وحضرموت.

فهل حقًا كان التصوف اليافعي حضرمي المنشأ؟ وعلى يد الشيخ علي بن أحمد بن هرهرة مبعوث الشيخ أبوبكر بن سالم السقاف؟

في حين يرى الحداد أن مشرب التصوف في يافع قد تشربوه من دعوة الأمير أحمد بن عطاء الحرازي القرمطي، الذي ظهر بمظهر التصوف، ودخل عدن ويافع، وتبعه أناس كثير، وسمى نفسه حسن باهارون، واتخذ من يافع مقراً لدعوته، وتبعه أناس كثير، وقد تأثر بدعوته خلق كثير، وقد دعا إلى وحدة الوجود، ونادى بأفكار ابن عربي والحلاج، وربط بين الباطنية وأفكار ابن عربي. (جني الشماريخ، طاهر بن علوي الحداد، ص٤١). وإنما وافق مشرب الشيخ أبي بكر بن سالم مولى عينات (ت٩٠٢هـ) في تصوفه وارتبط به لتوافق مشارهم في التصوف، فظن الكثير أن التصوف في يافع يرجع إلى حضرموت؛ لارتباطهم بعد ذلك بأسرة آل الشيخ أبي بكر بن سالم واعتقادهم فيهم.

ارتباط التصوف اليافعي بالشيخ أبي بكر بن سالم ومبعوثه:

إن التصوف بمدلولاته العلمية قد ارتبط بيافع قبل ارتباطه بالشيخ أبي بكر بن سالم وذلك لبزوغ جهابذة من أعمال يافع في عدن واليمن عمومًا، مما يزمع عليه الباحث في تاريخ التصوف اليافعي، ولكن ما أخذه الشيخ علي بن أحمد بن هرهرة عن الشيخ أبي بكر بن سالم السقاف، أن صحة اللقيا به والأخذ عنه فكرة الحلول والاتحاد وليس التصوف بطريقته العلوية المعروفة في حضرموت ومدرستها، التي تقوم على أساس ترك السلاح والدعوة إلى الله، وإلا فإن الشيخ عفيف الدين عبدالله بن أسعد اليافعي هو السباق إلى منهج التصوف بمدلوله وطرقه الحضرمية المتبعة، التي تجرد في إلى الدعوة لله وترك السلاح رغم انتسابه إلى بيت الحكم في يافع، وإنما لما عرف عن الشيخ عفيف الدين عبدالله اليافعي، كثرة أسفاره وتنقلاته وعدم استقراره في يافع حتى انتهى به المقام في مكة، فجاء

القرن الحادي عشر، الذي راج فيه فكر الحلاج، وتشبع الكثير من المتصوفة بهذا المنهج، حتى أصبح علماً عليهم، وأخذ الشيخ علي بن أحمد بن هرهرة هذا الفكر، أخذه بحسب رواية الباحثين، وسار به إلى يافع. وهناك مفارقة كبيرة وفجوة مجهولة في التاريخ. فالشيخ علي بن أحمد ظهر في يافع في منتصف القرن الحادي عشر الهجري، والشيخ أبو بكر بن سالم قد توفي مطلع القرن العاشر، فإن صدقت اللقيا بينهما فهي في أواخر مراحله كما يقول باحسن فإنه كان ينادي ويعتق من يشاء من النار!!. فضلاً عما صاحب ذلك من عداء سياسي وديني لمذهب الزيدية الذي تبنته الدولة الطاهرية.

ويكاد الباحثون يجمعون على أن التصوف اليافعي حضرمي المنشأ على يد مبعوث الشيخ أبي بكر بن سالم الشيخ علي بن أحمد بن هرهرة الحرازي؛ إذ عيَّنه داعيًا روحيًا في يافع، ومن حينها ارتبط التصوف اليافعي بحضرموت. (صفحات من التاريخ الحضرمي، ص٦٢).

مناقشة دعوة الشيخ علي بن هرهرة لمنهجية التصوف الحضرمي

وذلك من حيث:

١ - جمعت هذه المشيخة بين السلطتين: الدينية والسلطة السياسية، وصاحب ذلك نزاع وعداء سياسي للدولة الطاهرية ومذهب الزيدية، فجمعت بين الدعوة الدينية والسلطة السياسة، وهذا يناقض المدرسة الصوفية الحضرمية، التي تدعو إلى ترك السلاح، وحمل العلم والسير به، والتأثير به على الحكام السياسين وليس مباشرة الحكم.

٢ - تجميع يافع كلها، وتوحد صفهم نحو هدف واحد، وعدو واحد وقيادة واحدة، هي القيادة الهرهرية، برغم صعوبة ذلك على المستوى السياسي والاجتماعي، فقد عرفت يافع خلال تلك الفترة بتعدد سلطناتها ومشيخاتها، وكانت بين شد وجذب داخليًا وخارجيًا، حتى أصبح هذا العداء الزيدي علماً علي يافع عمومًا، مما يحيد عنه الباحث في مسارات هذه الدعوة وأهدافها من حيث تلك المفارقة التي لم يكشف التاريخ بعد عن غورها، فضلاً عن مؤسس هذه الدعوة إذ توفي في القرن الثاني عشر، وبينه وبين شيخه أبي بكر بن سالم بون شاسعٌ؛ فإن الشيخ أبا بكر بن سالم متوفًّ سنة ٩٩٢هـ، فبينهما بذلك قرن من الزمن، وهذا ربما يوردنا إلى مطية التصوف، وانتساب إلى دعوة الشيخ أبي بكر بن سالم السقاف، وانتحال مذهبه الحلولي سعيًا إلى أهداف أخرى لم يكشف عنها النقاب بعد.

٣- ومن جانب آخر حين ينظر الباحث إلى المسارات السياسية ليافع سيجد أن يافع كقبيلة لم تكن تحيد بالولاء المطلق لأي دولة سواء كانت في الداخل أو الخارج، بل عاش اليافعيون في مشيخات متفرقة داخليًا، يسيطر على أجزائه السفلية العفيفي، وبقية القبائل تعيش حالة من عدم الاستقلال المشيخي المتعدد، كمشيخة الموسطة، وبني بكر، ومشيخة الشعيب، والمفلحي، والرصاصي وغيرهم. وقد عاشت حالة من التمرد والمد والجزر عندما حاولت دويلات اليمن الأعلى السيطرة عليها. ثم إن اختيار هذه المشيخة الأجزاء العليا من يافع وبسط نفوذها عليها وذلك بحسب وجهة نظر الباحث لبعدها عن مركز يافع وسلطانها العفيفي الحاكم قبضته على الأجزاء السفلى. وثانيًا؛ إن القبائل العليا كانت تعيش حالة من الفوضى والمد والجزر بين حكام الضالع ومشيخة المفلحي، فكان من السهل أن يجد لنفسه مكانًا ينطلق بدعوته وتحقيق دولته.

فهل كان التصوف اليافعي على وجه العموم حقًا حضرمي المنشأ؟ أو أن فكرة الحلول والاتحاد هي التي دعت أو للولوج إلى التصوف الحضرمي ولبس عباءته!؟

لقد ذكر ابن عبيد الله أن الإمام إسماعيل استعان بقوة من يافع وأحسن إكرامهم، وذلك يوقفنا على خلفية هذه المشيخة وتحويل العداء نحو الزيدية كمذهب إنما جاء متأخراً مع ما أشار إليه الحداد من انتحال شخصية حرازية التصوف والدخول إلى يافع. ارتبطت هذه المشيخة بهذه الدعوة وهذا العداء حتى صار العداء علماً على يافع. كما تشير وثيقة السلطان عمر صالح بن هرهرة سنة ١١١٣هـ، التي تنص على بعض الألفاظ الصوفيه ومطلق الولاء للشيخ أبي بكر بن سالم وذريته، حسب ما أشار صاحب الرسالة بقوله صاحب أمرنا. وقطب الطريقة وغيرها من ألفاظ التصوف. ودعوة الشيخ علي بن أبي بكر بن سالم ليافع لنصرة التصوف في حضرموت إذ تؤكد هذا الخوف من إحلال مذهب الزيدي محل التصوف في حضرموت بعد أن بويع للإمام في حضرموت، وأذن له بحيَّ على خير العمل داخل المساجد في حضرموت. فاستعان الشيخ أحمد بن حسين بما يعلم ولاءهم لمذهب أسلافه ونصرتهم له.

ولعلنا نلمس منهج التصوف الحضرمي ومدرستها في شخصية عفيف الدين عبدالله بن أسعد رغم انتسابه للأسرة العفيفية الحاكمة غير أنه قد سار بالتصوف بنفسه على المنهج الحضرمي، وارتبطت به علاقة مع فقهائها، بل تؤكد المصادر سفره إلى حضرموت، وكان من ضمن اللجنة التي سارت إلى مكة للاستشهاد على نسبة السادة العلويين لآل البيت.

أثر هذه الدعوة الهرهرية في وحدة يافع وتماسكها:

أثرت دعوة الشيخ علي بن أحمد بن هرهرة اليافعي كثيراً في يافع، فلم تقتصر على الأجزاء العليا فقط حيث مركز سلطانه ومقر حكمه والمساحة الجغرافية للمكاتب العليا وحكمه لهم، بل شملت الشمل اليافعي ككل الذي يسيطر عليه العفيفيون، وهذا الامتداد أسهم بظلاله في تقوية اللحمة القبلية اليافعية وتوحيد الصف اليافعي خاصة عند توجهه بالحملة إلى حضرموت لحرب الزيود سنة ١١١٣هـ؛ إذ شارك ٩٠٠ مقاتل، كما دلت عليه سياقات الحملة.

١- اعتقادهم وحبهم وانتماؤهم للتصوف عموماً، وأن مدرسة التصوف في يافع متأصلة العلاقة بحضرموت.

٢- اعتقادهم في الشيخ أبي بكر بن سالم مولى عينات وأحفاده من بعد، وارتباطهم الوثيق بهم حتى عدت أسرة الشيخ أبي بكر بن سالم من مشايخ يافع وأصحاب أمرهم وله من خراجهم نصيب.

٣- الشجاعة والمراس على القتال عند اليافعيين خاصة، وأنهم لم يكونوا على وفاق مع دويلات اليمن، وقد كابدت تلك الدويلات من يافع عندما حاولت السيطرة على عدن.

٤- توحيد القوة اليافعية نحو هدف عقائدي، ساعد كثيراً في خلق وحدة قبلية أمام الزحف الإمامي، وانتشار مذهبه، في عدن وحضرموت ويافع حتى أخرجوه من ديارهم إلى صنعاء.

٥- كما ساعدت هذه الوحدة القبلية في قبول المناصفة، والتقسيم الإداري بين مشيختي العفيفي وبن هرهرة داخل يافع، وقضت على الكثير من العصبيات الأيديولوجية، ووحدت الصف اليافعي، في الداخل والخارج.

لتلك الأسباب وغيرها كانت استعانة الشيخ علي بن أحمد التي جاءت بثمارها اجتماعياً وسياسياً وثقافياً في يافع. وتثبيت التصوف في حضرموت وإبقاؤه، ولم تتأثر حضرموت بمذهب الزيدية، بل مر بديارهم وسرعان ما تلاشى بتلاشي حكم الإمامة عنها.

هذا ونسأل الله السداد والقبول.

48
العدد (23)
يناير
مارس
2022م



مكاتبات الحبيب حسن بن صالح البحر أنموذجا

(١ - ٢)

مقدمة:

تُعد الرسائل أو المكاتبات من النصوص النثرية التي لم تلق حتى اليوم اهتمامًا مناسبًا في بلادنا، على الرغم من احتواء مكتباتنا على عدد كبير منها، مطبوعًا أو مخطوطًا؛ لهذا رأيت أن أقف في هذه الدراسة أمام بعض نصوص الرسائل التي حررها بعض الكتاب الحضارم في القرن الثالث عشر الهجري، مع التركيز على (مكاتبات الحبيب حسن بن صالح البحر)؛ لما تحتويه من أبعاد فنية مهمة معبّرة عن معظم ما كتبه الحضارم من مراسلات في ذلك القرن، وأبعادٍ موضوعية ذات أهمية تاريخية كبيرة؛ إذ إنَّ كاتبها، الذي كان ممتزجًا بشكل كبير بالحياة الاجتماعية والسياسية، وثَّق فيها عددًا من الأحداث المهمَّة، التي شهدتْها مدن وادي حضرموت في منتصف القرن الثالث عشر الهجري.



أ.د. مسعود عمشوش

في الجزء الأول من الدراسة قدَّمْنا لمحة عن اهتمام الحضارم بكتابة الرسائل في القرن الثالث عشر الهجري، وقُمْنا بحصر أبرز كتب المراسلات التي استطعنا الاطلاع عليها، مبيِّنين سبب حرص كل منهم على توثيق رسائله، وربما أنَّه نشرها في أثناء حياته، مثلما فعل الحبيب حسن بن صالح البحر.

وكرَّسنا الجزء الثاني من البحث لدراسة الأبعاد الموضوعية في رسائل الحبيب حسن بن صالح البحر، مع التركيز على تلك الرسائل التي بعثها إلى القادة ورجال الدولة، والتي تعكس اهتمامه بالشأن العام، ومشاركته في صناعة تاريخ القرن الثالث عشر الهجري وتوثيقه.

أما في الجزء الثالث فقد استعرضنا أهم الملامح الفنية لتلك المراسلات من خلال تحليل (مكاتبات الحبيب حسن بن صالح البحر) ومقارنتها بمراسلات بعضٍ من معاصريه، وركَّزنا بشكل خاص على استخدامهم لأسلوب السجع والمحسنات البديعية، ومزجهم بين اللغة الفصحى والعامية.

الجزء الأول- الحضارم وكتابة الرسائل:

من المعلوم أن العرب قد عرفوا فن الرسائل منذ القدم. وهناك من يرى أن أصوله ترجع إلى العصر الجاهلي. وقد تمّ توثيق عددٍ لا بأس به من الرسائل التي بعثها النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى ملوك الدول ليدعوهم إلى الإسلام، كما فعل مع كسرى الفرس وقيصر الروم، أو إلى زعماء المناطق ورؤساء القبائل؛ ليبينّ لهم أحكام الإسلام. وقد تميّزت جميع رسائله صلى الله عليه وسلّم بالإيجاز والبلاغة. نلمس ذلك مثلاً في الرسالة التي بعثها إلى وائل بن حجر الحضرمي، والتي قال فيها: "**من محمد بن عبد الله إلى الأقيال العباهلة من أهل حضر موت، بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، في التيعة شاة، والتيمة لصاحبها، وفي السيوب الخمس، ولا وراط، ولا شناق ولا شغار، فمن أجبى فقد أربى، وكل مسكر حرام**". ويذكر الدكتور شوقي ضيف أن الخلفاء الراشدين قد اهتدوا بهدي النبي صلىّ الله عليه وسلّم في مكاتباتهم إلى ولاتهم وقادتهم، فتجنّبوا التصنّع والتنميق، اللذين أصبحا سمةً ملازمة للرسائل العربية منذ العصر الأموي. ومن المعلوم أن كتابة الرسائل قد شهدت تطوراً كبيراً منذ مطلع القرن الهجري الثاني، أولاً في عهد هشام بن عبد الملك عندما تولى مولاه سالم رئاسة ديوان الرسائل في عهده، ثم في عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، الذي تولى أمر ديوانه عبد الحميد الكاتب. واهتم الخلفاء العباسيون أكثر من سابقيهم بكتابة الرسائل ودواوينها، واشترطوا في وزرائهم إتقانها. وقام معظم الدارسين بتقسيم الرسائل في التراث العربي القديم على أربعة أنواع، هي:

١- **الرسائل الديوانية**: وهي الرسائل ذات الطابع الرسمي والسياسي، التي يصدرها الخلفاء والسلاطين ورجال السياسة بشكل عام.

٢- **الرسائل الإخوانية**: ومختلف الرسائل الاجتماعية ذات الطابع الشخصي أو الخاص، والتي تتطرق في بعض الأحيان للشأن العام.

٣- **الرسائل الدينية**: ومنها الوعظية والتربوية.

٤- **الرسائل الأدبية الإنشائية**.

ومن المعلوم أنَّ عدداً كبيراً من الحضارم، ومنهم الأدباء والقادة السياسيون ورجال الدين، لاسيَّما المتصوفون، قد مارسوا كتابة الرسائل بمختلف أنواعها. ونذكّر هنا أنّ النقّاد أطلقوا تسميات أخرى على الرسائل في التراث العربي؛ مثل التوقيعات والترسّل أو المكاتبات التي استخدمها كثير من النقاد القدامى عند دراستهم للرسائل وتصنيفها. والحضارم فضّلوا في الغالب استخدام (مكاتبة ومكاتبات)، واستخدم بعضهم كذلك تسمية (الرسالة)، لكنهم في معظم الأحيان استخدموا هذه التسمية للتعبير عن النوع الأدبي أو العلمي من الرسائل الذي يدخل في باب التأليف لا في باب المراسلات، مثل (الرسالة القشيرية) في التصوّف، و(رسالة الغفران) لأبي العلاء المعري، وكثير من رسائل الجاحظ. وهناك حضارم ألّفوا كتبًا أدبية أو علمية أطلقوا عليها (رسالة في...)، ومن أشهر تلك الرسائل الأدبية العلمية: (رسالة في الأنساب) لأحمد بن محمد باجمال، و(رسالة في الربع المجيب) لمحمد بن أحمد بافضل (ت٩٠٣هـ)، و(رسالة المريد) لعبد الله بن علوي الحداد (ت١١٣٢هـ). وفي القرن الثالث عشر الهجري ألّف عبدالله بن أحمد بن محمد باشميل (ت١٣٠١هـ) (رسالة في الحراثة).

ولا شك في أنَّ اهتمام الحضارم بكتابة الرسائل يرتبط بحاجتهم للتواصل في شؤون حياتهم مع أقربائهم وأصدقائهم ومحبيهم وقادتهم، لاسيما في الماضي حينما كانت وسائل النقل والاتصال الأخرى في غاية الصعوبة أو كانتْ معدومة. ومن المؤكد أن ظاهرة هجرة الحضارم قد زادت من اهتمامهم بكتابة الرسائل. وليس السؤال الأهم بالنسبة لنا: لماذا دأب الحضارم على كتابة الرسائل؟ بل لماذا بادر عدد كبير من الأدباء ورجال الدين الحضارم إلى نشر رسائلهم الخاصة والسياسية والدينية في مجلدات حتى وهم على قيد الحياة؟

من جهة، يبدو لنا أن تأثر عدد من الأدباء وعلماء الدين الحضارم بالأدباء ورجال الدين العرب الذين نشروا رسائلهم في العصر العباسي قد دفعهم إلى نشر رسائلهم الأدبية والوعظية. ومن جهة أخرى، رأى بعض الحضارم أنهم قد بلغوا درجة معينة من العلم والشهرة تمكنهم من نشر ما كتبوه إلى أقربائهم وتلامذتهم ومحبيهم؛ لينتفع به غيرهم، وهذا السبب جعلهم يحرصون عند كتابة رسائلهم على إعطائها صبغة أدبية.

ومن المعلوم أن الحضارم، بمختلف مستوياتهم، قد اعتادوا قبل وصول المطبعة إلى حضرموت على تحرير رسائلهم بأنفسهم، أو بمساعدة كاتب (راقم)، وفي الأقل في نسختين يحتفظ المرسل دائماً بنسخة منهما لديه. وعادة ما يحتفظ المتسلِّم بالرسالة التي تسلَّمها، والتي يعدّها في بعض الأحيان بمثابة وثيقة شبه رسمية وذلك حينما تحتوي على التعبير عن تنازل أو تمليك أو وصية أو طلاق. وكثير من العائلات الحضرمية لديها صندوق خاص بـ(الخطوط)؛ والخطوط تشمل الوثائق والرسائل المرسلة والمستلمة. وقد سهلت هذه العادة جمع رسائل الحضارم ونشرها مستقلة أو ضمن مجموع.

كما اعتاد كثير من الأدباء ورجال الدين أنْ يُمْلُوا رسائلهم الوعظية أو المتضمنة إجازات ووصايا في حضور بعض تلامذتهم ومحبيهم، مع السماحِ لهم بتدوينها. ويرى الباحث عبدالله محمد الحبشي في كتابه (أوليات يمانية) أن هذه العادة أصبحت سمة مميزة لسكان الجزيرة العربية، ويذكر: "عثرنا في تراث الحضارمة على مجاميع كثيرة من الرسائل الشخصية تصدَّى لجمعها جماعة من المحبين والمعجبين بأصحاب تلك الرسائل، وهذا نادراً ما يتَّفق في تراث آخر غير تراث أهل الجزيرة العربية وعلى الخصوص أهل حضرموت؛ إذ غالبًا ما أهملت هذه الرسائل وتركت نهبًا للضياع، وربما كانت في أحسن الأحوال بطائن للكتب العلمية بعد أن يرص بعضها فوق بعض، وتغمر بالصمغ؛ لتصبح ورقة واحدة غليظة، وكان ذلك في وقت قلة الورق". (أوليات يمانية) ص١٦٩.

وعلى الرغم من تسليمنا بأنّ معظم مكاتبات أو مراسلات الحضارم لا تزال اليوم محفوظة في صناديق الأحفاد والأقرباء والأصدقاء والتلاميذ، فإنَّنا نلاحظ أنَّ عدداً من الأدباء ورجال الدين الحضارم بادروا إلى جمع رسائلهم بأنفسهم في مجاميع؛ بهدف توصيلها إلى أكبر عدد ممكن من القراء. من هؤلاء الحبيب عبد الله بن علوي الحداد، الذي برّر جمعه لرسائله قائلاً: "إني قصدت أن أجمع في هذه الأوراق أطرافًا مما فتح الله عليّ، وأنطقني من الكلام، الموافق لكلام الله ورسوله، وهدي السلف الصالح رضي الله عنهم؛ حملني على ذلك الخوف من الاندراس، الذي يستولي غالبًا على ما لم يكن مدوَّنًا ومجموعًا كما وقع لكثير من كلامنا... واقتصرت في هذه المدوَّنة من جملة ما فتح الله به علي المكاتبات التي كتبناها إلى الإخوان، والوصايا التي أوصينا بها بعضهم، والكلمات المنثورة والقصائد المنظومة. فهي أربعة أقسام ونلحق إلى كل قسم ما يتجدد من نوعه إن شاء الله، وسميتها (جامع المكاتبات والوصايا والكلمات والقصائد المشتملة على الحكم والفوائد والمنافع والمراشد". ص٥.

وفي القرن الثالث عشر الهجري انتشرت كثير من رسائل حسن بن صالح البحر وعلي بن محمد الحبشي في أثناء حياتهم بشكل مستقل وفي مجاميع، وانتشر كذلك عدد كبير من المكاتبات مخطوطةً في شكل مجاميع قام بجمعها التلاميذ والمحبون والأبناء والأحفاد. وهناك نسخ من بعض المجاميع تم إيداعها في المكتبات الخاصة والعامة. وقامتْ دار تريم للدراسات والنشر بنشر صور لبعض تلك المخطوطات، مثل (مكاتبات السيد العارف أحمد بن محمد العطاس)، و(مكاتبات الحبيب طاهر بن حسين بن طاهر والحبيب عبد الله بن حسين بن طاهر)، و(مكاتبات العلامة الفقيه الحبيب الإمام عبد الله بن الحسين بن عبدالله

بلفقـــيه العلوي). كما نشرت دار تريم صورة لمخطوطة (مكاتبات الحبيب حسن بن صالح البحر)، وذلك بعد أن قـامت دار التراث بـتريم حـضرموت بـنشرها مطبـوعةً ضمن (مجموع مناقب ومواعظ ووصايا الإمام الحسن بن صالح البحـــــر الجفري -١١٩٣-١٢٧٣هـ- ومعه مكاتباته وقصائده) سنة ٢٠١٣.

ومن أهم رسائل الحضارم الأخرى التي تمّ نشرها مطبـوعةً: (مكاتبـات الحبيب علي بـن محمد الحبـشي)، ومكاتبـات (الحبيب أبي بـكر بـن عبـد الله العطاس). وقـام الباحـث الدكتور محمد أبوبـكر بـاذيب بـنشر جزء من مكاتبـات علوي بـن محمد بـــن طاهر الحداد ضمن مجموع (بهجة الخاطر وسرور الفؤاد في مجموع مآثر الحبيب علوي بـن محمد بـن طاهر الحداد، سـيرة حـياته، ومجموع كلامه، وديوانه، ومجموع مكاتبـــاته، وغير ذلك (في ٣ مجلدات. (دار التراث، تريم، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م).

وهناك عدد كبير من مجاميع المكاتبات الحضرمية التي تم جمعها، لكنها لم تر بـعد طريقـها إلى النشر - على الأقـل حسب علمنا -، مثل (رسائل عمر بن سقاف، ت١٢١٦) والمودعة في مكتبـة الحبـشي بـالغرفة. ولا تزال مخطوطة كذلك (مكاتبات عبد الله بن عمر بن سميط ت١٣١٣هـ)، وهناك نسخة منها في شبام. ويحتفظ أحفاد عبدالقادر بـن محمد بن حسين بن زين الحبـشي ت١٢٥٠هـ بـمخطوطة مكاتبات جدهم. ومن أهم المكاتبات الحضرمية في القـرن الثالث عشر، التي جمعت ولم تنشر بعد: مكاتبـات السـيد محسن بن علوي السقاف، التي وظفها حفيده المؤرخ عبـد الرحمن بـن عبـيد الله السقـــاف في كتابـــه التاريخي (إدام القوت) وأصله (بضائع التابـوت). وقـد تصدَّى لجمعها سالم بن حفيظ تحت عنوان (رسـائل ووصايا ومكاتبـات علمية للسيد محسن بن علوي السقـاف) سـنة ١٣٧٩هـ. ويبدو لنا أن الأسباب التي منعت (أو أخّرت) نشر (بضائع التابوت) هي التي أخَّرت نشر مكاتبات محسن السقاف.

كما تحتفظ بعض المراكز البحثية والمكتبـات العامة والخاصة في حضرموت بنسخ من مكاتبات السلاطين ورجال السياسة التي لم تدرس حتى اليوم. فحسبَ عِلْمِنَا لم تحظ مكاتبـات الحضارم إلا بتقديم موجز بعنوان (رسـائل شـخصية من القرن الثالث عشر) ضمَّنه الباحث عبدالله بن محمد الحبشي كتابه (أوليات يمانية ص١٦٨-١٧٤)، وكرسه لمكاتبات الحبيب طاهر بن الحسين بن طاهر، والدراسة التي قـام بها الأستاذ الدكتور عبدالله الجعيدي لبعض الأبعاد التاريخية في مكاتبات الحبيب عبد الله بن علوي الحداد.

الجزء الثاني- الأبعاد الموضوعية في رسائل الحضارم في القرن الثالث عشر الهجري:

قسم المستعرب البريطاني أدريان غللي الرسائل في المجتمعات الإسلامية قبل العصر الحديث على نوعين فقط: الرسـائل الرسمية، والرسـائل غير الرسـمية أو الإخوانية. وأكد في كتابه (ثقـافة أدب الرسـائل في المجتمع الإسـلامي، قبـل العصر الحديث، ترجمة وليد شحـاته، العبـيكان، الرياض ٢٠١١، ص١٧)، أن الرسـائل الإخوانية ترصد التفاعل الشخصي والاجتماعي بين الأفراد، بينما تتضمن الرسـائل الرسمية معلومات عامة ذات قيمة تاريخية كبيرة.

ومع أن معظم رسائل الحضارم التي تم نشرها، مخطوطةً أو مطبوعةً، تخص في الغالب رجال دين فهي ليسـت كلها إخوانية؛ إذ إنَّ جزءاً منها موجه للسلاطين والحكام والقـادة. وإذا كانت الأبـعاد الشـخصية أو الخاصة تبرز بشـكل لا بأس بـه في مكاتبـات آل ابـن طاهر فهي تتقـلص كثيراً في رسائل حسـن البحـر، التي تتضمن أبـعاداً تاريخية وعامة دقيقة وفي غاية الأهمية.

(أ) الأبعاد الشخصية في رسائل الحضارم:

من خلال قراءتنا لمكاتبات الأخوين طاهر وعبد الله ابنَيْ حسين بن طاهر، لاحظنا أنها تحتوي على أبـعاد شـخصية واسعة؛ فطاهر يحدّث أخاه في بعض الرسائل عن كل ما يتعلق بمزرعتهم ونخيلهم وتمرهم، ويحدِّثه عن صحة والدتهما،

وما يتعلق بالحياة اليومية في المنزل وخارجه. مثلاً، في الرسالة التي بعثها طاهر بن حسين، بتاريخ ١٢ شوال ١٢٣٥هـ، إلى أخيه عبدالله، يكتب: "صدرت والدعاء مبذول ومسئول، ونحن ومن لدينا من الخاصة والعامة كما تحبون، نرجو أنكم بأتم حال وأنعم بال. وأخبار الجهة كما عهدتم؛ التشويش والكثافة إلى غاية، والمراتب باقية، والحفظ والسلامة موجودة، والطمأنينة حاصلة. في هذه الأيام يظهر أن حال الأعداء بايتفرق، وأن شملهم بايتبدد، فالله يحقق الرجاء والحقايق. وهذا الخط معبرّ إلى الأخ عبدالله جنيد، وأحوالنا حسبما عرفناكم في عدة خطوط، ما هناك مشوش إلا حوادث الزمان. والوالدة بأتم حال، والشريفة فاطمة كذلك، زالت الآثار كلها. والولد عبدالرحمن زالت عنه حمى الثلث، وبقي الدمل الذي في لحيه الأيمن، يخرّج مخروج سهل من غير مشقة، وإن شاء الله يضمحل. وكتبكم كلها وصلت من اليمن، ورجال الرقم منتظرون كتبكم من مكة وجدة مع أهل التدبيرة، حيث الخبر وصل أن أهل التدبيرة وصلوا إلى البنادر، والخطوط مبعاد وصلت، نرجو أن تظهر خطوطكم، وكذلك خطوط المحبين والسيد علي، لعل المحب سالم عوض خرج ووقعت بيده، متعطشون لأخباركم، وكيفية رحلتكم، فالله ييسر لكم الأمور والزيارة إن شاء تكون بعد رمضان مع الأصناء، وموافقة الوقت، مع إنا نرجو خروجكم بعد الحج. والوالدة لم تزل تكرر علينا: عرفوا عبد الله يبادر بالخروج، حيث التدبيرة بعيدة جم جم، والحاضر يرى ما لا يرى الغائب، ومثلكم لا يعرف. والخريف هذه السنة قليل، إنما هو في غاية الاحتكام، رطب من العجايب، حال التاريخ نجم البلدة والشارة على الرأس، غيث خفيف، فعسى الله يسلم الخريف من الغبار، ويغيث المسلمين بغيث نافع. والأسعار شاحية قليل، والزرايع موافقة، وكل شي موجود، والدعاء الدعاء في كل حين، كما هو مبذول. والخال محمد تزوج أخر شهر رمضان على بنت يحيى بن محسن مطهر مخلفة محمد بن حسين، هذا والخط بغاية العجل، ولا زلتم في حفظ الله وجميل رعايته". ص١٦٧ - ١٦٩.

وبالمقابل نلمس أن الأبعاد الشخصية تتقلص كثيراً في مكاتبات الحبيب حسن بن صالح البحر، فهو لا يتحدَّث فيها أبدًا عن شؤون عائلته. وتعد الرسالة الأولى بعد المئة (بدون تاريخ)، الموجهة إلى السيد أبي بكر المشهور، من الرسائل النادرة التي يتطرق فيها حسن البحر لجانب من حياته الخاصة: صحته؛ فهو يذكر فيها ما يعانيه من ضعف في السمع والنظر، وكتب: "ونحن هذه الأيام معنا تكثيف من أثر العيون ومع الصمم، حتى إنا اعتذرنا لذلك عن كثرة اختلاف الناس، وقد أرسل لنا العام الأول فرج يسر كحال أبيض، ووافق معنا غاية، لكنه تمّ سريعا، وعرّفناه من طرفنا، وأرسل كحال، لكنه ليس كالأول، ولم تحصل منه جدوى، وأصل الأثر يقل في الدف، وحصل فيهن الغث خصوصا مع برود الوقت، والنزلة فيهن تخرج من الرأس، والصمم كذلك، فإن قدر الله شيء من الأدوية حسب التيسير اعتنوا بذلك، حماكم الله. والسلام". ص٧١٦ (اعتمدنا النص المطبوع من مكتبات البحر لجميع الاقتباسات باستثناء ما يتعلق بالرسالة التي بعثها حسن البحر إلى علي ناجي بن بريك).

ونلاحظ أن معظم رسائل الحبيب حسن البحر الإخوانية، التي يتضمَّنها مجموع مكاتباته، المخطوط أو المطبوع، عبارة عن ردود للمرسلة إليهم، ويتنوع محتواها بين التعزية والعظة والدعاء والتوصية والإرشاد. مثلاً، في الرسالة الثالثة من المخطوطة، التي وجهها البحر إلى الشيخ سعيد بن عامر بن عبدالعزيز الكثيري، يبلغه باستلام رسالته ويوصيه بالالتزام بالفرائض الصلاة والزكاة ويطمئنه بالدعاء له. ويكتب فيها: "من حسن بن صالح البحر الجفري إلى المحب المبارك المسعود إن شاء الله سعيد بن عامر بن عبدالعزيز بن محمد بن عمر الكثيري، سلمه الله وكان له عونا في دنياه وأخراه، وحفظه مما يحذره ويخشاه، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. صدر هذا الكتاب وقد وصل كتابكم،

فأوصيكم- كان الله في عونكم وزادكم من كل خير- بطاعة الله وتقواه، فإنها موجبان للسيادة والسعادة في الدنيا والآخرة، فمن ظفر بها فاز بكل خير، وسلم من كل بؤس وضير، ومن حرمها حُرِم من كل خير، وهمة المؤمن قالب التوفيق، ومن الإنسان الهمة والعزم، ومن المولى الإسعاد والتوفيق. ونوصيكم بالمحافظة على الصلاة، فإنها عماد الدين... ثم الزكاة فإنها ركن من أركان الإسلام... هذا وحفظكم الله، ومن اصطنع المعروف، وأجراه الله على يديه، فليبشر بالخير وحسن العاقبة، والدعاء مبذول لكم. والسلام عليكم". ص٥١١-٥١٢.

ويعكس هذا النوع من الرسائل توجُّه الناس للحبيب حسن بن صالح البحر بغرض طلب الدعاء والعلاج أو تجاوز بعض الصعاب. ففي الرسالة الحادية والعشرين يرد البحر على طلب محبِّه الشيخ عوض بن أحمد طيب، قائلاً: "صدر هذا الكتاب بعد وصول كتابكم، وما ذكرتم صار لدينا معلوم، ونحن إن شاء الله متوجهين إلى المولى في تيسير ما تطلبون، ودفع ما تكرهون، وهو مليء بكل خير، وإن شاء الله ينفرج كربكم، وقد أوصينا الولد عبد الله بن زين بوصية وذكرنا فيها أذكارا تطلبونها، وزيدوا واستعملوا هذا الدعاء: اللهم كما لطفت بلطفك في عظمتك دون اللطفاء، وعلوت بعظمتك على العظماء، وعلمت ما تحت أرضك كعلمك بما فوق عرشك، وكانت وساوس الصدور كالعلانية في عندك، وعلانية القول كالسر في علمك، وذلّ كل شيء بعظمتك، وخضع كل ذي سلطان لعظمتك، وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك، اجعل لي من كل هم أمسيت أو أصبحت فيه فرجا ومخرجا، وارزقني من حيث لا أحتسب. هذا الدعاء لكم مبذول ومنكم مسئول". ص٥٥٣.

وفي الرسالة الثالثة بعد المئة، يكتب الحبيب حسن البحر إلى عبدالله وعبدالرحمن ابنَيْ أبي بكر المشهور يشرح لهما فيها كيفية العلاج باستخدام الماء المقروء عليه القرآن، وذلك على النحو الآتي: "صدر هذا الكتاب بعد وصول مشرفكم، وأشجانا ما ذكرتم من تأثر الأهل، وليس عندنا خبرة ولا دراية بهذا الشأن، لكن كتبنا لهم في إناء شيئا من القرآن الذي أنزله شفاء ونورا لأهل الإيمان، وصدر على حسن النية والرابطة، والله المستعان على نوائب الزمان، وطوارق الحدثان. هذا وحماكم الله. والسلام على من شئتم، منا والأولاد والمحب عمر شماخ. وإذا محيتم الماء ابقوا القليل وادهنوا به الرأس والبدن" ص٧٢٠.

ويتضمن مجموع مكاتبات البحر كثيراً من رسائل التعزية، منها الرسالة الرابعة التي بعثها المؤلف على محبه عثمان بامجبور، والرسالة الخامسة التي أرسلها إلى حسن بن حسين وحسن بن عبدالله الحداد، وكتب فيها: "من العبد الفقير حسن بن صالح البحر إلى حضرة سادتي الأجلاء الكرام، سلالة الأئمة بدور الدين والنفع العام، إن شاء الله لسائر المسلمين، حسن بن حسين وحسن بن عبدالله أبناء الحبيب الإمام أحمد بن الحبيب الشيخ حسن بن الإمام قطب الإرشاد عبد الله الحداد، حماهم الله، وهدى بهم إلى سبيل طاعته وتقواه. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. صدر هذا الكتاب وقد وصل كتابكم المنبئ بخبر وفاة الحبيب الفاضل حسن بن سيدنا الشيخ عمر. أحسن الله عزاكم. وقد أحزننا ذلك الخبر، لكن ذلك سنة الله في خلقه، وقضاؤه في عباده. ومرجع الكل إليه، وهذه الدار دار التشتيت والافتراق، والاجتماع إن شاء الله في دار الخلود بلا ضغن ولا ارتحال، ولا موت ولا زوال، في جوار الكبير المتعال". ص٥١٦.

وإذا كان الحبيب حسن بن صالح البحر يتجنب الحديث عن الشؤون العائلية فهو لا يرى بأساً في تضمين بعض رسائله الإخوانية بعض أخباره ذات الطابع الديني، فهو يذكر، مثلاً، أن سبب كتابته للرسالة الثانية، الموجهة للسيد حسن بن علوي بو فطيم: إبلاغه بعزمه على التوجه إلى الحرمين الشريفين، ويكتب فيها: "موجب الكتاب، بعد مسنون الدعاء والتحية، السؤال عن أحوالكم السنية،

وشم أنفاسكم الزكية، وتجديد العهود، وتأكيد الوداد المعهود، إعلامكم بوجهة الفقير إلى الحرمين الشريفين، عن فرض حسين بن سيدنا الشيخ عمر بن سقاف، أدعوا لنا فإنكم منا في سويدا البال، وذكركم في الحل والترحال". ص٥٠٩.

وفي الرسالة الثامنة والخمسين يبعث حسن البحر رسالة إلى محبه علي بن محمد شماخ يبلغه فيها باستلام رز للوليمة التي أقيمت يوم (المدرس) ويشكره قائلاً: "وقد وصل الرز من المحب الشيخ، حفظه الله، وحصل به المنفعة والبركة يوم المدرس المبارك، شكر الله سعيه وعامله بكل خير في عاجل دنياه وآجل أخراه، والمدرس إلى زيادة، ومع الناس انتعاش الروح بذلك ومظاهر نور وحضور". ص٦٢٤

وكان الحبيب البحر في الرسالة السابقة، الموجهة إلى الشيخ علي بن عبود باسندوة قد كتب: "صدر هذا الكتاب بعد وصول ما أهديتموه، وكان الله في عونكم، وزادكم من فعل الخيرات ومتجر الباقيات الصالحات". ص٦٢١.

وفي الرسالة الرابعة والسبعين ينصح الحبيب حسن البحر الحبيب أحمد بن محمد المحضار ألاّ يقدم على عمارة أحد المساجد إلا عند تيسرُّ الأموال اللازمة لذلك وكتب له: "وما ذكرتم من خبر المسجد وعمارته، إذا تيسرت من غير تكلف ولا تقشف، فذلك المقصود، وإن لم يتيسر فلا تجعلوا علقتكم بغير ربكم، ولا تذلوا أنفسكم لمن دونه، لأن الذل لغير الله والطمع في غير الله خسران وندامة، وغبن وملامة". ص٦٥٩.

وإذا كان الحبيب حسن بن صالح البحر لا يميل كثيراً إلى الحديث عن حياته الشخصية في رسائله الإخوانية، وهو يتجنب كذلك الخوض في الشؤون الخاصة بالآخرين، ومع ذلك يحتوي مجموع مكاتباته على قليل من الرسائل التي تتعلق بالحياة الخاصة لبعض محبيه ومراسليه. وفي الغالب تم حذف أسماء هؤلاء الأشخاص في النصين المخطوط والمطبوع من الرسائل، أو استعيض بكلمة (فلان)، أو يترك فراغ في مكان الاسم، مثلما نجد ذلك في رسالة العتاب (الرابعة والعشرين)، التي بعثها حسن البحر لأحد محبيه بعد أن طلب منه أخوه التدخل لإنهاء خصام حدث بين الأخ وأهله، وقال فيها: "صدر هذا الكتاب بيد أخيك، الموجب لذلك أن أهلك حصلت معهم بعض وحشة من قلة المواصلة، وجفوتهم وعدم الإرسال إليهم، وأنتم أهل مروءة وديانة، والمصافاة والأخذ بالخواطر ألْيَق بكم، وكل من له حق ما يطرد منه، و[عليكم] صيانة العرض والمروءة من نصيب أهل الزمان، والحاسدين المدخلين الإحن والفتن بين الأصحاب والقرابات، لأن أخلاقهم قد صارت أخلاق الشياطين... ونرجو أن لا يسمع بينكم بغيض ولا حاسد، والتطاول على الجميل الذي بذره يحصّل السيادة والسعادة في الدنيا والآخرة، فتصافوا بطيب قلوب، وتسابقوا إلى فعل الحسنات، وفعل الجميل، بارك الله فيكم، وكان الله في عونكم، واحذروا من المخاصمة والمشاحنة، الله يؤلف بين قلوبكم، ويوفقكم لما يحبه ويرضاه، والسلام". ص٥٥٧.

ومع ذلك يبرز اسم المرسل إليه في الرسالة الحادية والثمانين من المجموع، وفيها يتوسط الحبيب حسن البحر عند المغترب الشيخ عوض عمر عبدالكبير باحميد، ويطلب منه زيارة أهله أو مساعدتهم، مبرِّرًا ذلك بالظروف الصعبة التي تشهدها في حضرموت حينذاك، وكتب فيها: "من حسن بن صالح البحر، إلى الشيخ عوض بن عمر بن عبد الكبير باحميد، سلك الله به المسلك الحميد، وحلى ظواهره وسرائره بما يرضى به الرب المجيد. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وصل كتاب الشيخ سالم وأرانا إياه، وفقكم الله لما فيه رضاه، وسلك بكم مسالك أحبابه وأولياه، وكونوا حسب الظن في صلة أخيكم سالم ووالدتكم، وتفريج كربتهم وإدخال السرور على قلوبهم بمخرجكم، وإذا لم يكن ذلك فبالصلات الجميلة، وقد بلغكم ما حلّ بحضرموت، وما وقع فيها من الأزمنة الشديدة، والمتاعب في معاشهم، وهم أحق بصلتكم، وصلتهم متعيّنة عليكم، ولازمة في معسوركم فضلاً عن ميسوركم. هذا والدعاء لكم مبذول". ص٦٧٣.

55
العدد (23)
يناير
مارس
2022م

زهو الفقهاء وبأو الحُكَّام

«لا شيء من العلم من حيث هو علم بضار، ولا شيء من الجهل من حيث هو جهل بنافع؛ لأن في كل علم منفعةً ما في أمر المعاد، أو المعاش، أو الكمال الإنساني، وإنما يتوهَّم في بعض العلوم أنه ضار أو غير نافع؛ لعدم اعتبار الشروط التي يجب مراعاتها في العلم والعلماء؛ فإنَّ لكل علم حدًّا لا يتجاوزه». حاجي خليفة.



وضاح عبدالباري طاهر

كانت الحضارة الإسلامية في ذروة مجدها، وغاية قوتها تحمل في أحشائها جنين التدهور والانحطاط والسقوط. فالبذرة الأولى للانحطاط نبتت من الحاكم المستبدِّ، الذي ابتز الناس أمرها، وغلبها على رأيها. لقد تربَّع الحاكم على عرش الحكم عن طريق العسف والتغلب، ولم يأتِ للسلطة برضا الناس أو اختيارهم، بل جالدهم بالسيف مجالدة؛ حتى أذعن من أذعن تحت سلطان القسر والقهر.

أما البذرة الثانية، فهم رجال الدِّين المتعصبون الذين ساروا ضدًّا على الحياة، وجوهر الدين اليسر، والملة السمحة.

ليس هناك أضر على الحياة بأن تعطى الأشياء أكبر من حجمها؛ فيبالغ في تقديرها، ويُفرط في الإعلاء من شأنها؛ الأمر الذي يترتب عليه سوء الأحكام، واختلال الموازين، وفساد الحياة برُمَّتها؛ وهذا ما فعلتْه الدعاية الكبيرة التي جعلت من هذين الصنوين: الحاكم المتفرعن، والفقيه المتأله خطًّا أحمرَ، يصعب تجاوزه أو تخطيه.

لقد صار هذان الحليفان عبْئًا على الحياة، وثقلاً كبيرًا يحول دون تطورها، وأضحى المتعصبون من الفقهاء مع حُكَّام الغلبة هم أصحاب الكلمة الفصل في الإمساك بزمام شئون الحياة، والتحكم بمصائر الناس.

لما حسم الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين) بأنَّ الفقه ليس إلا علماً دنيويًا، وأن علوم الآخرة هي التقوى، ومخافة الله، والزهد، والورع والصدق اجتمع فقهاء المغرب على تحريق كتابه.

جاء في (شذرات الذهب) في ترجمة القاضي عياض بن موسى اليحصبي المالكي أنه «كان شديد التعصب للسنة، والتمسك بها؛ حتى أمر بإحراق كتب الغزالي؛ لأمرٍ توهمَّه منها»(١).

وجاء في تاريخ (مرآة الجنان)، عند ذكر وفاة صاحب المغرب علي بن يوسف بن تاشفين (٥٣٧هـ): أنه هو الذي أمر بإحراق كتب الإمام حجة الإسلام الغزالي(٢). وبهذا يتظاهر الفقيه المتعصب والسلطان المستبدُّ على قمع الفكر.

لقد شهد الغزالي بأن تهافت الفقهاء على علم الفروع الفقه، وإهمالهم للطب ليس إلا بغرض تولي الأوقاف والوصايا، وحيازة مال الأيتام، وتقلُّد القضاء والحكومة، والتقدُّم على الأقران، والتسلُّط به على الأعداء، وهذا ما لاحظه قبله الشاعر والأديب ابن لنكك البصري؛ فقد

صور حال الفقهاء، وذمهم في أبيات له يقول فيها:

أقولُ لعصبةٍ بالفقه صالتْ

وقالت ما خلا ذا العلم باطلْ

أجل لا علمَ يوصلكم سواهُ

إلى مال اليتامى والأراملْ

أراكم تقلبون الحكم قلبًا

إذا ما صُبَّ زيتٌ في القنادل (٣)

وذكر المراكشي في تاريخه (المعجب) عند الكلام على ولاية علي بن يوسف بن تاشفين أنه: اشتد إيثاره لأهل الفقه والدين، وكان لا يقطع أمرًا في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء، فكان إذا ولى أحدًا من قضاته كان فيما يعهد إليه ألا يقطع أمرًا، ولا يبتُّ حكومة في صغير من الأمور ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء؛ فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغًا عظيماً لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس، ولم يزل الفقهاء على ذلك، وأمور المسلمين راجعة إليهم، وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم طول مدته؛ فعظم أمر الفقهاء كما ذكرنا، وانصرفت وجوه الناس إليهم؛ فكثرت لذلك أموالهم، واتسعت مكاسبهم، وفي ذلك يقول أبو جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن البني من أهل مدينة جيان من جزيرة الأندلس:

أهل الرياء لبستمو ناموسكم

كالذئب أدلج في الظلام العاتمِ

فملكتمو الدنيا بمذهب مالكٍ

وقسمتمو الأموال بابن القاسم

وركبتمو شهب الدواب بأشهبٍ

وبأصبغ (٤) صبغت لكم في العالمِ(٥)

لم ينل التعصب - في التاريخ الإسلامي من قبل الفقهاء - الفلسفة فقط، ولم يطل الطب، أو الفلك، أو العلوم الرياضية والطبيعية، أو حتى مدرسة الرأي التي كان على رأسها أبو حنيفة، وعثمان البتي، وربيعة، أو الأقليَّات الدينية - بل لقد ضاقت الدائرة حتى صار التعصب ضدًّا على الذات نفسها من أبناء الطائفة الواحدة أو المذهب الواحد، فكانت الحال هذه كحال قطة لم تجد ما تأكله؛ فأكلت أولادها، وهذا ما جرى من فقهاء الشافعية بذي أشرق من تباغض وتحاسد وتكفير لفقهاء زبيد الذين يتحدون معهم في المذهب الشافعي، ويخالفونهم في المعتقد؛ إذ إنَّ فقهاء ذي أشرق كانوا على اعتقاد الحنابلة، بينما كان فقهاء زبيد على مذهب الأشعري(٦).

وهذا ما حصل مع العلامة علاء الدين العطار، الذي وجدت له فتاوى تخالف إمامه الشافعي؛ فحُكِمَ بتكفيره، وكاد أن يراق دمه(٧)، لولا تدخل القاضي الحنفي الذي حكم بإسلامه وحقن دمه. ومن قبله أهدر الحنابلة دم ابن عقيل الحنبلي؛ لتردُّده على أهل الاعتزال، وتقديره للحلاج؛ فزندقوه لأجل ذلك؛ فظل مختفيًا سنين عددًا حتى أعلن توبته وتمكن من الظهور(٨).

وقد كفر الإمام عبد الله بن حمزة المطرفية، وقتل رجالها، وأباح التمثيل بجثثها، وسبى نساءها، واسترق أطفالها، وخَرَّبَ دورها، ودمَّر مساجدها، وهم جميعًا على مذهب الزيدية. وقد سئل عن حكم امرأة من المصانع - من ديار المطرفية - أو غيرها صادف وجودها في المنطقة عند السبي، وهي لا تعرف اعتقاد المطرفية، ولا تحبهم. فأجاب: إن المرأة من أهل المصانع حكمها حكم أهلها أي أنها تستحق السبي ؛ فلا فرق بينها وبين امرأة أخرى في المنطقة. فالمرأة التي تكون من غير أهل المصانع، فإنها ما لم تكن مغصوبة في وجودها في المنطقة، فإنه يجب سبيها؛ لأنها كفرت بوصولها إلى ديارهم!!(٩).

فإذا جاز هذا في أهل المذهب الواحد، فكيف يكون الحال بالمخالفين له في المذهب كشافعية تهامة الذين حكم عليهم بالكفر بتهمة التشبيه والجبر، واستباح نساءهم

وسباهم في المحالب والمهجم، فأم ولده سليمان من سبي المهجم، وفيه يقول:

سليمانُ بيتاك من هاشمٍ ومن آل قنطور بيتا شرف(١٠).

ويستشف من هذا البيت أن سليمان كان يلقى تمييزاً ضده كون أمه سبيَّة، وإلا فما الحاجة للإثبات، إذا لم يكن ثمةَ نفي.

لقد تشدد الفقهاء في تحريم أمور لم يرد في حقيقة الشرع ما يحرمها، وتعاملوا مع الحياة والأشياء بثنائية قاتلة؛ فقابلوا الدنيا بالدين، والعقل بالنقل، وعلوم الشريعة بإزاء الفلسفة وعلوم الطبيعة، والقرآن بالغناء، والمسجد بالمدرسة، والجامع بالجامعة؛ وجعلوا هذه الأشياء المتقابلة في حالة تزاحم وتضاد؛ فلا يستقيم وجود أحدهما إلا بإزالة الآخر أو نفيه؛ ألم يقل حكيم المعرة قديماً:

اثنانِ أهلُ الأرضِ ذو عقلٍ بلا دينٍ وآخرُ دَيِّنٌ لا عقلَ لَهْ

وأكد الغزالي هذا، فقال في (إحياء علوم الدين): «والعلوم العقلية تنقسم إلى دنيوية، وأخروية:

فالدنيوية: كعلم الطب، والحساب، والهندسة، والنجوم، وسائر الحرف والصناعات.

والأخروية كعلم أحوال القلب، وآفات الأعمال، والعلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله، كما فصلناه في كتاب العلم.

وهما علمان متنافيان، أعني أن من صرف عنايته إلى أحدهما، حتى تعمق فيه؛ قصرت بصيرته عن الآخر على الأكثر؛ ولذلك ضرب علي - رضي الله عنه - للدنيا والآخرة ثلاثة أمثلة، فقال: هما ككفتَي الميزان، وكالمشرق والمغرب، وكالضرَّتين إذا أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى.

ولذلك ترى الأكياس في أمور الدنيا، وفي علم الطب والحساب والهندسة والفلسفة جُهَّالاً في أمور الآخرة، والأكياس في دقائق علوم الآخرة جُهَّالاً في أكثر علوم الدنيا؛ لأن قوة العقل لا تفي بالأمرين جميعًا في الغالب؛ فيكون أحدهما مانعًا من الكمال في الثاني؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: إن أكثر أهل الجنة البله!!»(١١).

لذا لا يجتمع في قلب مؤمن - في نظر بعض الفقهاء - القرآن والغناء، حتى أن علاَّمة حضرموت ومفتيها ابن عبيد الله السقاف لما حضر عرسًا في الشحر سنة (١٣٢٢ هـ)، وكان هناك مغنٍ يغني بالعود، لم يطمئن ابن عبيد الله للحضور والسماع إلا بعد إلحاح عمَّه عليه، وتأمينه سخط والده ومعتبته(١٢).

وكان العلامة ابن دقيق العيد في صباه يلعب الشطرنج مع زوج أخته الشيخ تقي الدين ابن الشيخ ضياء الدين، فَأُذِنَ بالعشاء؛ فقاما فصلَّيا، ثم قال الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد: أما تعود؟ فقال صهره:

إن عادت العقربُ عدنا لها وكانت النعلُ لها حاضرهْ

فأنف الشيخ تقي الدين من ذلك، فلم يعد يلعبها إلى أن مات(١٣).

ويذكر ابن تيمية: أن جمهور الفقهاء يتنازعون في: هل يُسَلَّم على اللاعب بالشطرنج؟ وينقل عن أبي حنيفة وأحمد والمعافى بن عمران وغيرهم أنه لا يسلم عليه، ومذهب مالك وأبي يوسف ومحمد أنه يسلم عليه. ويروى أنَّ عليًّا - رضي الله عنه - مرَّ بقوم يلعبون الشطرنج، فقال لهم: (ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون). وقلب الرقعة(١٤).

لا حاجة لنا هنا بأن نشير بأنه عند إرادة فرض الآراء التي يراد تثبيتها يتم الاستشهاد بالأحاديث النبوية، أو بقصص عن الصحابة ذوي الفضل والعلم والمكانة؛ حتى تتسم المواضيع المتناولة بالموثوقية، وحتى تكون مقنعة وملزمة. لقد كانت الرواية مجالاً رحبًا للدس والكذب والاختلاق، ولعب الإغراق فيها - بدون تفعيل فن الدراية - في تكوين العقل العربي المسلم تكوينًا مشوَّهًا أودت به في هُوَّة التخلُّف والانحطاط.

لذا ستجد أحاديث مكذوبة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ينهى عن تعلم النساء الخط، كالحديث الذي أخرجه الحاكم وصححه عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله

وسلم قال عن النساء: »لا تنزلوهن الغرف، ولا تعلموهن الكتابة، وعلموهن المغزل وسورة النور«(١٥).

وكذلك الأثر الذي يروى عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، وينهى فيه عن تعلم النساء الخط(١٦).

وكذلك الحديث الوارد في مسند أحمد بن حنبل عن أبي هريرة، يزدري فيه البربر، قال: «جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم رجل، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أين أنت؟ قال بربري. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: قم عنِّي. قال بمرفقه هكذا، فلما قام عنه، أقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: إن الإيمان لا يجاوز حناجرهم!!«(١٧).

هذه الأحاديث شوَّهت محاسن الإسلام، وأساءت إليه، وصدت الناس عنه، وصورته دينًا عنصريًّا قاسيًا متخلِّفًا. هذا مع أن ثلثي الجيش الداخل إلى الأندلس كان من البربر، وعلى رأسهم طارق بن زياد، وقد مر بك ما روي عن علي - رضي الله عنه - بشأن الشطرنج.

وحين يقارن ابن تيمية بين الشطرنج والنرد، يذهب إلى أن الشطرنج شرٌّ من النرد؛ ويرجّح قوله بأن الشطرنج على مذهب القدر الاختيار -، والنرد على مذهب الجبر، واشتغال القلب بالتفكير في الشطرنج أكثر(١٨).

ليس عليك إلا أن تمعن النظر في هذا القول، لتعلم أن اللعبة التي تقوم على حريَّة الاختيار، وعلى العقل وتقليب النظر والفكر شر - في نظر ابن تيمية - من اللعبة التي ليس فيها إلا الحظ والحتمية التي تفرض نفسها على مسار اللعبة، وليس للاعبين فيها من خيار أو تحكم في النتائج.

ولما بنيت المدارس ببغداد، وخصصت رواتب للمعلمين، وأجريت على المتعلمين جرايات حسنة تشجعهم على العلم، وهي في الأخير - لا تدرس إلا تلك العلوم التي يدرسها الفقهاء - لم يرق ذلك لعلماء ما وراء النهر، وقالوا: «كان يشتغل به أرباب الهمم العلية والأنفس الزكية الذين يقصدون العلم لشرفه والكمال به؛ فيأتون علماء ينتفع بهم، وبعلمهم، ولكن العلم إذا صار عليه أجرة تدانى إليه الأخساء وأرباب الكسل«(١٩).

أما التعصب ضد المذاهب الأخرى، فالحديث عنه طويل لا تكاد تحيط بأطرافه وذيوله؛ فالشافعي قد قيل: إن سبب موته أنه ناظر رجلاً من أصحاب مالك اسمه فينان، فناظره في عتق المرهون، فقال: بنفوذ العتق، ومنع البيع، وقال الشافعي بعدم نفوذ العتق، وأنه يباع، كما هو أحد أقواله، فاستظهر عليه الشافعي بالحجاج؛ فأساء فينان عليه الأدب، ثم إن جماعة من السفهاء رصدوا حلقة الشافعي حتى خلت، فدخلوا عليه، فضربوه ضربًا شديدًا، فحمل إلى منزله حتى مات(٢٠).

أما أبو حنيفة صاحب مدرسة الرأي التي لم يسغها أهل الحديث ولا متعصبة الفقهاء؛ فقد ناله من الأذيَّة والتجريح والتكفير في كتب المحدِّثين وأهل الجرح والتعديل الشيء الكثير.

لم يكن التوجس من إعمال أبي حنيفة العقل والرأي في فهم الشرع فقط، وإنما بلغ بهم الطعن به أنه من بقايا السبي الإسلامي.

يروي الخطيب البغدادي عن سفيان أنه قال: «لم يزل أمر الناس معتدلاً حتى غَيَّرَ ذلك أبو حنيفة بالكوفة، وعثمان البتي بالبصرة، وربيعة بن أبي عبد الرحمن بالمدينة؛ فنظرنا، فوجدناهم من أبناء سبايا الأمم«(٢١).

وكأنَّ هؤلاء لم تكفهم مصيبة السبي التي نالتهم، ونالت آباءهم وأمهاتهم من قبلهم، حتى صاروا يُعَيَّرون بسبب ذلك، وظلت وصمة تلازمهم طول حياتهم.

يُروَى أن نافع بن جبير بن مطعم قدَّم رجلاً من الموالي من أبناء سبايا الأمم بحسب تعبيرهم - يصلي به، فقالوا له في ذلك، فقال: إنما أردت أن أتواضع لله بالصلاة خلفه!!(٢٢).

إنه لمن المؤسف أن رسائل علمية حضرت في الوطن

العربي تناقش ظاهرة الشعوبية، فصنفت الشعوبية على أنها حركة حاقدة على العرب(٢٣)، ولم تقف على جذر المشكلة التي جعلت من العنصر غير العربي ينظر بكراهية للعرب، وما ذلك إلا رد فعل طبيعي إزاء العنصرية العربية تجاه هذه الشعوب التي انضوت تحت راية الإسلام طوعًا وكرهًا.

وللتحذير من الرأي، والدعوة للتمسك الشديد بالأثر يروي الخطيب البغدادي أيضًا عن هشام بن عروة، عن أبيه، أنه قال: «كان الأمر في بني إسرائيل مستقيماً حتى نشأ فيهم أبناء سبايا الأمم؛ فقالوا بالرأي؛ فهلكوا وأهلكوا»(٢٤).

لقد تناسى هذا النص كل ما قد اقترفه بنو إسرائيل، وحمل أبناء السبايا وحدهم سبب ضلالهم وهلاكهم!

لا أظن أنه سيدور بخلد أحد أن إنسانًا قد يُهجَّر قسراً من بلدته؛ لأجل عدم التزامه الإسرار بالبسملة في الصلاة، كما حصل مع الحسن بن خالد الحازمي الذي طرد العلامة محمد بن مهدي الضمدي الحماطي من قريته الشقيري لعدم التزامه بذلك(٢٥).

ولا فرق بين هذا الوزير(٢٦) الفقيه المحدِّث المتعصِّب، وبين الملك المستبدِّ المنصور عمر بن علي بن رسول حين سأل العلامة أبا بكر بن ناصر بيع كتبه، فامتنع، فقال له: فتخرج من بلادنا! فقال: نعم، وخرج من مجلسه، وكان الأمير شمس الدين علي بن يحيى العنسي موجوداً؛ فقال للسلطان: الله الله! رجل علامة عصره تأمره أن يخرج من بلدك، ومثله يطلب من أقاصي البلاد. قال: فما وجد لنا جواباً إلا قول «لا». قال: يا مولانا إن أشق الأمور على الفقيه أخذ كتبه، فرأى أنك سألته أمراً عظيماً؛ فأجاب بأشق جواب، فأمر السلطان برده(٢٧).

لقد وقفت هذه الطائفة المتعصبة ضد كل ما يعمر الحياة، ويسهم في تطورها وازدهارها. فقد وقفت ضد المرأة، وضد العلوم الطبيعية كالطب والرياضيات والهندسة والفلسفة، وتعصبت ضد الأعراق الأخرى.

يذكر الطبري في تفسيره (جامع البيان) عند قوله تعالى: ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم﴾ أنَّ عامة أهل التأويل يذهبون إلى أنهم النساء والأطفال؛ لضعف آرائهم، وقلة معرفتهم بمواضع المصالح والمضار التي تصرف إليها الأموال(٢٨)، ونقل عن بعضهم أن المقصود بالآية النساء وحدهن، سواء كُنَّ أمهات أو زوجات أو بنات، ونقل عن الضحاك قوله: إن المرأة أسفه السفهاء(٢٩)؛ أي أنها أسفه حتى من الطفل الصغير.

لكن الإمام ابن جرير خالف هذا الرأي فقال: والصواب من القول في تأويل ذلك عندنا أن الله جل ثناؤه عم بقوله: ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم﴾، فلم يخصص سفيهًا دون سفيه. فغير جائز لأحد أن يؤتي سفيهًا ماله، صبيًا صغيراً كان أو رجلاً كبيراً، ذكراً كان أو أنثى(٣٠).

أما علم الطب، فيذكر العلامة الجليل النووي رحمه الله – أنه: خطر له الاشتغال بعلم الطب؛ فاشترى كتاب القانون لابن سينا، وعزم على الاشتغال به، فأظلم قلبه، وبقي أياماً لا يقدر على الاشتغال بشيء، ثم فكر في أمره، ومن أين دخل عليه الداخل؟ فألهمه الله أن سببه اشتغاله بالطب، فباع القانون في الحال؛ فاستنار قلبه (٣١).

وهذا شبيه بما ذكره القاضي التنوخي في (نشوار المحاضرة)، عن القاضي أبي بكر محمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن مروان، «قال: حدثني خالي محمد بن هارون، قال: قال لي بعض أصحابنا: كنت في بعض الليالي أنظر في كتاب التشريح لجالينوس، فغلبتني عيني، فرأيت هاتفاً يهتف بي، ويقرأ: ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾. فاستيقظت، ومزقت الكتاب»(٣٢).

لقد أهمل المسلمون علم الطب بصرف الفقهاء الناس عنه؛ فبادر إلى درسه وتعلمه والتبريز فيه النصارى واليهود، ونالوا به مرتبة كبيرة في قصور الخلافة الأموية والعباسية

والفاطمية. ومع ذلك فإن بعض المتعصبين يرى أنَّ هذا العلم صار مهانًا حين تعاطاه اليهود، فلم يشرفوا به، بل رذل العلم بهم! (٣٣).

وهذا العلاّمة الكبير كمال الدين ابن يونس الشافعي يذكر ابن خلكان: إنه يدري أربعة وعشرين فنًّا دراية متقنة، فمن ذلك مذهب الشافعي، وكان جماعة من الطائفة الحنفية يشتغلون عليه بمذهبهم، وكان يتقن أصول الفقه وأصول الدين. وكان بارعًا في فن الحكمة: المنطق، والطبيعي، والإلهي، وكذلك الطب، ويعرف فنون الرياضة من اقليدس، والهيئة، والجبر والمقابلة، والموسيقى، والمساحة، وكان ماهرًا في العربية والتصريف، وكان له في التفسير، والحديث، وأسماء الرجال يدٌ جيدة، وكان يحفظ من التواريخ وأيام العرب ووقائعهم، والأشعار والمحاضرات شيئًا كثيرًا. وكان أهل الذمة يقرؤون عليه التوراة والإنجيل، ويشرح لهم هذين الكتابين، فيعترفون أنهم لا يجدون من يوضحهما لهم مثله.

وذكر أن ابن الصلاح – الفقيه الشافعي المعروف – سأله أن يقرأ عليه شيئًا من المنطق سرًّا، فأجابه إلى ذلك، وتردَّد إليه مُدَّة؛ فلم يُفتح عليه فيه بشيء، فقال له: يا فقيه، المصلحة عندي أن تترك الاشتغال بهذا الفن، فقال له: ولم ذاك يا مولانا؟! فقال: لأن الناس يعتقدون فيك الخير، وهم ينسبون كل من اشتغل بهذا الفن إلى فساد الاعتقاد، فكأنك تفسد عقائدهم فيك، ولا يحصل لك من هذا الفن شيء؛ فقبل إشارته وترك قراءته. ثم بعد ذلك نجد أن ابن الصلاح أفتى بحرمة الاشتغال بعلم المنطق، فما عدا مما بدا؟!

ويُذكر أنَّ ابن يونس – سامحه الله – بحسب تعبير ابن خلكان – كان يُتَّهم في دينه؛ بسبب غلبة العلوم العقلية عليه، حتى لقد قال العماد أبو علي عمر بن عبد النور في ذلك:

أجِدَّكَ أن قد جادَ بعد التعبُّسِ
غزالٌ بوصلٍ لي وأصبح مؤنسي(٣٤)
وعاطيته صهباءَ مِنْ فيه مزجها
كرقة شعري أو كدينِ ابن يونسِ(٣٥)

ولما قدم العلامة الأصولي المنطقي الزكي بن الحسن البيلقاني إلى عدن، وقد كان مبرِّزًا في الفقه والأصول والمنطق والمواريث والحساب؛ فقد كان قرأ على الإمام فخر الدين الرازي، وكان ممن درس على البيلقاني قاضي عدن محمد بن أسعد العنسي، درس عليه وجيز الغزالي، وعندما شرع البيلقاني تدريس الأصول والمنطق، أنكر عليه قاضي عدن ذلك؛ لأن الغالب على الفقهاء باليمن عدم الاشتغال بالمنطق خاصة، وقليلاً ما يشتغلون بالأصول، ولم يلبث أن تفاقم الشر بين الاثنين؛ فدسَّ القاضي من جهته من يحرج البيلقاني في مجلس الدرس، فكتب البيلقاني إلى السلطان المظفر يشكو قاضي عدن، فلما وصل كتابه ناوله المظفر القاضي بهاء الدين، وقال له: قف على هذا الكتاب. فلما وقف عليه، قال: يا مولانا هذا رجل جاء بشيء لا يحكمه أهل اليمن، ولا يعرفونه، ومتى سمعوه أنكروه، ونسبوا صاحبه إلى الخروج عن الدين (٣٦).

وذكر الجندي في (السلوك) أن العلاَّمتين المقدسي وابن البابه كانا يخوضان في علم الكلام؛ فأثارا سخط الفقهاء في تعز، وتمالأوا على قتلهما، ونسبا بذلك إلى الكفر والزندقة(٣٧).

وذكر المراكشي في (المعجب) عن علي بن يوسف بن تاشفين أنه: لم يكن يقرب منه، ويحظى عنده إلا من علمَ علم الفروع (فروع مذهب مالك)؛ فنفقت في ذلك الزمان كتب المذهب، وعمل بمقتضاها، ونبذ ما سواها، وكثر ذلك؛ حتى نسي النظر في كتاب الله، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتني بهما كل الاعتناء، ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام، وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام، وكراهة السلف له، وهجرهم من ظهر عليه شيء منه،

وأنه بدعة في الدين، وربما أدى أكثره إلى اختلال في العقائد؛ حتى استحكم في نفسه بغض علم الكلام وأهله، فكان يكتب عنه في كل وقت إلى البلاد بالتشديد في نبذ الخوض في شيء منه، وتوعد من وجد عنده شيء من كتبه، ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالي - رحمه الله - المغرب أمر أمير المسلمين بإحراقها، وتقدم بالوعيد الشديد من سفك الدم، واستئصال المال إلى من وجد عنده شيء منها(٣٨).

أما الفلسفة فقد كُفِّر أصحابها ابتداءً من الفارابي وابن سينا الذين كفرهم الغزالي في كتابه (المنقذ من الضلال)، مروراً بالكندي، وابن رشد الأندلسي الذي يقول فيه أحد الفقهاء:

لم تلزم الرشد يابن رشدٍ ... لما علا في الزمان جَدُّكْ

وكنت في الدين ذا رياءٍ ... ما هكذا كان فيه جَدُّكْ

لقد نظر الفقهاء وبعض المتكلمين للفلسفة بتعالٍ وازدراء، فنرى عالمًا متكلماً كبيراً كابن أبي الحديد يخاطب الفلاسفة فيقول:

فلتخسأ الحكماء عن ... حرم له الأفلاك سجَّدْ

من أنت يارسطو؟! ومن ... أفلاط قبلك يا مبلدْ؟!

ومن ابن سينا حين قر ... رمابنيتَ له وشيدْ؟!

هل أنتمُ إلا الفرا ... ش رأى الشهاب وقد توقدْ

فدنا وأحرق نفسه ... ولو اهتدى رشداً لأبعدْ(٣٩)

وعندما ترجم ابن خلكان لابن سينا نجده يتهمه أنه بعد معالجته للأمير نوح بن نصر صاحب خراسان، واطلاعه على مكتبته عديمة النظير، قام بحرقها، بعد أن حصل نخب فوائدها، واطلع على أكثر علومها؛ لينفرد بمعرفة ما حصله منها، وينسبها إلى نفسه(٤٠).

ويقول اليافعي: إنه طالع كتاب الشفاء، فلم يره إلا جديراً بقلب الفاء قافًا أي الشقاء -، وأنه رأى كثيره مشتملاً على فلسفة لا ينشرح لها صدر متدين. وذكر عن الشيخ شهاب الدين السهروردي - رحمه الله - أنه غسل كتابه الموسوم بالشفاء بإشارة قدسية نبوية! (٤١).

وينقل عن كمال الدين بن يونس أن ابن سينا مات في سجن مخدومه، وإنشاده عنه هذين البيتين(٤٢):

رأيت ابن سينا يعادي الرجالْ ... وفي السجن مات أخس الممات

فلم يشف ما نابه بالشفاء ... ولم ينج من موته بالنجاةْ

ومع أن من المفترض أن المصائب تجمع المصابين، ورغم أن ابن يونس رمي بقلة الدين؛ لاشتغاله بالعلوم العقلية، فإنَّه لم يسلم منه ابن سينا، ورحم الله ابن شهاب حين قال:

في البرايا وخلقهم أطوارا ... حكمةٌ تتركُ العقولَ حيارى(٤٣).

وفي ترجمة الإخوة محمد، وأحمد، والحسن أبناء موسى يذكر اليافعي أن لهم هماً عالية في تحصيل العلوم القديمة وكتب الأوائل، وأنهم أتعبوا أنفسهم في شأنها(٤٤).

ويذكر المؤرخون اليمنيون أنه لما قدم البيلقاني الأنصاري إلى عدن، وكان عالمًا متفنِّنًا، علم السلطان الملك المظفر بقدومه؛ فأمر بتجهيزه إلى حضرته، فلما حضر أراد السلطان أن يقرأ عليه شيئًا من المنطق، فاستشار ابن دعاس، فقال له: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: البلاء موكل بالمنطق؛ فتطير السلطان من قوله، وقال: لقد حلت بيننا وبين الانتفاع به يا شيطان(٤٥).

وفي أبيات للعلامة الشاعر أبي بكر بن قسوم ينصح أحد خلفاء الأندلس:

قد قلت قولاً للخليفة ناصحاً

قول المحقق والنصيح المشفقِ

لا تصحبنْ ما عشتَ قارئ منطقٍ

إن البلاء موكل بالمنطقِ(٤٦).

وذكر السبكي أن السلطان علي بن يوسف بن تاشفين خُيِّل إليه لما دخلت مصنفات الغزالي إلى المغرب أنها مشتملة على الفلسفة المحضة، وكان المذكور يكره هذه العلوم؛ فأمر بإحراق كتب الغزالي، وتوعَّد بالقتل من وجد عنده شيء منها(٤٧).

وقال في طبقاته: «وفي كتب المتقدمين جرح جماعة بالفلسفة

ظنًّا منهم أن علم الكلام فلسفة. إلى أمثال ذلك مما يطول عده. فقد قيل في أحمد بن صالح الذي نحن في ترجمته: إنه يتفلسف. والذي قال هذا لا يعرف الفلسفة، وكذلك قيل في أبي حاتم الرازي، وإنما كان رجلا متكلماً»(٤٨).

ويخطئ القاضي جعفر بن عبد السلام المطرفية الذين ذهبوا إلى أن المطر هو بخار مياه البحار تحمله الرياح إلى السماء، فتنزله السحاب على الأرض مطراً، ويذهب إلى أنه قول مخالف لصريح القرآن، ولما وردت به الأخبار عن النبي عليه وعلى آله الصلاة والسلام، ولما تقرَّر من مذهب الأئمة الكرام، ولما عليه أهل التحصيل من علماء الإسلام. ثم يختم هذا الاستنكار بقوله: «ولا شك أن من خالف ذلك كله؛ فقد خسر خسرانًا مبينًا!»(٤٩).

ويستشهد القاضي جعفر بآيات من القرآن، ويقول إن هناك بضعًا وعشرين آية تقول: إن المطر ينزل من السماء، وليس من السحاب، وأنه لا يجوز لمسلم مخالفة ذلك؛ لأنه عناد بصريح القرآن!(٥٠).

وليس في ظاهر الآيات، ولا قواعد اللغة ما يمنع من إطلاق السماء على السحاب مجازًا عقليًّا؛ لأن السحاب كائن في السماء، وهذا كقولك: ازدحمت طرقات المدينة، وإنما يزدحم الناس الذين فيها.

هذا إذا سلم له كلامه، وأنَّى له ذلك، وفي القرآن تصريح بإنزال المطر من السحب،

قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ* أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾. [الواقعة: ٦٨- ٦٩]. والمزن هو السحاب، واحدتها مزنة.

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ [الرعد: ١٢]؛ أي الثقال بالمطر.

وقال تعالى: ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾، وهي السحاب تحمل المطر. قال البغوي في تفسير هذه الآية: "يعني السحاب تحمل ثقلاً من الماء"(٥١).

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾. [الروم: ٤٨].

وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾. [النور: ٤٣].

قال البغوي في تفسيره: (ألم تر أن الله يزجي)؛ يعني: يسوق بأمره، (سحابًا) إلى حيث يريد، (ثم يؤلف بينه)؛ أي: بجمع بين قطع السحاب المتفرقة بعضها إلى بعض، (ثم يجعله ركامًا)؛ متراكماً بعضه فوق بعض، (فترى الودق)؛ يعني المطر، (يخرج من خلاله)؛ وسطه، وهو جمع الخلل، كالجبال جمع الجبل(٥٢).

لقد جعل القاضي جعفر القرآن، والنبي عليه الصلاة والسلام، والأئمة الكرام في جهة مضادة يضرب بها وجه الحقائق التي أثبتها وأكدها العلم، وأخبر بها القرآن.

أما الشوكاني في كتابه (أدب الطلب)، فيتحسر أنه لم يتمكن من إنفاذ أحكامه بإراقة دماء من اختلف معهم، فحكم بكفرهم وزندقتهم، ويتأسف على عدم اعتياد اليمن على سفك دماء من يصفهم بالمتزندقين كما كان شائعاً في البلاد الشامية والرومية والمصرية والمغربية(٥٣). ولا شك في أن رد فعل الشوكاني تجاه من تعصبوا ضده كان له الأثر الكبير في تكوين هذه الرؤية الحادة والمتشددة.

وإذا كان الشوكاني معذوراً في الأولى، فما عذره في الثانية؟!؛ إذ إنه يرى أن العلم لا يصلح في مَنْ يصفهم بـ«سقط المتاع، وسفاسف أهل المهن، كأهل الحياكة، والعصارة، والقصابة، ونحو ذلك من المهن الدنية والحرف الوضيعة» بحسب تعبيره(٥٤)، ويشبه تعليم أبناء هذه الفئات الاجتماعية من أصحاب الحرف والمهن التقليدية بتقليد الخنزير الجوهر(٥٥).

وهنا يستشهد الشوكاني بحديث ينسب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، لتعلم كيف أثَّرَ النقل على العقل، ووجه مساره في كافة شئون الحياة.

ويذكر الجندي عن الفقيه أبو بكر ابن الإمام جعفر بن عبد الرحيم المحابي أنه متى وصله طالب سأله عن حسبه ونسبه؛ فإن وجده ذا أصل لائق أقرأه وأمره بالاجتهاد، وإن لم يكن ذا أصل صرفه عن الطلب ولم يقرئه (٥٦)، وهذا بخلاف ما يروى عن العلامة زيد بن عبد الله اليفاعي الذي كان يقرئ كل من أراد القراءة، ولا يسأل عن نسبه وحسبه ومنصبه(٥٧).

أما الفقيه طاوس بن كيسان اليماني، فكان لا يأكل من ذبيحة الزنجي، ويقول: إنه عبد مشوَّه الخلقة، وكذلك كان الملك العباسي الراضي بالله ابن المقتدر بالله لا يتناول شيئًا من أسود، ويقول: إنه عبد مشوَّه الخلقة(٥٨). فتأمل توافق الفقيه، والسلطان في هذه الأهواء.

أما التعصب ضد الأقليات الدينية، فيذكر الخزرجي في (العقود اللؤلؤية) أن الفقيه أبا عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد الماربي بعد خروجه من صلاة الجمعة بذي جبلة صادف في طريقه رجلاً راكبًا بغلة حسنة، ومعه عدَّة غلمان؛ فظنه وزيرًا أو قاضيًا أو بعض الكبراء من غلمان الدولة. فسأل الفقيه عن صاحب البغلة حين قابله، فقيل له: هذا طبيب يهودي يخدم السلطان في هذه الوظيفة؛ فانقضَّ عليه الفقيه، واجتذبه من البغلة التي هو عليها، وألقاه على الأرض، وخلع نعله، وضربه ضربًا موجعًا شديدًا، وجعل يقول: يا عدو الله وعدو رسوله لقد تعدَّيتَ طورَك، وخرجتَ عن واجب الشرع؛ فينبغي إهانتك، ثم تركه وقد بلغ منه مبلغًا؛ فقام اليهودي ورجع إلى باب السلطان، وهو يستغيث، فقيل له: من خصمك؟ فقال: الفقيه محمد الماربي، فأرسل السلطان نور الدين عمر بن علي بن رسول رسولاً يسأله عن القصة، فلما جاء الرسول، قال له الفقيه: سلم على مولانا السلطان، وعرفه أنه لا يحل له أن يترك اليهود يركبون البغال بالسروج، ولا يحل لهم أن يترأسوا على المسلمين، ومتى فعلوا هذا؛ فقد خرجوا عن ذمة الإسلام. فرجع الرسول بالجواب إلى السلطان؛ فلما سمع السلطان ذلك قال لليهودي: تقدم مع الرسول إلى الفقيه؛ ليعرفك ما يجب عليك من الشرع فتفعله، ثم قال للرسول: قل للفقيه: يسلم عليك السلطان، ويجب أن تعرف هذا اليهودي ما يجب عليه في الشرع، ومتى جاوزه؛ فقد برئ من الذمَّة. فقال له الفقيه: يجب عليك كذا وكذا، ولا تفعل إلا ما هو كذا وكذا، ومتى تعديت وجب عليك النكال، وحل دمك؛ فانصرف اليهودي، ورجع الرسول إلى السلطان، فأخبره بما كان من الأمر، فقال له: إياك أن تتعدى ما أمرك به الفقيه؛ فتقتل، ولا ينفعك أحد؛ فإن هذا حكم الله، وشرع رسول الله صلى الله عليه وسلم(٥٩).

أما القاضي أحمد بن صالح بن أبي الرجال، فله مؤلف بعنوان (النصوص الزاهرة في إخراج اليهود الفاجرة)(٦٠)، وللشوكاني رسالة بعنوان (حل الإشكال في إجبار اليهود على التقاط الأزبال) (٦١).

ولا ندري، أي دين يقبل بمثل هذه القسوة، والأفعال المشينة التي يندى لها جبين الإنسانية، ويخجل منها أهل الفطر السليمة، والعقول المستقيمة؟!

لقد ذكر العلامة ابن خلدون في مقدمته: أن العلماء – من بين البشر – أبعد عن السياسة ومذاهبها، لكن يبدو أن عدداً غير قليل منهم بعيدون أيضاً عن أشياء كثيرة – عن حقيقة الدين، والإنسانية، بل عن الحياة بأسرها.

الهوامش:

١) شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي: ٤/ ١٣٩.

٢) مرآة الجنان وعبرة اليقظان، لليافعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة: ٣/ ٢٦٨.

٣) القنادل والقناديل بمعنى واحد، وصب الزيت فيها كناية عن الرشوة.

٤) ابن القاسم، وأشهب، وأصبغ من أعلام الفقه المالكي.

٥) المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين، لعبد الواحد المراكشي: ١/ ١٧١، تحقيق: محمد سعيد العريان، ومحمد العربي العلمي، ط١، مطبعة الاستقامة القاهرة، ١٣٦٨هـ.

٦) طبقات فقهاء اليمن، لعمر بن علي بن سمرة الجعدي، تحقيق فؤاد سيد، ص١٧٩.

٧) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، لابن حجر العسقلاني: ٣/ ٧٤.

٨) الرد على ابن عقيل الحنبلي، لابن قدامة المقدسي، ص١٧؛ والأعلام، لخير الدين الزركلي: ٤/ ٣١٣.

٩) تيارات معتزلة اليمن في القرن السادس الهجري، د. علي محمد زيد، ص١٨٨.

١٠) تاريخ اليمن الفكري في العصر العباسي، لأحمد بن محمد الشامي: ٣/ ١٤٤. لكن المؤرخ المطهر الجرموزي في سيرة المتوكل على الله: ١/ ٢٨٤: يقول أن السبية من المحالب، وهي أم ولده الحسن. ولعلها حادثتان مختلفتان؛ فقد كان للرجل غزوات كثيرة ليس غزوتا المحالب والمهجم إلا بعضًا منها.

١١) ٣/ ١٨.

١٢) بلابل التغريد فيما أفدناه أيام التجريد، لابن عبيد الله السقاف: جزء أول، ورقة١٤٤.

١٣) حياة الحيوان الكبرى، لكمال الدين الدميري: ٢/ ١٤٣- ١٤٤.

١٤) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية: ٢٥/ ٩٢.

١٥) أخرج الحاكم في المستدرك: ٢/ ٤٣٠،

١٦) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية: ٢٥/ ١٧١.

١٧) المسند، لأحمد بن حنبل: ٢/ ٣٦٧.

١٨) مجموع فتاوى ابن تيمية (مصدر سبق ذكره): ٣٢/ ٢٢٠.

١٩) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة: ١/ ٢٢.

٢٠) تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن، لحسين بن عبد الرحمن الأهدل، تحقيق عبد الله محمد الحبشي: ١/ ١١٣.

٢١) تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي: ١٣/ ٤١٤.

٢٢) العقد الفريد، لابن عبد ربه: ٣/ ٣٧٧.

٢٣) انظر على سبيل المثال أطروحة دكتوراه بعنوان الشعوبية والأدب: أبعاد ومضمونات، د. خليل جفال، دار النضال، بيروت، ط١، ١٩٨٦، ص٤٠٩.

٢٤) تاريخ بغداد: ١٣/ ٤١٣.

٢٥) نيل الوطر، لزبارة: ٢/ ٣١٨- ٣٢٠.

٢٦) كان الحسن بن خالد وزيراً للشريف حمود بن محمد، وكان الشريف حمود لا يصدر ولا يورد إلا برأيه. وقد آل أمره إلى القتل برصاص الأتراك بعد مواجهات معهم في السراة في العام ١٢٣٤هـ. لقد جمع الحسن بن خالد في يديه السلطتين: الدينية؛ فهو فقيه ومحدث، والسياسية؛ وهي الوزارة.

٢٧) السلوك في طبقات العلماء والملوك، لبهاء الدين الجندي، تحقيق محمد بن علي الأكوع: ١/ ٤٦٦.

٢٨) جامع البيان في تفسير القرآن، لمحمد بن جرير الطبري: ١/ ١٢٨.

٢٩) المصدر السابق: ٤/ ٢٤٥.

٣٠) المصدر السابق: ٤/ ٢٤٥.

٣١) طبقات الشافعية، لأبي بكر بن أحمد ابن قاضي شهبة، تحقيق د. الحافظ عبد الحليم خان: ٢/ ١٥٤.

٣٢) نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، للقاضي أبي علي المحسن بن علي التنوخي، تحقيق عبود الشالجي: ٣/ ١٠.

٣٣) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة: ١/ ٢٢.

٣٤) أجِدَّكَ وأجَدَّكَ معناهما ما لَكَ؟ أجِدّاً منك؟! ونصبهما على المصدر. قال الجوهري معناهما واحد، ولا يُتكلم به إلا مضافاً. وقال الأصمعي: أجِدَّكَ: معناه أبجِدّ هذا منك. انظر: لسان العرب، لابن منظور: ٣/ ١١٣.

٣٥) وفيات الأعيان، لشمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت: ٥/ ٣١١.

٣٦) السلوك في طبقات العلماء والملوك، لبهاء الدين الجندي، تحقيق محمد بن علي الأكوع: ٤٣٢/ ٢.

٣٧) المصدر السابق: ٢/ ١١٢.

٣٨) المعجب (مصدر سبق ذكره)، لعبد الواحد المراكشي: ١/ ١٧٢.

٣٩) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان: ٣/ ١٩٧.

٤٠) وفيات الأعيان: ٢/ ١٥٨.

٤١) مرآة الجنان (مصدر سبق ذكره): ٣/ ٥١.

٤٢) المصدر السابق: ٣/ ٥٠؛ ووفيات الأعيان: ٢/ ١٥٨.

٤٣) مطلع قصيدة رائعة للعلامة ابن شهاب رحمه الله.

٤٤) مرآة الجنان: ٢/ ١٧٠.

٤٥) العسجد المسبوك فيمن ولي من الملوك، للخزرجي، تحقيق د. مقبل التام، ص٤٦٥.

٤٦) تاريخ الأدب العربي، لعمر فروخ: ٥/ ٧٢٤.

٤٧) طبقات الشافعية: ٦/ ٢١٦.

٤٨) المصدر السابق: ٢/ ٢٤.

٤٩) مقاود الإنصاف في مسائل الخلاف، تحقيق إمام حنفي عبد الله، دار الآفاق العربية، ص٥٣- ٥٤.

٥٠) المصدر السابق، ص٥٣.

٥١) معالم التنزيل، (مصدر سبق ذكره)، ٧/ ٣٨٨.

٥٢) معالم التنزيل، لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م٦/ ٥٣.

٥٣) أدب الطلب، لمحمد بن علي الشوكاني، تحقيق عبد الله السريحي، ص١٧٠- ١٧١.

٥٤) أدب الطلب، ص١٧٣- ١٧٤.

٥٥) المصدر السابق، نفس الصفحة.

٥٦) السلوك في طبقات العلماء والملوك، للجندي (مصدر سبق ذكره)، تحقيق محمد بن علي الأكوع: ١/ ٢٨٢- ٢٨٣.

٥٧) طبقات فقهاء اليمن (مصدر سبق ذكره)، ص١٢٠.

٥٨) مروج الذهب ومعادن الجوهر، للمسعودي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد: ١/ ٦٢.

٥٩) العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، للخزرجي، عنى بتصحيحه وتنقيحه الشيخ محمد بسيوني عسل: ١/ ٦٦-٦٧.

٦٠) مصادر الفكر الإسلامي في اليمن، لعبد الله الحبشي: ٢/ ٦٨٤.

٦١) المصدر السابق: ٢/ ٨٨٤. هذا وقد رد بعض العلماء على هاتين الرسالتين في حينه.

65
العدد (23)
يناير
مارس
2022م



المؤلفات الحضرميَّة في علم الطب والنبات (كالببليوجرافيا)



عادل حاج باعكيم

يُعدُّ علم النبات والطب النباتي - الأصيل وليس البديل - من أهم العلوم للإنسان؛ وذلك لقربه منه، فلا غنى عنه لكبير ولا صغير ولا غني ولا فقير، فجميع البشر في حاجة دائمة للتطبيب بالأعشاب، وتناول بعضها غذاءً له.

عَرَفتْ حضرموت منذ القِدَم عدداً لا يمكننا حصره من الأطباء؛ وذلك لندرة المصادر وفقدها، وعدم الاهتمام بالتدوين والتوثيق، ومن خلال المتابعة فيما بين أيدينا من مؤلفات الحضارمة الطبيَّة وغيرها استطعنا أن نتعرَّف على بعضها، وسنتحدَّث في هذه العجالة عن هؤلاء الأعلام ومؤلفاتهم ومؤلفات من لم يكن طبيباً، وسنجعل اسم الكتاب مدخلاً لمعرفة المؤلِّف وبعض دقائق المؤلَّف.

هذه المؤلفات تنقسم إلى قديمة وحديثة، فأمَّا القديمة فمن سماتها في الغالب أنها نتاج تجارب شخصيَّة لطبيب ما، أو اختصار لكتاب طبِّي سابق، مع إضافة بعض الشوارد والفوائد. وأمَّا الحديثة فهي أقرب إلى المنهجيَّة، فغالب مؤلفيها ليسوا أطبَّاء وإنما باحثون أحبوا علم الطب والنبات، أو كان تخصصهم الجامعي قريباً من ذلك، لهذا فمؤلفاتهم وأبحاثهم تحتاج إلى تدقيق وتأكُّد من المعلومات الواردة فيها قبل استعمالها وتطبيق ما فيها على المرضى، وسبيل التأكُّد - في نظرنا - هو الشُّهرة المجتمعيَّة وعادة الناس وتجاربهم؛ وذلك لأن المؤلف الحديث لم يجُرِّب ما جمع في كتابه أو بحثه من علاجات وإن سمع أنها مجرَّبة، فالطبيب غارم كما يقول الشَّارع الشريف.

من خلال البحث الطويل في بطون الكتب وخزائن المخطوطات - كما أشرنا آنفًا - استطعنا أن نفرز عدداً ممن له جهد مبذول في مجال تدوين العلوم الطبيَّة والنباتيَّة والطبيعيَّة بحضرموت، ومؤلفاتهم وهي:

الكتاب الأول: المنوال في تفسير ما أشكل من العلل والأدوية والأبدال، تأليف الشيخ سعد بن محمد بافضل، من أعيان القرن السابع الهجري، توجد المخطوطة في مركز النور للدراسات بتريم، تحمل عنوان: مجموع فوائد

أسماء العلل والأدوية للشيخ: سعد ابن الفقيه محمد بن أحمد بن محمد بافضل، عدد الصفحات: ١٣ صفحة، عدد الأسطر في الصفحة الواحدة: ٢١ سطرًا، عدد الكلمات في السطر الواحدة ١٠ كلمات، نسخت في شوال ١٣٣١ هـ، بقلم أحمد بن عثمان باوزير، عفا الله عنه، نقلت عن نسخة جده عبدالرحمن بن أحمد باوزير، بطلب من والده، وكان الفراغ من تحريرها ٢٧ شوال ١٣٥٨ هـ.

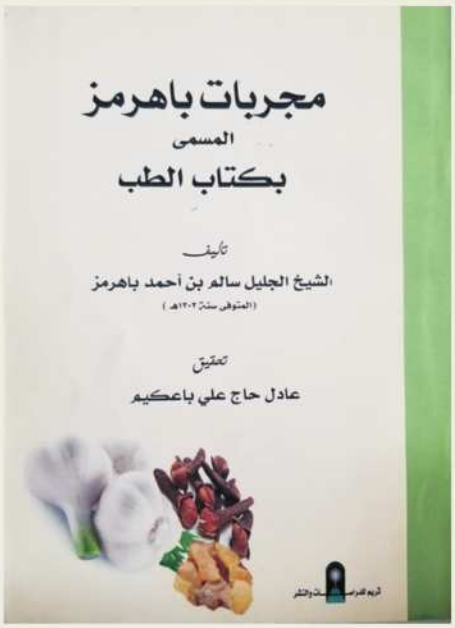
الكتاب الثاني: الكافية في علم الطب وشرحها، النظم والشرح تأليف العلامة محمد بن عمر بحرق المتوفى سنة ٩٣٠هـ، حققه د. أحمد صالح رابضة باسم: رسالة في الطب، وصدر عن دار جامعة عدن، كما قام الأستاذ أنور حسن السكوتي بتحقيقها تحقيقًا جيدًا لكن لم ينشر حتى الآن، وقد فرغ المصنِّف من نظمها وشرحها والتعليق عليها سنة ٩١٠هـ، وتوجد عدد من النسخ الخطية منها بمكتبة الأحقاف للمخطوطات بتريم إحداها برقم (٢٨٠٣)، وللعلامة بحرق مؤلَّف آخر جعل فيه جزءًا خاصًا بالطب هو كتاب: حلية البنات والبنين وزينة الدنيا والدين، وهو مطبوع قديماً، وأفرد السيد محمد بن عمر الحداد رسالة باسم: فوائد في الطب من حلية البنات والبنين، احتوت على عشرة فصول على شكل فوائد منقولة من كتاب حلية البنات والبنين، بالإضافة إلى فوائد من كتاب حياة الحيوان، وعلاجات عدة وفوائد أخرى تم جمعها ببلد شبام، ٢٠ ربيع الآخر سنة ١٣٠٠هـ، المخطوط بمكتبة الأحقاف، برقم: (٢٤٦٧).

الكتاب الثالث: الزلال الصافي والدواء الشافي، تأليف الشيخ عبدالرحمن بن أحمد باكثير، من أعلام القرن الحادي عشر للهجرة، الأصل في مكتبة الأحقاف للمخطوطات بتريم، برقم (٢٥٨٣)، حققه عادل حاج باعكيم، ولم ينشر بعد، احتوت المخطوطة على مقدمة وثمانية وثمانين بابًا، وأحد عشر فصلاً، وسبع فوائد، وتنبيهات علاجية وخاتمة، كتبت بخط نسخي معتاد سنة ١٢٥٧ هـ، خطها: محمد بن أحمد بن سالم بن عبده باعيسى، وكتبت عناوينها باللون الأحمر.

الكتاب الرابع: تذكرة وأدوية، تأليف العلامة علي بن حسن العطاس، من علماء القرن الثالث عشر الهجري، نشره أحد أحفاده، وله كتاب آخر باسم: الرياض المؤنقة بالألفاظ المتفرقة في المعاني المتطرفة والوقائع المتفرقة، يحتوي على طب الأمراض العضوية والنفسية وطب القلوب والأرواح، رقم المخطوطة بمكتبة الأحقاف للمخطوطات بتريم (٢٤٩٢)، عدد الأوراق: ٨٦، عدد الأسطر في الصفحة: ١٧، عدد الكلمات في السطر الواحد: ٩، مقاس ٢١×١٥×١ سم، نوع الخط نسخي، والورق مستديم، وقد نُشرِت مصفوفة من قِبَل بعض أحفاده.

الكتاب الخامس: الالتقاط النافع من تسهيل المنافع، تأليف شيخ الفقيه عمر بن عبدالرحيم بارجاء (الخطيب)، احتوت المخطوطة على عشرة أبواب، وأحد عشر فصلاً لكثير من العلاجات، وتسع فوائد من كتاب الرحمة. رقم المخطوطة بمكتبة الأحقاف للمخطوطات بتريم: (٢٥٨٣) مجاميع آل بن يحيى، عدد الكلمات في السطر الواحد: سبع، عدد الأسطر في الصفحة الواحدة: تسعة عشر سطرًا، عدد الأوراق إحدى وسبعون، ضمن مجموعة، الكتاب الثالث، نسخت بخط نسخي جميل، وكتبت بعض كلماتها بالحمرة، اسم الناسخ: محمد بن أحمد بن سالم باعيسى، تاريخ النسخ: ١٢٥٧ هـ.

الكتاب السادس: كتاب الطب المسمَّى مجربات باهرمز، تأليف الشيخ سالم بن أحمد باهرمز، المتوفى بالشحر سنة ١٣٠٣ هـ، حققه عادل حاج باعكيم، عن نسخ خطيَّة عدَّة، أولها من مكتبة الشيخ سالم خميس حبليل بالشحر،



ونسختان بالمكتبة الخاصة للمحقق، نشر عن دار تريم للدراسات والنشر (المكتبة الحضرميَّة)، ٢٠١٦م.

الكتاب السابع: الوصفات الشعبية أو الطب الشعبي، تأليف الشيخ القاضي سالم بن مبارك الكلالي، المتوفى سنة ١٣٦٢هـ، اطلع عليه الأستاذ عمر علي باسلمة، في مكتبة الشيخ حميد بمنطقة شحير أواخر تسعينيات القرن العشرين المنصرم، وهو بخط تلميذ المؤلف الشيخ عبدالله بن أحمد اليزيدي رحمه الله تعالى.

الكتاب الثامن: النباتات والحبوب المتداولة في أدوية الطب اليوناني ومقابلها في الدارجة الحضرمية، تأليف الأديب المؤرخ محمد بن هاشم بن طاهر العلوي، المتوفى سنة ١٣٨٠هـ، احتوت المخطوطة على عدد كبير من أسماء الأدوية والأعشاب باللهجة الحضرمية وما يقابلها من الطب اليوناني، وقد بدأها المؤلف متسلسلة بحرف الألف وانتهى بحرف الياء، يوجد الأصل بمكتبة الأحقاف للمخطوطات برقم (٤ طب)، نسخها بيده الشيخ عبدالله بن حسين رحيّم توفي سنة ١٤٠٠هـ، عدد الأوراق سبع عشرة ورقة، في كل ورقة: ثمانية عشر سطراً، والخط رديء صعب القراءة.

الكتاب التاسع: العلاج الميسور لمن فقد الدكتور، تأليف الشيخ عمر بن سعيد بادبّاه، المتوفى ٢٩ ربيع الآخر ١٤٠٨هـ، المخطوط يوجد لدى أحفاده بمنطقة الصداع بغيل باوزير، المخطوطة كتبت بخط المؤلف نفسه، عدد الصفحات ثلاثمائة صفحة، عدد الكلمات في السطر الواحد: ست كلمات، عدد الأسطر في الصفحة الواحدة: أربعة عشر سطراً، الورق: دفتر صغير أصفر اللون مسطَّر.

الكتاب العاشر: تجارب شخصيَّة للعلاج بالعقاقير الحضرميَّة، تأليف السيد عبدالقادر بن حسن بن أحمد الحبشي (الروشن)، المتوفى ٢٩ ربيع الآخر ١٤٠٨هـ، وصف المؤلف في كتابه هذا الأمراض بدقة، ثم علاج كل مرض باستخدام الأعشاب والأدوية الشعبيَّة المعروفة المتوفرة بحضرموت، عدد صفحات المخطوطة مائتان وثلاثة صفحات، الكتاب بخط المؤلف، عدد الكلمات في السطر الواحد: سبع، عدد الأسطر في الصفحة الواحدة: خمسة عشر سطراً، المخطوطة محفوظة بمكتبة ابنه السيد هاشم بن عبدالقادر الحبشي بسيئون.

الكتاب الحادي عشر: الكنز الدفين في الماء والطين، تأليف السلطان علي بن صلاح القعيطي، يتحدث الكتاب عن علم الزراعة، فقد ألفه السلطان علي لتثقيف المزارعين بحضرموت؛ إذْ قال: السبب في كتابته هو جهل المزارعين بالعناية بمزارعهم، وفي الغالب لا ينمو الزرع النمو الكافي مع تربة البلاد الخصبة وطقسها وجودة مناخها، وقد بدأ في تأليفه عام ١٩٣٥م، وهو مطبوع.

وهناك مؤلفات حضرميَّة حديثة في علم الطب الأصيل والنباتات وما يتعلق بها غير ما ذكر سابقًا، نذكر منها:

١- دراسات الطب الشعبي القديم (الطب الشعبي والوصفات الشعبية بالمحافظة الخامسة) السلبيات والإيجابيات، للأستاذ سعيد عوض بايمين، طبع

بالإستنسل في سبعينيات القرن العشرين، واعتمد فيه على مخطوطة الشيخ سالم بن أحمد باهرمز السابق الذكر.

٢- **دليل زراعة الفاكهة بوادي حضرموت، للأستاذ أحمد محمد البار**، صدر عن مكتبة تريم الحديثة، الطبعة الأولى عام ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

٣- **النخيل (فوائده - أسراره - زراعته)، الحبيب محمد بن علوي العيدروس (سعد)**، صدر عن دار العلم والدعوة بتريم حضرموت، الطبعة الأولى عام ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م. وله أيضًا: علاج النسيان، طبعت الطبعة الثالثة منه بصنعاء عام ٢٠٠٨م. وله أيضًا: الأدوية في الغذاء، بدون دار طبع، الطبعة الأولى عام ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

٤- **الطب الشعبي، للراوي والشاعر محمد بن أحمد بن هاوي باوزير (أبو سراجين)**، يوجد الأصل بخط المؤلف لدى ابنه الأستاذ سعيد بمدينة غيل باوزير.

٥- **النباتات الطبيَّة في اليمن، للأستاذ علي سالم باذيب**، يقع في مائتين وثلاثة صفحات، الطبعة الثالثة، مكتبة الإرشاد بصنعاء، ٢٠٠٢م.

٦- **الأعشاب والنباتات بمرتفعات الهضبة الجنوبية بالصور، للأستاذ سالم محمد بجود باراس**، سيطبع قريبًا عن دار الوفاق للنشر والتوزيع - الرياض. وله أيضًا: السراج الوهَّاج في معرفة العلاج، وهو مطبوع.



٧- **شفاء الأجسام بقدرة الملك العلام، للشيخ صالح عبدالعزيز الجمحي**، طبع محليًا بمدينة الشحر ٢٠٠٨م، وهو صغير الحجم.

٨- **الأعشاب النافعة في حضرموت، للأستاذ غازي رشاد الكثيري**، طبع بمركز عبادي للدراسات والنشر صنعاء، الطبعة الأولى عام ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

٩- **مسح أهم نباتات أنواع المراعي لنحل العسل بوادي دوعن، للأساتذة أحمد سالم باطاهر، حسين عبدالله الكثيري، محمد سعيد خنبش**، قدِّم في الندوة الدولية المشتركة تحت شعار التكامل السعودي اليمني للاستغلال الأمثل للثروة النحلية في البلدين في الفترة من ٨-٩ مايو ٢٠١٠م، بمناسبة تريم عاصمة الثقافة الإسلامية لعام ٢٠١٠م.

١٠- **الطب الشعبي في حضرموت، للأستاذ عوض بامطرف**، ورقة بحثيَّة قدَّمها المؤلف في ندوة الموروث الشعبي بحضرموت.

١١- **دراسة مسحيَّة للنباتات الطبيَّة في بعض مناطق ساحل حضرموت وأهم استخداماتها، محمد سعيد بن قديم**، رسالة ماجستير، بكلية العلوم جامعة حضرموت، تقع في مائة وواحد وثلاثين صفحات، ٢٠١٤م.

١٢- **البيئة والنبات الطبيعي في حضرموت، للأستاذين عبدالناصر عبدالله الجفري وسعيد عبده جبلي**، بحث مقدَّم إلى الندوة العلمية المعنونة بـ: التركيب الجغرافي والأهمية الاقتصادية لمحافظة حضرموت، المكلا-مارس ١٩٨٧م.

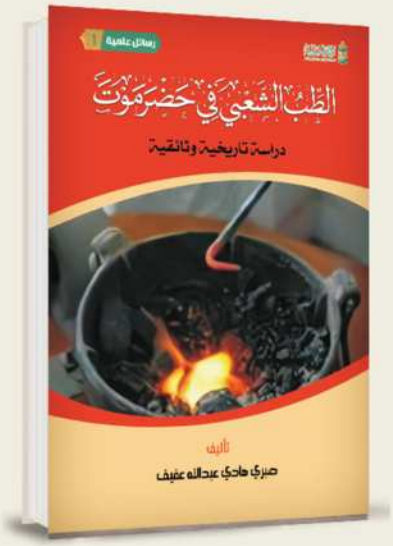
١٣- **الطب الشعبي في حضرموت، للدكتور عبدالعزيز جعفر بن عقيل**، يقع في ٢٠ صفحة، نُشر ملحقًا بصحيفة شبام الثقافي العدد (١٧) إبريل ٢٠٠٣م.

69
العدد (23)
يناير
مارس
2022م

١٤- **النباتات الطبية في فلورا وادي دوعن ووادي العين - حضرموت - اليمن وأهم استخداماتها الشعبية، محمد سعيد بن قديم**، رسالة دكتوراه بكلية الدراسات العليا جامعة النيلين جمهورية السودان، تقع في مائتين وخمس صفحة، ٢٠١٨م.

١٥- **النباتات الطبيَّة في اليمن الديمقراطية، للأستاذ أحمد أبوبكر الشاطري**، بحث مقدَّم لأسبوع الطالب الجامعي السابع، كلية ناصر للعلوم الزراعية، جامعة عدن، يوجد بمكتبة الأحقاف للمخطوطات بتريم برقم (٢٠١).

١٦- **الطب الشعبي في حضرموت دراسة تاريخية وثائقية، للأستاذ صبري هادي عفيف**، أصل هذه الدراسة رسالة



ماجستير بكلية الآداب جامعة حضرموت، تقع في ثلاثمائة وأربع وستين صفحة، صدرت عن مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر المكلا، ٢٠٢٠م.

١٧- **الفوائد الطبيَّة المنتقاة من الكتب العربيَّة، تأليف عادل حاج باعكيم**، قدَّم له عدد من العلماء والأدباء، يقع في مقدمة وثلاثة أبواب، الباب الأول: في خصائص النبات، والباب الثاني: في خصائص الكائنات، والباب



الثالث: في ذكر بعض الأمراض وعلاجها، صدر عن دار الأسعاء للدراسات والنشر، ٢٠٢٠م.

١٨- **الطب العربي بحضرموت، للأستاذ عبدالقادر محمد الصبان**، ورد ضمن مسرد مؤلفاته في كتابه تعريفات تاريخية عن وادي حضرموت برقم (٩٧)، وهو موجود لدى ابنه محمد في مدينة سيئون، وقد حاولنا مرارًا الوقوف عليه لكن بلا فائدة.

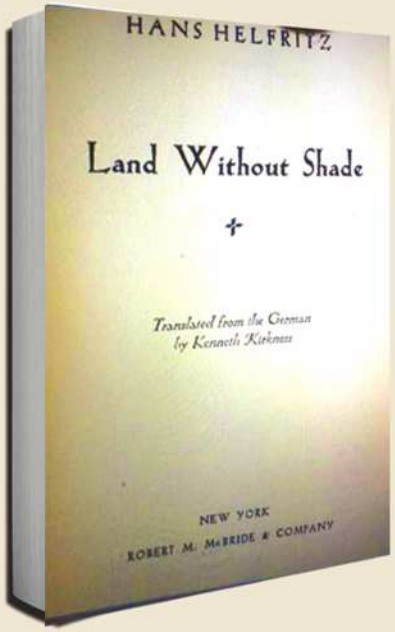
١٩- **صحتك في طعامك، الجزء الأول، كتاب خاص بالطب البديل، جمع وإعداد الدكتور عبدالباسط سعيد الغرابي**، الكتاب احتوى على ثلاثة فصول، الأول: المصادر النباتيَّة، والثاني: المصادر الحيوانيَّة، والثالث: مصادر متنوعة، ويقع في مائة وإحدى وخمسين صفحة، وهو من إصدار قروب مبدعون ومزارعون، ٢٠٢٠م.

٢٠- **أطلس نباتات حضرموت، للدكتور محمد سعيد بن قديم والدكتور مراد محمد كانجي وعادل حاج باعكيم**، وهو كتاب معجمي مصوَّر، ضمَّ بين دفَّتيه أكثر من مائة نبات، وهو يقع في مائة وثمانين صفحة، سيصدر قريبًا عن دار الأسعاء للدراسات والنشر.

هذا ما تيسرَّ لنا ذكره هنا من المؤلفات والمؤلفين الحضارمة الذين كان لهم إسهام في تدوين هذا العلم النافع، والحمد لله رب العالمين.

70
العدد (23)
يناير
مارس
2022م

أرضٌ بِلا ظِلال



هانس هيلفريتس (Hans Hilfritz)

ترجمها من اللغة الألمانية إلى اللغة الإنجليزية
كينث كيركننز (Kenneth kirkness)

نيويورك

روبرت م. ماكبرايد

أرض بلا ظل
حقوق النشر هانز هيلفرتز ١٩٣٦م
طبع في الولايات المتحدة الأمريكية
النسخة الأولى

(٣ - ٤)

النسخة الألمانية لهذا الكتاب
نشرت في مدينة ليبزج (liepzig) في كتابين
الأول بعنوان (شيكاغو الصحراء)
والثاني بعنوان (أرض بلا ظلال)



ترجمة: د. خالد عوض بن مخاشن

الفصل الرابع

طريق قوافل عتيقة عمرها ألف عام

توجد في الشحر ثلاثة قصور، اثنان منهما لأسرة الكاف، والثالث وهو الذي نزلنا فيه، يعود لحاكم الشحر إنه قصر السلطان علي، وهو عبارة عن بناية طينية قديمة متناسقة غير أن أجزاءها تختلف من حيث الحجم، وفتحات نوافذها غير منتظمة. توجد أمام القصر مدافع عدَّة، محمَّلة على عربات، ويسكن الحراس – وهم خليط من العبيد السود وبعض أبناء القبائل البدوية المدجَّجين بالجنابي والسكاكين وبنادق المشاة – في رواق كبير عند مدخل ذلك القصر. رافقنا جزء كبير من هؤلاء المحاربين منذ اجتيازنا البوَّابة الأمامية وعبر السلالم الطينية الضيقة حتى أوصلونا إلى الشقق التي خُصِّصت لنا، وسرعان ما رفعوا الكلفة في التعامل، وأصبحوا على دراية تامة بما يدور في هذه الغرف، فلم يفارقونا ولو مرة واحدة خلال فترة وجودنا في الشحر.

عقب وصولنا مباشرة ولكي يخلق انطباع بالاعتياد على العيش الرغيد وحياة الترف، أرسل محمد في طلب خادمه الشخصي سيد.

الشيء الوحيد الذي رأيته يقوم به، ويواليته لم يقم بـه، هو أخذه الأرجوحة الشبكية لصديقي، وقيامه بتثبيتها بين عتبة النافذة وإحدى العوارض الخشبية. فما أن استلقى صديقي بومورسكي على تلك الأرجوحة لينام، حتى وقع على الأرض مُحدثًا صوت ارتطام كبير، لقد تحملت العارضة الثقل ولكن عتبة النافذة لم تتحمل لتتحطم وتهوي خارج المبنى مسببة خطرًا شديدًا لأي شخص قد يكون ماشيًا حينها تحت ذلك المبنى. أما أنا فنمت على سريري السفري، وعلى أي حال في المشرق لا يهتم أحد بسقوط منزل أو اندلاع حريق، فتراهم يرددون عباراتٍ، مثل: (لا عليك، لا تهتم سنعيد بناءه إن شاء الله).

أتى سيد وبدا بينه وبين محمد الجدال اليومي حول إحضار وجبات الطعام لنا من مطبخ السلطان. سيد عبد زنجباري يبلغ من العمر ستَّ عشرة سنة، وهو بالطبع ممتعظ من تحميله الأعمال كلها دون غيره، ولكنه بارع في الاحتفاظ بمصالحه، والدفع بمحمد إلى المنافسة وإظهار كل ما لديه من مواهب.

يبدو أن محمدًا لم يكن محظوظًا هذه المرة بما فيه الكفاية، ربما لأصابته بأحد الأرواح الشريرة. صحيح إن السلطان قد سمح له بمرافقتنا إلى الشحر ليقدِّم لنا المساعدة في أثناء بقائنا هناك، غير أنه لم يسمح له بالسفر معنا إلى المناطق الداخلية، لابد وأن الجن هم من حال بينه وبين موافقة السلطان على ذلك، لذلك عقدنا صفقة مع سيد واستأجرناه مرافقًا لنا في رحلتنا.

لأسرة الكاف ممثِّلون مقيمون بشكل دائم في الشحر، يشرفون على قوافل الجمال التي يقودها البدو التابعون لهم لنقل البضائع التي يستوردونها من سنغافورة إلى تريم، وسنرحل نحن إلى المناطق الداخلية من حضرموت برفقة إحدى تلك القوافل، لكن قبائل الحموم البدوية لم تكن على علاقة جيدة مع البدو التابعين لأسرة الكاف، وقبائل الحموم هذه تسيطر على أراضٍ واسعة تمتد ما بين الشحر وتريم، وقد كان لها رأي آخر، ورفضوا السماح لنا بمغادرة المدينة. أظهرت المباحثات معهم التي استمرت طيلة عشرة أيام أن الطريقة الوحيدة لكسب وُدِّهم وتعاونهم معنا تكمن في إعطائهم مالاً. قبل أيام قلائل مضت قام أولئك البدو أنفسهم (الحموم) بهجوم على أفراد من أسرة الكاف، وهم في طريقهم إلى تريم، فأخذوهم أسرى، ولم يخلوا سبيلهم إلا بعد أن دُفعت لهم ٦٠٠ دولار. وقد سألتهم مندهشًا دولار؟! علمت لاحقًا أنه دولار صاحبة الجلالة (ماريا تريسا)، وهو ذلك الدولار نفسه التي دفعته هذه الإمبراطورية كتعويض إلى (فريدريك العظيم)، وبعد مرور مئة وخمسين سنة من ذلك، فلا تزال هذه العملة المعدنية - وهي ضخمة الحجم - عملة قانونية في الجنوب العربي والحبشة، ورغم أن هذا الدولار قد سُحب من التعاملات والتداولات ولم يعد يستخدم حتى في النمسا، فإنه وعلى نحو يثير الغرابة والدهشة وجد طريقه إلى هذه البلدان البعيدة، ولم تستطع أي عملة أخرى استبداله. قامت بعض الدول الصغيرة بصكِّ عملة معدنية قليلة القيمة من النحاس والفضة، وكانت العملة الفضية تسبك من معدن الفضة الموجود في دولار ماريا تريسا بعد صهره، كما استخدم دولار ماريا تريسا أيضًا في الزينة وصناعة أغماد الخناجر ومقابضها بعد أن يتم صهره، وأدَّى هذا الأمر إلى نقص في إمدادات هذه العملة، وكان يتحتم تعويض هذا النقص، فقامت وكالة الفضة البريطانية التي نُقلت إلى فينَّا بصك دولار ماريا تريسا جديدًا مطابقًا للقديم وختم بالتاريخ ١٧٨٠؛ ليتم شحنه عبر ميناء تريستا (شمال شرق إيطاليا) إلى عدن، فيقوم البنك الوطني الهندي بإرساله برفقة قوة عسكرية إلى دول

جنوب الجزيرة العربية.

تتكون القافلة، التي ارتحلنا معها عبر جبال الجنوب العربي الشاهقة، من عشرين جملاً، واثني عشر حماراً، وعشرة من البدو، وكانت الإمارة لشخص يُدعَى السيد عبد الرحمن بن شيخ الحبشي الذي ينتمي لإحدى الأسر النبيلة في سيئون، مشينا لأيام في أراضٍ صحراوية، ثم مررنا بسهول خالية من الأشجار، تثير في النفس شعوراً بالرتابة والملل، بها قُرًى معزولة وأبراج للمراقبة، ثم صعدنا من هذه السهول عبر طرق الجمال العتيقة، والتي تتعرَّج بنا في أودية وجبال شاهقة شديدة الانحدار لتصل بنا أخيراً إلى قمة هضبة عظيمة، تمتد في الأفق لتنحدر مرة أخرى وتتصل بالصحراء العربية الوسطى الكبرى.

ولكي نتحاشى التعرض لحرارة الشمس الرهيبة، والتي تصل إلى ١٠٦ فهرنهايت، كنا نمشي ليلاً كلما سمحت ظروف المنطقة بذلك؛ إذ يبدأ البدو بتحميل جمالهم بعد منتصف النهار مباشرة حين تكون أشعة الشمس الحارقة هابطة عمودياً، ويكون أخذ قسط من الراحة أو النوم أمراً مستحيلاً، وتحسَّن الجوُّ قليلاً عندما ارتفعنا عن مستوى سطح البحر، ولكن المشي ليلاً عبر طرق ضيقة جوانبها شديدة الانحدار أصبح يشكل خطراً شديداً، مما جعل البدو أن يقرِّروا عبورَها نهاراً.

لقد أثَّر صعود الجمال لأكثر من ٦٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر تأثيراً واضحاً فيها، مما جعلها تمشي بخطوات مترنِّحة، لكنها أثبتت بما لا يدع مجالاً للشك خطأ وعدم صحة الانطباع السائد في أوربا بأن الجمال لا تستطيع المشي إلا على الأرض المستوية، فعلى العكس تماماً تستطيع الجمال وهي مثقلة بالأحمال أن تتدبر أمرها في أصعب الطرق الجبلية بكل أريحية وثقة.

لم يكن مشينا سريعاً ولكن خُطَى الإنسان الشرقي وخُطَى جماله مديدة مثابرة لا تكلُّ ولا تتعب، إنها تلك الخطى الواثقة المنتظمة للحضارات القديمة التي لا تشبه البتة خطانا القصيرة السريعة. بأقدام حافية، يمشي البدوي أياماً متتالية مادام فيه رمق من حياة فوق رمال الصحاري الحارَّة وفوق حصى الطرق الجبلية، فتحمُّل البدوي وصلابته التي لا تُصَدَّق، هي من حافظ على تنقل البضائع بين مناطق الساحل والداخل عبر الهضبة الشاهقة رغم بدائية ذلك البدوي وخطورة البلاد.

للبدوي روحٌ مرحة على الدوام، فغالباً ما تراه يحدو لجماله، وعند سماع الجمال ذلك الحداء تتحفَّز وتسرع في مشيتها، وفي إحدى المرات سمعْتُ بدوياً شاباً يحدو لجمله قائلاً:

يا بعيري ياعريض الظهر ممتلية شواك

ماشي من الجمال الثانية تحمل كماك

قدامك البير مليانه منها باتروي ظماك

لأسباب تتعلق بسلامتنا وأخرى تتعلق بإعطاء الحيوانات قسطًا من الراحة، مشينا يومين كاملين على الأقدام، وقد أرهقنا ذلك كثيراً، أمَّا ثيابنا الخفيفة البسيطة فكانت سريعًا ما تتحوَّل الى خرق بالية. اصطاد أحد العرب ببندقيته غزالاً، ووضع جزءاً من جلد ذلك الغزال على عقب بندقيته التي بها من قبل شيءٌ من جلود الغزلان، وهذه عادةٌ منتشرة في الجنوب العربي، فعند اصطياد حيوان يضع من اصطاده جزءاً من جلد ذلك الحيوان على عقب بندقيته كميدالية تذكارية للصيد.

أخيراً وصلنا إلى قمة الهضبة العظيمة، وتكشَّفتْ أبعادُها الجرداء أمام أعيننا. هذه الهضبة لا تثير الاهتمام أبداً، بل في الواقع مُمِلَّةٌ ومُوحِشَةٌ، تثير في النفس الشعور بالحزن، وبدأت مشكلة الماء تبرز في هذا المكان الموحش، فكان علينا أن نبحث عنه، ونحمله في قرب من جلود الحيوانات، وسريعًا ما يتغير طعمة في تلك القرب التي بها

من المواد الصلبة أكثر مما بها من ماء.

امتطى قائدنا السيد عبد الرحمن وبعض رجاله ظهور حميرهم، وبدأوا البحث عن آبار مياه، ومكان مناسب لنخيِّم فيه، وبعد ذلك أخذوا يَعُدُّونَ تلك الوجبة المألوفة (الأرز واللحم)، وكان قليلاً ما يحالفنا الحظ في الحصول على ظل شجرة أو ظل جرف صخري يقينا حرارة الشمس الرهيبة، وفي أوقات نكون محظوظين ونجد بدوًا رُعَاةَ غنمٍ فنشتري منهم خروفًا بخمسة أو ستة دولارات. إعداد الوليمة البدوية يستلزم مشاركة الجميع، فبينما البعض يذهب لإحضار الحطب، يتكفل البعض الآخر بتوفير الماء، بعد ذلك يُذبح الخروف ويُعلق بشجرة ويُسلخ جلده ويُفرش على الأرض ليوضع فوقه اللحم، ثم يقسم إلى أقسام متساوية حسب عدد الحاضرين، ثم تتم القرعة على هذه الأقسام المتساوية؛ ليأخذ كل رجل نصيبه من اللحم إلى النار المُعَدَّة للشيِّ، وعادةً ما يؤكل اللحم وهو غير مكتمل النضج.

إن بدو الجنوب العربي، أو في الأقل أولئك الذين التقينا بهم في أسفارنا، يختلفون عن بدو العرب الذين صوَّرهم الأوربيون، فهم ليسوا طوالاً، وليس لهم تلك الأجسام المهيبة التي ترتدي الثياب الفضفاضة، فهم قصار القامة، ولكن لهم أجساد بديعة ورائعة، وغالبهم سُمْرُ البشرة، وينحدرون من قبائل، بعضها كبيرة وأخرى صغيرة ترفض بصرامة التزاوج البيني، وبما أنهم ينحدرون مباشرة من صحابة الرسول وأتباعهم المحاربين فإنهم يعدُّون أنفسهم من الطبقة الارستقراطية.

تُولِي هذه القبائل – وقد تعرفت على أربعين قبيلة منها – اهتمامًا بالغًا بالعادات والأعراف القديمة، ولكنها لا تمارس الطقوس الدينية كثيرًا، فهم نادرًا ما يُصَلُّون؛ لأن اكثرهم لم يذهبوا إلى المدارس، ولا يعرفون قراءة قرآنهم، كما أنهم لا يكترثون بالمفاهيم النبوية، ولا يصومون رمضان، والعهود التي يقطعونها على أنفسهم لا تأخذ قداستها من التزام أخلاقي وإنما من الخوف من أن تنبذ القبيلةُ مَنْ لم يفِ بعهده، ولهذا السبب فهم يُؤتمنون على نقل البضائع الثمينة إلى حضرموت الداخل، كما أنهم يُلزِمُون أنفسهم بحماية كل مسافر يرتحل معهم.

هناك تفاوت في المنزلة والأهمية لكل قبيلة من هذه القبائل فالسادة، أهم من يقطن المدن، وهم رؤساء البدو وقد دخلوا في تحالفات مع بعض القبائل البدوية التي تقوم بمساعدتهم في أوقات الحروب وتدين لهم بالولاء المطلق وبدون أي مقابل مادي؛ إذ يتم قرع طبول الحرب الكبيرة، التي تسمع من مسافات بعيدة، لاستدعاء القبائل المسلحة للحرب. أهم تلك القبائل هي القبائل التي تتخذ من الشحر وما حولها من المناطق المجاورة معاقل لها، سلاح معظم أفراد هذه القبائل الخناجر المعقوفة أو الجنابي، والبعض منهم يحمل زيادة على هذه الجنابي سيوفًا معقوفة، تتدلىَّ من أكتافهم. وتليها منزلة قبائل أخرى تسمى قبائل الجبال، وأفرادها يحملون البنادق وهي غالبًا بنادق الميازر الألمانية، غير أن البنادق الفرنسية القديمة (الهطف) لازال البعض يحملها. يُوضع الرصاص في أحزمة (مسابت)، تُربط في الخصر، وعادة ما يستخدمون الرصاص البريطاني المسمى (دمدم). بعد هؤلاء تأتي الطبقات الأقل مكانةً وهم الجعلة جمع جعيل والمزارعون، والذي يُقال عنهم بأنهم خدم للبدو، وإضافة إلى هؤلاء الخدم، يمتلك البدوُ عبيدًا، يقومون بتسليحهم بالخناجر والبنادق.

يلبس بدو الجنوب العربي من مختلف القبائل لبسًا بسيطًا، عبارة عن إزار فوق السرة (قطعة قماش صغيرة تسمى مقطب)، ويستثنى منهم جنود السلطان، الذين يرتدون الجاكيت أو السترة مع عمامة تُوضع على الرأس. يترك

البدوي شعر رأسه الطويل يتدلى، والشباب منهم يحلقون شعر مقدمة الجمجمة، فيجعلهم هذ النمط من الحلاقة إضافة إلى أنوفهم المعقوفة يبدون وكأنهم هنود حمر.

على الرغم من شدة سواد بشرة البدو فإن ملامحهم ليست زنجية البتة، فلون أكُفِّ الزنوج وأقدامهم فاتح، في حين لون الكفين والقدمين عند بدو الجنوب العربي أسود، كما أن لون عيني البدوي أسود عمومًا وله حواجب لوزية الشكل، ويسود البدو جواف أعينهم بمسحوق أسود (كحل)، وهذه الظاهرة سائدة في أنحاء الجزيرة العربية جميعها. تورث الصحراء ساكنيها دماثة الخلق والقسوة والجلافة أيضًا، فتجعل منهم رجالاً حديديين، عند تعرض القافلة لعاصفة رملية أو لهجوم من قبيلة معادية أو تعرضها لأي نوع من المخاطر، لا يفكر بدو القافلة في سلامتهم الشخصية وإنما يفكرون في المصلحة العامة للقافلة وكيفية حمايتها، فهم مختلفون تمامًا عن الجماعات المتحضرة، فحين يداهم الخطر أفراد الجماعات المتحضرة ينتابهم الرعب والهلع، ويفكر كل واحد منهم فقط في كيفية إنقاذ نفسه، وهذا الأمر ليس من شيم بدو الصحراء؛ إذ ترى البدوي يومئ لرفيقه العطشان أن يشرب آخر قطرة مما لديه من ماء، غيرَ مُبَالٍ بأي شيء، والنهر على مرمى حجر منه، ولكن في الوقت نفسه تجعل الصحراء قاطنيها شرسين، سريعي الانفعال والغضب، فكلما طالت مدة السفر. تبدأ المشاجرات الصغيرة فيما بينهم وأحيانًا تنتهي هذه المشاجرات باشتباك بالجنابي.

انتهى اليوم السادس من رحلتنا بمشكلة؛ فقد خيَّمْنا بالقرب من جانب وادٍ شديد الانحدار لنمضي الليلة هناك، يسمى ذلك الوادي غير المأهول وادي (حرو)، ويوجد به بعض الرعاة من البدو الرُّحَّل، ينتمون لقبيلة (بيت قرزات)، وكانت تلك الليلة باردة جدًا، جعلتْنا نرتعش تحت البطانيات، وجعلت البدو المرافقين لنا يتجمَّعون حول النار، لكن للبدو قدرة على تحمل البرد والحرارة أيضًا، فتراهم ينامون على الأرض بلا غطاء وعليهم من الثياب ما يستر عورتهم فقط، كما أنهم لا يستخدمون الخيام أو في الأقل لم أشاهد أي خيمة لهم.

في الصباح اكتشفنا أن بعض جمالنا التي تُرِكَتْ ترعى في الجوار خلال الليل لم تكن موجودة. أخَّر البحث الطويل عن تلك الجمال الضائعة موعد انطلاقنا، وقد ألقى أحد البدو من قبائل تميم، والذي تعود له الجمال، باللَّوم على أحد العبيد مُتَّهِماً إيَّاه بالتسبب في ضياع الجمال، وفي نوبة غضب أوسع ذلك العبد ضربًا بعقب بندقيته وكاد يقتله. تُرك ذلك العبد البائس مُلقًى على الأرض مضرَّجًا في دمائه، محطَّمةً أسنانُه، وكنا نسمع بكاءَه وأنينه حتى بعد أن ابتعدنا عنه مواصلين رحلتنا. لم نستطع ولم نجرُؤْ على التدخُّل لإنقاذه، ولكنه استطاع اللحاق بنا بعد مضيِّ ساعات عدَّة.

أمَّا خادمنا (سيد) فقد عدَّ الرحلة مهمة بسيطة، فكونه خادمًا فيعني له أن عليه المشي على قدميه، وكونه عبدًا فيعني له أن عليه تحمل جلافة البدو وسوء معاملتهم له، فكان دائماً ما يصل إلى المخيم متعبًا منهكًا مثلنا تمامًا، ورأفة منا به لا نطلب منه أن يخدمنا، وكنا نحتاط لأنفسنا بأنفسنا. قام سيد وعلى نحو منتظم بسرقة الرصاص من البدو حتى امتلأ جيبه من الرصاص، فأعطاه شخصٌ ما بندقيةً وملأ مخزن تلك البندقية بالرصاص، وبدا يتصرَّف وكأنه بدوي حقيقي، ثم أخذ يمشي بتبختر أمام الجمل الذي امتطاه، مُوجِّهًا فوهة البندقية نحوي. أمرْتُهُ مرارًا أن يسلِّم البندقية إلى البدو وإلا أخذْتُها منه بالقوة، ولكنه عدَّ تسليم البندقية إهانة بالغة له. وبعد أن شعر بأنه صار

وحدَه المتحكِّم فينا لوجودنا في مؤخِّره القافلة ولا يوجد غيره معنا، قام بتصويب بندقيته تجاهي تمامًا، وأخذ يظهر حالة من الهيجان والغضب لا يستطيع إظهارها سوى العبد. لم أجرُؤْ على الحركة، لكن صديقي قفز من ظهر الجمل فانقضَّ عليه واستطاع أن يجرِّده من السلاح.

بعد ذلك فَقَدَ خادمُنا السيطرة على نفسه تمامًا، فكان يرغي ويزبد، وكان سلوكه يذكِّرنا بالنمر المسعور، وقال لي بصوت عالٍ: إنه سوف يذهب إلى بعض البدو، وسوف يعطيهم نقودًا، ويطلب منهم قتلنا بدون رحمة ثم ذهب عنا.

مرَّ ربع الساعة ثم نصف الساعة ولم يظهر، فبدأنا نتناسى الحادثة، فنحن الآن نمشي على أرض قفرة لا يوجد بها سوى شجيرات شوكية وبعض الأشجار على حافة أحد الأودية، وطريق القوافل القديم الذي نسلكه الآن يلتفُّ حول جبل كبير، وما أن دخلْنا ذلك المنعطف، فإذا سيد واقفٌ أمامي جامدٌ وكأنه تمثال، وكانت عيناه تقدحان بالشرر ومصوِّبًا نحوي بندقيته التي قد يكون أخذها أو استعارها أو سرقها من أحد البدو.

نهرْتُه بصوتٍ عالٍ ولكنه لم يُعِرْنِي أيَّ اهتمام، حاولتُ تهدئته تارة وتهديده تارة أخرى لكنْ دون جدوى، تقدَّم نحوي ببطءٍ مُمسِكًا بندقيته في وضعٍ قتالي، أمَّا البدو فقد وقفوا يشاهدون هذا المشهد مستمتعين به، حينها نفد صبرنا فترجَّلْنا أنا وصديقي عن ظهرِ جملَيْنا بسرعة وفي الوقت نفسه اندفعنا تجاه ذلك اللئيم، فأطلق رصاصة ولكنها أخطأتْ هدفَها ليهرب بعد ذلك باتجاه الصحراء. انطلقْنا خلفَه وأمسكْنا به، وبعد أن ثبَّتْنَا ذراعيه تمامًا، أخذنا ذلك العبد نسحبه ونحمله في آنٍ واحد - وهو يصرخ ويُوسِعُنا عضًّا - إلى قائد القافلة الذي بدوره أمر بربطه وجعله يجري خلف حماره لمسافة طويلة حتى وصولنا إلى المكان الذي سنخيِّم فيه للنوم. وفي المساء عقدت جلسة محاكمة عسكرية لذلك العبد، فقد عدَّ قائد القافلة ذلك التصرف أمرًا خطيرًا، وبناءً على تلك المحاكمة تم جلد ذلك الزنجي العنيد بشدة، وتم الحكم بنبذه، حتى الخدم والعبيد لم يُسمح لهم بالتحدث معه، وتقرَّر التخلص منه وطرده حال وصولنا إلى مدينة تريم.

مشينا طيلة أربعة أيام في أرض مجدبة مترامية الأطراف ولا زلنا في الهضبة. الأودية التي كانت ضيقة قد أخذت الآن في الاتساع، أما الطريق الوحيدة التي علينا أن نسلكها الآن فهي طريق ضيقة جدًا، وبدت لنا كشريط رمادي رفيع يتعرج على حافة جبل شاهق، فإذا التقينا بقافلة أخرى في ذلك المكان، ستحصل كارثة لا محالة، ليس بالإمكان مرور قافلتين في آنٍ واحد، وليس بالإمكان الاستدارة؛ فالطريق ضيقة جدًا لدرجة أن أحمال الجمال تكون ناتئة وتتدلَّى فوق الهاوية. وفي مساء اليوم العاشر من رحلتنا دخلنا واديًا صغيرًا شديد الانحدار، ونزلنا عبر طريق وعرة مليئة بالحجارة جعلت الجمال تترنَّح لنجدَ أنفسنا فجأة أمام مياه جارية صافية، وعلى أطرافها تنتشر أشجار النخيل، إننا الآن في وادي حضرموت، وعلى مسافة بعيدة ظهر لنا وادٍ كبير جدًا، تُرى جوانبه شديدةَ الانحدار في ضباب الليل، في ذلك الوادي تقع المدينة الأسطورية العظيمة، مدينة تريم، عاصمة إقليم حضرموت.

أسوارها القديمة والشرفات الحربية في تلك الأسوار ومناراتها البيضاء وبساتين النخيل جعلتنا نشعر بأننا داخلون إلى عالم من الخيال. مررْنا من البوابة الكبيرة للمدينة دون أن يسألنا أحد كوننا أتينا ضيوفًا على البلد، ضيوف أسرة الكاف، تلك الأسرة التي مكَّنتْنا من زيارة هذه الأرض المحرَّمة على الأجانب، لقد زوَّدُونا بأفضل جوازات سفر لزيارة هذا الجزء من الأرض الذي يحكمونه ويحميه البدو من القبائل التي تدين لهم بالولاء.

76
العدد (23)
يناير
مارس
2022م

ظلال وارفة وثمار يانعة

قراءة في ديوان (تحت ظل نخلة)

ديوان تحت ظل نخلة للشاعر أ.د. عمر علوي بن شهاب الدين يتضمن خمسًا وأربعين قصيدة، منها ما يقرب من اثنتي عشرة قصيدة في مناسبات مختلفة: بعضها في المديح، والإخوانيات، وفي الرثاء، والمناسبات الوطنية، والباقي قصائد ذاتية وجدانية.



د. محمد صالح الشنطي*

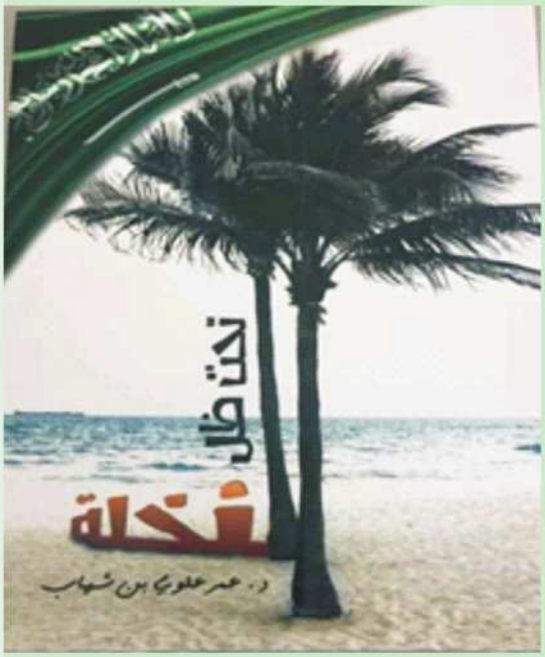
يشير عنوان الديوان - أولى عتبات النص التي تقود إلى رؤية الشاعر وما يدور في مخيَّلته ويخفق به قلبه - إلى مفردتين رئيستين : ظل ونخلة (المضاف والمضاف إليه)، الأولى (ظل) توحي بالراحة والسكون والاحتماء من القيظ والإيواء والستر وإلى معان أخرى تتداعى عبر ما توحي به تداعيات اللفظ من دلالات متكاثرة. أما النخلة فأيقونة رمزية غزيرة بإيحاءاتها، سخية بدلالاتها، رمز للعطاء والخير والجمال والكرم، تستحضر فضاءات لا حدود لها من المعاني، وقد ارتبطت في الأذهان بالأرض العربية المعطاء، وبواحاتها الوارفة الظلال، وترمز إلى مقوّم أساس من مقومات الحياة، من هنا كانت إحدى مكوّنات الشعار الرسمي للمملكة العربية السعودية، فهي تتضمن لمحة وفاء للبلد الكريم الذي يحتضن العرب والمسلمين والوافدين طلبا لأداء مناسكهم والتماسًا لسبل العيش الكريم.

جاءت المفردتان منكّرتين، والتنكير - هنا - يفيد العموم من ناحية، والإفراد فيهما يعزز دلالتهما الرمزية من ناحية أخرى، حتى لا يلتبس المعنى المعجمي بالدلالة الرمزية، وأما اللفظة الثالثة المضافة إليهما وهي ظرف مكاني فله إيحاءات متعددة تفيد الانضواء ونشدان الراحة والأمان، من هنا كان هذا التركيب الثلاثي المتعاضد بعلائق الإضافة عبر سمة التنكير التي تنطوي على سمتين رئيستين : التعميم والتخصيص عتبة مهمة من عتبات الديوان تقودنا إلى رؤى الشاعر وأفكاره التي يمكن أن ننظر إليها من خلال مداخل ثلاثة:

الأول: المديح ، ومنذ البداية لا بد أن ننتبه إلى أن هذا الغرض التقليدي المألوف في شعرنا القديم والحديث يكتسي عند الشاعر بمعان بعيدة عن تلك التي ألفناها في تراثنا من تكسّب وطلب للعطاء؛ بل - شأنها شأن الإخوانيات - تحمل معاني الوفاء، فلا ترهيب ولا ترغيب يحدو صاحبها؛ بل تنبعث من دوافع نفسية جوّانية ذات خلفية قيمية إنسانية؛ فقصيدته (من أتى عصرنا) التي قالها في (صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبد العزيز ولي العهد آنذاك) رحمه الله، تنبئ من العنوان عن رؤية الشاعر لحدث له أثره في نفسه، وإذا كان قد سلك طريقًا إحيائية عمودية تنهض على غنائية تقريرية تكرّس أفكارًا ورؤى، غير أنه حلّق بصوره مخترقًا جدار التقرير إلى التعبير، متوسّلاً بلون من ألوان التشكيل، تمثّل في هذا الشريط التصويري الحي: انتساب القصيد إلى الزائر الكريم توسّلا لشرف النسب.

وهذه صورة تتحول فيها المعاني إلى شخوص تستكمل مظاهر الحياة والحركة بإنطاق القصيدة بشرف الانتساب عبر علامة لغوية حسّية، واستجابة لتداعيات هذه الصورة في حواره مع القصيدة التي حفّزتها بواعث وجدانية حميمة متدفقة، فعمل على ترويضها وكبح جماح تدفقها، فجعل منها كالأنثى المبرقعة التي تستعصي على من يرغب في رؤيتها، فتماهت القصيدة مع المرأة، وجاءت الصور متوالدة في انسيابية رقيقة، انتظمت في تداعيات تنثال بلا توقّف، وكأن المعاني امرأة تتأبّى على الوصال، ولكنها لا تستطيع أن تصمد أمام هذا الحدث الجلل فأسفرت عن وجهها:

ومعان مبرقعات بدت لي حين أعنيكم تميط النقابا



ديوان: (تحت ظل نخلة)

وإذ تتناسل الصور من رحم المخيلة في هذا الاتجاه تأتي في انعطافة أخرى تبحر في عمق التاريخ عبر إشارة لغوية تاريخية تذكرنا بتقليد أصيل من تقاليد القصيدة وهو الوقوف على الأطلال، وقد عمل على إرسالها إشارة موحية إلى جذور أصلها ثابت، مستكملاً إشارة أخرى إلى تقاليد القصيدة العربية من ذكر للأطلال وتشبيب بالحبيبة في قوله:

همت بالأعظمين قولاً وفعلا

ما تعشّقت زينبًا والربابا

ثم تأتي سلسلة من الصور الأخرى تراثيّة كونية تتصل بالنجوم والكواكب : الثريا والشموس، ثم غنائية تقريرية تتصل بالحكمة والشجاعة، متّصلة بمذخور أدبي تراثي، ينتقل عبرها إلى الصور الطبيعية وثيقة العرى بالظواهر الكونية، التي ارتاد فضاءها، فاستحالت إلى مروج خضراء بعد أن كانت قفرًا يبابًا

وغيثًا مغيثًا وروضة غنّاء، ثم ينتقل في تداعٍ عفويٍّ في دفقة غنائية تقريريَّة، تتصل بتأصيل النسب اليعربي وصلة الرحم بين الأمة.

وينتقل الشاعر من خصوصية الموقف إلى عمومية الحالة، ومن ظرفية الزمن المحدود إلى رحاب المرحلة، فأتت أساليب الطلب لتستثير كوامن الشعور بالظلم التاريخي في حواريّة تخرج من التقرير المباشر إلى حركة مفصلية في متن النص، عبر ملكة تأملية نشطة من خلال أساليب ثلاثة:

- استفهام يزلزل معتقداً زائفًا (أمن العدل والمساواة حقا)
- ونداء يعبر عن لهفة المتفجع (إيه يا قدس)
- واستفهام يقصد به تأكيد النفي (هل جعلناك)

إيه يا قدس هل جعلناك ظهرا بعد أن كنت قبلة محرابا

هكذا تتشكّل الصور الشعرية تجليات تختزل جيشان المشاعر وغليان المرجل، وتعكس عدسة الذات الشاعرة مختلف المشاهد لتصوغ عالمها الداخلي الذي تجوس في فضائه حيرة قلقة وقلقًا حائرًا، تتحول الألوان عن دوالّها المألوفة لتصبح جملة من الإشارات، التي تعوم في بحر لجّيٍّ من المعاني، تضطرب في أمواجه قوارب حياة، أضاعت بوصلتها وسط مضطرب من العواصف، فتناسلت الصور الفنية في شريط تنهمر عبره الدوالّ؛ فمن السراب الذي يحسبه الشاعر الظمآن ماء إلى الصحو الممحل والضحى الذي تراءت في ضوئه يابسات المروج وتحولت الخضرة اليانعة إلى سواد مفارقة تجتمع على صعيدها نقائض تفترق لتجتمع في حزمة دلالية، تمثل جوهر الأداء الفني ولبابه، وانقلب السواد الذي ينطوي على إشارة إلى شباب ريّان، يصبح بياضًا يذكّر



الشاعر الدكتور/ عمر علوي بن شهاب

بالفناء وانقضاء الأجل، فقد استطاع الشاعر أن يستثمر التحولات اللونية في التعبير عن حقائق كونية تومئ إلى هزيمة وجودية أمام غزو شامل في قصيدته (اغتراب)؛ وتتبدّى البراعة في المفارقات الزمنية وانعكاساتها المكانية حيث تجتمع النقائض على صعيد واحد لتعبر عن إكراهات لحظة تاريخية تشكل مأزقًا إنسانيًّا يتجاوز التجربة الذاتية ليلامس سقف الهم الوطني، ولا يقف عند حد بناء المفارقة القائمة على هذه الثنائية يقوم ببناء صورة ذات سمات درامية تعكس صراعًا غلابًا للزمن مع الذات الشاعرة:

أنكرت عيناي صبحًا وضحى
يبست في قاعها خضر الروابي
سود أيامي مضت بي منهكا
فتمسكت بأذيال شبابي
ركلت أقدامها في مفرقي
فغزاه الشيب في كل الشعاب

وهو إذ يستنفد المشهد التقليدي الذي أضحى فيه البرق الخلب دالاً على الأمل الضائع بمقابلته بصورة نقيضة تتحول فيه السحب إلى قصور، ويمضي في توليد الدلالات عبر سلسلة من الصور.

وهو إذ يشكل معادلاً وجدانيًّا من الصور التي ينحتها من ظواهر الطبيعة يلوذ بالكلمة الشاعرة مشحونة بالمجاز وارفة الإيحاء، وقد تبدَّت القصة بأكملها لوحة مشهدية، تقوم على الوصف والسرد والحوار يتمحور حول الذات في غنائية زاخرة، والصورة ليست مجرد لوحة بل ذات أبعاد ثلاثية عميقة، تنتقل فيها الحركة بين العالم الخارجي وأقبية الداخل، بل تتجاوز ذلك كله لتأخذ بعدا كونيًّا، فالاغتراب النفسي يقوم على التحوُّل المستمر، حتى لتتماهى الذات مع ظواهر الكون، ففي مقابل الذات التي تتجسد في ياء المتكلم، وتفترش فضاءات القصيدة، وتصنع عالمها الخاص، تنداح على مساحات شاسعة، وتبدو أقرب إلى التمازج مع تضاريس الوجود، فكأن ثمة صراعًا مدويًّا بين الشاعر وكينونته ووجوده، لقد لاذ بالهزيمة بعد أن أيقن أنه قد خسر المعركة، وهو إذ يلوذ بأكناف الخيبة يبدو ما حوله من كائنات، وقد أصيبت بما أصيب به زمانًا ومكانًا وكائنات، فالأيام سواء والصحو منطقي والكون موحش والآمال خلب والغصن ذاو والروض مستباح:

وكل ما حولي رخو زائف وقشور هشة دون لباب

والأشعار هاربة والنخيل شجو، ولكن المحطة الأخيرة واحة آمنة قدسية، فقد خرج من الظلمات إلى النور، فنحن أمام سلسلة من المحطات التي تمضي صعدًا في كرب، وتعيش في عالم أطبقت عليه الظلمات من أنحائه الأربعة، في قصة حظ عاثر وسردية سوداء، وإذا بها تنفرج فيزول الهم والغم وينفسح الأفق عن عالم جديد، وينزاح الاغتراب النفسي والوجداني، فالشاعر إذ يبحر بعيدًا في أغوار نفسه المرتابة في واقعها الأليم تعثر على المخرج والخلاص:

حيث ألقى واحة قدسية دوحها أهلي وقومي وصحابي
وبها أشهد أبهى عالم لمنارات ضياء وقباب

ولعل هذا النسيج اللغوي المتضافر الخيوط ممثلا في حلقات ثلاث:

- الجمل الفعلية الماضية التي تجسد التعاقب السردي وتستغرق غالب الأبيات.

- ثم الأساليب الاستفهامية الطلبية التي تتوسط القصيدة معبرة عن الحوار الداخلي الذي يعبر عن ذروة الأزمة التي يعيشها الشاعر.

- ثم سلسلة الجمل الاسمية ؛ تلك - إذن - أضلاع مثلث تعبيري : سردي، حواري، وصفي، ينتشر على مساحة زمنية شاسعة، وتنتهي إلى بقعة مكانية مصطفى، بناء معماري أقرب إلى البناء الهرمي الذي انتهى إلى ذروة عالية، بناء تراكمي كمي ينتهي إلى تحول كيفي مفاجئ يغلق بالمزلاج رتاجات التأويل ويدلف إلى جاهزية المعنى.

وقصائد الديوان الوجدانية تبدو ذات مناخات تعبيرية خاصة، يستثمر فيها الشاعر ألوانًا من الجماليات الإيقاعية حيث الخفة والرشاقة والتنغيم، وتتكاثر حروف المد لتنتهي إلى سكون على نحو ما نلمس في

قصيدة (حبيب)، فمن العنوان الذي يتكون من مفردة واحدة تبدأ بالحركة وتنتهي إلى سكون، وهذه المفردة المنكرة مطلقة الدلالة، فهي لا تشير إلى حبيب بعينه، لكن مجرد نسبتها إلى ياء المتكلم بطفء لهيب قلبه، هذه الصورة معبِّرة حقّاً، وتأتي في إطار ما يعرف في الفنون الدرامية بالمونولوج الذي يفيض بأقصى درجات الانفعال الوجداني والعاطفة الجياشة.

يعمد الشاعر إلى تجسيد الحركة الداخلية من خلال الحركة اللغوية النشطة عبر المراوحة المنتظمة إلى حد كبير بين التقرير والطلب، فالتقرير سكون والطلب حركة وما بينهما مضطرب وجداني يؤجج الغنائية الشعرية ويصل بها إلى الذروة، وهذه التشكيلة الأسلوبية ما بين أسلوب الشرط والوصف والسرد والنفي والإثبات والاستفهام والأمر، كل ذلك يصور لونًا من ألوان الجيشان العاطفي فضلًا عن استثمار أسلوب التكرار الذي يغذّي هذا الجيشان؛ كذلك فإن التداعي الذي ينساب متحدّراً بألوان شتى من الصيغ التعبيرية، تتناسل في اتساق نصيٍّ مدهش:

أنا كفؤك الفرد الوحيد الشاعر اللسن النسيب

وبغصن قلبي إذ تحط مغردا كالعندليب

في غير حضنك لا هناء ولا حياة أرى تطيب

هذه الثنائية التي هي عصب النص: العاشق والمعشوق تتجاذبها في حيوية دافقة مشاعر العشق، وتلوذ بأكناف مكابدة حارقة، تتجسد في ظواهر أسلوبية، قائمة على البوح الوجداني المباشر حينًا تارة والتصوير المجازي تارة أخرى: الكلام والصمت والرجاء والإحباط والإقبال والإدبار والهناء والكآبة والخيال والواقع والإرادة والعجز، هذه الثنائية الضِّدِّيَّة يعقبها التشاكل بين ثنائيات الشهد والزبيب والأمل والرجاء والرشف والارتواء والحظ والنصيب، شعرية متسقة منسجمة متسقة.

ويطول بي المقام وأنا أتلمس الظواهر الجمالية والفنية في هذا الديوان، فما أشرت إليه فيض من غيض؛ فالديوان حافل بالنماذج المتميزة الذي تبلغ ما يقرب من ثلاثة وأربعين نصًّا شعريًّا، اختار لها عناوين دالَّة تتمثل في مفردة واحدة أحيانًا أو جملة أو شبه جملة، وهي عناوين لافتة بعيدة عن التقليد، يغلب عليها الطابع الوجداني بمفهومه الواسع، وقد استمتعت بقراءته، وسعدت بمذخور رؤاه وجمال مضامينه.

ولا تفوتني إشارة عجلى لقصيدة (عيونك)؛ فهي طراز فريد من فنون القول، ينساب متحدِّراً من ينبوع الإبداع، فالصورة المألوفة تحوَّلت إلى دراما وجدانية عبر الحوار الحاذق والمشهد الرائق، حيث الوداعة والحنو والرقة في التأتِّي في نسق صياغي مدهش، تمازجت الكائنات وانفسخت الأكوان والتفَّت الأغصان بالأغصان، وتعانقت النظرات في لقاء حميم، وتماهت الظنون بالوقائع، وتنازعت فضاءات العشق آفاق الوجود. لله دره، فهذا التشكيل الذي تنداح فيه أساليب الطلب ما بين أمر واستفهام يعزف على أوتار الوصل والصد والقرب، والبعد والدنو والنأي توقًا وشوقًا ولهفة. إنها لغة الشعر في ذروة فورانها وندي بكارتها.

---

* أستاذ الأدب والنقد بالجامعة الأردنية والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

81
العدد (23)
يناير
مارس
2022م

أصوات الحياة وصوتي

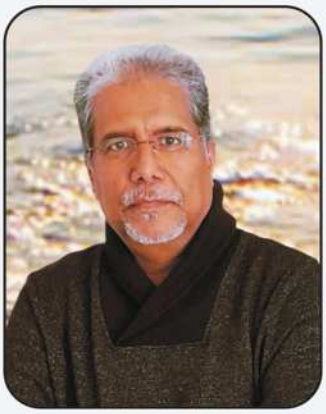


عمار باطويل

كل من يسألني عن ميلادي يكون جوابي إنه لا ميلاد لي، فميلادي يبدأ في كل لحظة تجلٍّ وإبداع. فالإنسان يولد مرات وليس مرة واحدة. فمكان ميلادي هو قلب أمي ومنه انطلقت وفيه أعيش. وقد حدَّثتني أمي أنني قد وجدت في الحياة قبل الغروب بلحظات، أي عندما أصبحت شمس وادي دوعن على رؤوس الحيود، تتوارى خلف الجبال مودِّعة الوادي والنخيل، وكان ذلك الحدث بتاريخ ١٤-٢-١٩٨١م في منطقة خيلة في وادي عمر بدوعن. وها أنذا أحلق مجدَّدًا تعيدني الذكرى إلى تلك اللحظة التي ولدت فيها في وطني الأول، والآن أصبحت لي خارطة جغرافية تسكنني وأسكنها، ولي وجوه تعرفني وأعرفها، ولي بحار بيني وبينها مسافات مد وجزر. أنا الآن أتربع على أرقام من عمري، هذه الأرقام تعيد لي أصواتًا عشت بداخلها وأجسادًا تنبض بداخلي، ويكون لهذه الأرقام نغمة وإيقاع الحياة التي تنمو كأغصان مثمرة في جسدي. وما زلت كما أنا أمضي لأرى الله بقلبي وأدنو إلى ذاتي المتجلية والناظرة إلى المستقبل ليس إلى مستقبلي بل إلى مستقبل الإنسانية التي أنتمي إليها وتجمعني مع البشر من كل رقعة من جغرافية هذه الأرض. فمنذ طفولتي وأنا أملك حاسة الخيال بطريقة غريبة، فكنت أجلس بين النخيل في وادي دوعن، وتحيط بي الجبال من جهتَي الشرق والغرب، وأحيانًا يسرح بي الخيال إلى أبعد الحدود، فمرة أعتقد أن العصافير تغني وأن أصواتها التي تأتيني كسرب تدل على نشيد غنائي خاص بها لا أدرك معناه، وفي بعض الأوقات يسرح بي الخيال وأرى خيالة وفرسانًا على أحصنتهم ينبثقون من صدوع الجبال شاهري سيوفهم علينا وكأننا غزاة في هذا الوادي وهم أهل الأرض الأصليون وقد بعثوا من زمن بعيد، وخروجهم بهذا الشكل وهذه الهيئة لا يدل إلا على قرب القيامة. أما المطر كنت أتخيله أنه الفرح الأبدي الذي يأتي من الجنة كي يسعد أهل الأرض البؤساء. كنت أمضي في أزقة قريتنا وعندما أقترب من البيوت المهجورة أشعر بأنها تتنفس، وأن هناك أعينًا تترصدني من نوافذ هذه البيوت، فأشعر بخوف، وأمضي في طريقي وكأن صوتًا يأتيني من تلك البيوت، يرجو مني أن أعود لكي نستأنس معًا. فكنت أسأل نفسي وأحدثها، لماذا هذه البيوت مهجورة؟ وأين ذهب أهلها؟ وهل سوف يأتي إليها أهلُها بعد الغياب الطويل؟ وفي أثناء الحيرة أسمع صوت نباح الكلاب يأتيني من بعيد، وأشعر بأصوات الحياة تتداخل مع أصوات البيوت ومع صوتي الداخلي الذي لا يسمعه غيري، وأجدني أتجدد مرة أخرى لكي أرى الحياة، وهي تتشكل بأطياف الجمال الداخلي في نفسي لأرى الوجود جميلاً.

82
العدد (23)
يناير
مارس
2022م

مفلح..
مشروع رؤية لم ينقطع برحيله



د. سعيد الجريري

سالم فرج مفلح باحث قلِق مسكون بالتساؤلات، مفتون بالمساءلات التاريخية، حد أن يراه بعضهم مستفزاً جارحاً صادماً. وهو جارح صادم، فعلاً، حد الهوس. لكنه يجرح بقدر ما يؤلم الطبيب، ويصدم بحجم ما ساد من طمأنينة سلبية في كتابة التاريخ وأحداثه وقراءتها نقدياً، من دون افتئات كلما كان ذلك ممكناً. فهو من أولئك القلة في مجاله الذين غردوا خارج سربٍ أعمشَ، تائهٍ مُتيه، ولم تنقصهم الشجاعة الأدبية ولا الأداة المنهجية في مقاربة الحدث التاريخي وما يحف به من غموض حيناً أو مجهولية حينًا، أو ما طرأ عليه من محاولات تجيير أو إعلاء أو إخفاض، أو طمس لأسباب مختلفة، أحياناً أخرى، وهذا نهر جرت - وتجري - فيه مياه كثيرة.

اشتغل على رؤية في مقارباته تاريخ حضرموت، مدركًا كأي باحث جاد أهمية ضبط المفاهيم في سياق القراءة والاستدلال، فسمّى اشتغاله "مشروع رؤية"، وذاك وعي منه - وليس تواضعاً برجوازياً - بأن جهوده مهما تكن مخلصة، معمقة، متصلة، فإنها لن تعدو كونها مشروعاً، قد لا يسعفه الزمن والعمر والإمكان على استكماله، وسيأتي آخرون غيره ليمضوا به أكثر عمقًا وإحاطة. وتلك واحدة من الإشارات الضمنية التي ظل يرسلها في كتابيه المنجزَين: "**حضرموت بين القرنين الرابع والحادي عشر الهجريين، بين الإباضية والمعتزلة**" و "**من التاريخ السري للاستعمار البريطاني التزوير واستلاب الهوية**".

في زمن قاسٍ شائهٍ أنجز مفلح كتابين مهمين من مشروعه في إعادة قراءة تاريخ حضرموت. وحقيق بنا وفاءً له أن نقبل على منجزه البحثي تأملاً وبحثًا ونقداً أيضًا، فهو لا يرسل تعاليم نتلقاها باعتبارها مسلمات، وإنما يضعنا أمام مرآة ذاتنا التاريخية والجارية، كيما نعي الحاضر وننطلق باتجاه صناعة مستقبل مختلف، متخففين من أوزار ماضٍ يلقي بظلاله القاتمة الكاتمة على كل شيء.

لعل مفلحاً في ما تصدى له من جهد بحثي كان يدرك خطورة ما انتهجه من تصور، وما اتخذه من وسائل، وما اختاره من سياقات، وما مال إليه من مغايرة في التحليل والاستنتاج، تمثل هامشاً منهجياً على متون الكتابة عن التاريخ بنمطية سكونية، أو منهجية شكلية، تعيد إنتاج

83
العدد (23)
يناير
مارس
2022م

المتداول، ولا تقرؤه نقدياً في المجمل، وإن فعلت -نادراً- فعلى استحياء ووجل، كأنها تكتب تاريخ ما يطلبه المتلقون، أو فئات منهم.

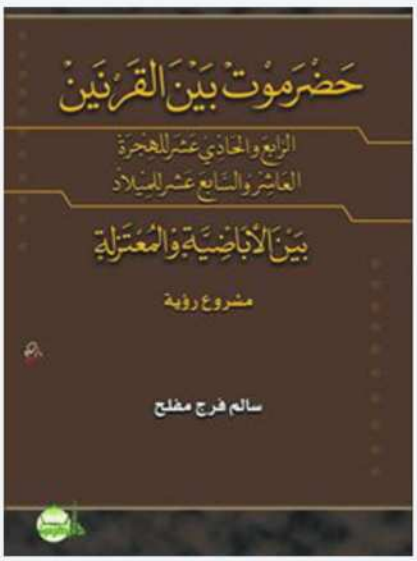
حسب مفلح في كتابيه أن أثار جدلاً، مهماً يكن شكله، لكنه ليس جدلاً للجدل أو للاستفزاز، فهو أشبه برمي أحجار في بركة راكدة، حجراً بعد حجر، لتنداح الأفكار والتساؤلات والمساءلات دوائر دوائر، تعيد الوعي بالتاريخ إلى مساره، وتقترح، في السياق نفسه، ما يضيف إلى مشروع رؤية مفلح، ما يحيلها من مشروع رؤية باحث فرد، إلى رؤية تشتغل عليها جماعات، ومراكز، ومؤسسات علمية جادة لا تباعد بينها وبين المنهجية العلمية في مقاربة التاريخ وإعادة كتابته والوعي به، مباعدات أيديولوجية أو سياسية أو اجتماعية (أو تمويلية أحياناً)، أو سواها.

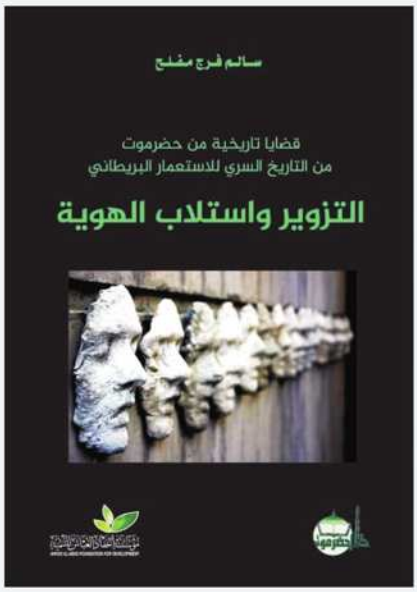
وبقدر ما أثار مفلح جدلاً، سيظل كتاباه وكتاباته الأخرى تثير جدلاً متجدداً كلما قوربت تفاصيل ووقائع معينة. الأمر الذي ينبغي أن يُنظر إليه بتقدير، كون مفلح ينشّط دودة الوعي بالأحداث كلما اطمأن باحث عابر أو مؤدلج إلى مسلّمات تفرد أقدام الكسل المعرفي وتمسدها على (وقاء) قديم طالما أفردت عليه أقدام كثيرة ومُسدت، ثم نام أصحابها لا تؤرقهم تساؤلات الليل ولا مساءلات النهار.

ولي هنا أن أقتبس من مقولاته ما يختزل تصوره العام، فقد كتب قبيل وفاته، ما يشبه الخلاصة المكثفة أن "الرؤية السائدة حول المسألة الحضرمية ثقافيًا واجتماعيًا وسياسيًا أشبه بالدودة المضيئة، تحتاج إلى الظلام لكي تتألق؛ لهذا فهي تعيش على الجهل والتجهيل، وهي في معركتها من أجل بقائها وسيادتها سوف تظل تحارب العقل والمنطق والعلم".



الباحث/ سالم مفلح





84
العدد (23)
يناير
مارس
2022م



"قصتي مع القمر"



طارق بن محمد سكلوع العمودي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد:

فـ(القمر) وما أدراك ما (القمر)، له في تفكيري وتكويني الشيء الكثير، وإلى هذه اللحظة من عمري؛ مما لا أدري ما سببه..؟ وما هي النهاية مع هذا القمر، الذي أشغلني منذ الصغر؟.

كان انجذابي للقمر وأنا طفلٌ قبل دخولي المدرسة، ولطالما يذكر عمي - حفظه الله - أنه مرة حملني في ليلة وكنت أنظر إلى القمر من نافذة الغرفة، وأسأله إن كان هو الله، وذلك كان على مستوى تفكيري الصغير.

أما أول معرفة حقيقية لي بالقمر فقد كانت وأنا طفلٌ في المرحلة الدراسية الثالثة أو الرابعة الابتدائية (أواخر السبعينيات الميلادية من القرن الماضي)، وذلك من خلال مجلة: (العربي) الكويتية؛ تلك المجلة العريقة التي كانت تصدر منذ أواخر الخمسينيات الميلادية من القرن الماضي وإلى الآن، فقد كانت مجلة ثقافية بمعنى الكلمة؛ فهي أول زادٍ معرفي ثقافي رمقته عيناي وتلقَّفتْه يداي.

وكان والدي - حفظه الله - ممن يقتنيها منذ أول صدورها، وكان يحتفظ بها في خزانة مقفلة؛ حتى مرت السنون فولدت ودخلت المدرسة، وكان لي تطفل غريب؛ قادني هذا التطفل لأن أفتح هذه الخزانة من تلقاء نفسي من غير توجيه من أحد في ساعات الظهيرة حيث السكون والهدوء؛ فأمسكت بأعداد المجلة فشدَّتني للقراءة والاطلاع؛ مع أنه توجد مواضيع كثيرة استعصى عليَّ فهم ما فيها لصغر سني؛ فمثلاً صادفني (مكيافيلي) و(المكيافيلية)، كانت لدي الرغبة في فهم هذين المصطلحين حينها ولكن لم أُفلح.

حتى وقفت على أحد الأعداد الممتازة، الذي كان محوره عن رحلة أبوللو سنة (١٩٦٩م)، التي حطت على سطح القمر برائدها (نيل أرمسترنغ)؛ لقد كان عدداً حافلاً وملونًا، يحكي قصة هذا الإنجاز بطريقة سلسة وجميلة، مدعّماً بصور عدَّة للروَّاد وللمركبة، وللقمر عندما تم تصويره عن قرب، ولسطحه عندما حطوا عليه، فكم كان شعوري منجذبًا لتلك الصور الأخّاذة، وأجمل من ذلك صورة جميلة للأرض تُرى من سطح القمر زرقاء جميلة، وأخرى للأرض وهي كالهلال، وهكذا؛ فكان هذا العدد من مجلة العربي الكويتية قد فتح لي الآفاق في حب معرفة

كل ما هو فوق من القمر والكويكبات والكواكب والنجوم والمجرات والسُدم والثقوب السوداء والفضاء الكوني بعمومه.

وأذكر أنني وقفت في أحد أعداد مجلة (العربي) على قصة العالم الفلكي الإيطالي المرموق جاليلو جاليلي المتوفىً عام (١٦٤٢م)، الذي اخترع أول منظار، يعد في عصره متقدمًا لرصد الكواكب، وقد انتصر للقول بمركزية الشمس لا الأرض كما كان سائدًا، وقال بدورانها حول الشمس، مما جعله يصطدم مع آراء الكنيسة؛ مما أوصله في آخر المطاف للحكم عليه بالإقامة الجبرية في منزله حتى مات. وقد اعتذرت الكنيسة له عام (١٩٨٣م)؛ أي بعد وفاته بقرون.

وكان لي - بعد ذلك - تتبع جيد لهذا العالم الإيطالي؛ فوقفت على كتابه: رسول النجوم؛ ومما قال فيه: (من يرغب في إيجاد شيء عليه أن يلجأ للتخيل، وأن يعمل فكره ويكتشف. وإذا لم يكن باستطاعتك بلوغ الهدف بشكل مباشر؛ فإن آلاف الطرق بوسعها أن تساعدك على الوصول).

ووقفت كذلك على كتاباته، ورسوماته الفلكية التي بخط يده؛ من خلال مراسلاتي للمكتبات الإيطالية.

ثم تطور الأمر معي فاقتنيت كتابًا عنوانه: (الكون) وأنا في الصف الخامس الابتدائي من غير مشورة من أحد أو توجيه من أي كائنٍ، ومن ذا الذي نستشيره ونحن في مناخ من لا علم له ولا اهتمام بالكون والفضاء أصلاً؟! فكيف ترتجي منه توجيهًا؟!، وفي الوقت نفسه استغرب وأُصاب بالدهشة من نفسي كيف تجرأت على اقتناء هذا الكتاب، وما الذي استهواني فيه، وأنا في تلك السن الصغيرة؛ التي يميل الطفل فيها غالب وقته للعب واللهو مع أقرانه، والكتاب كان مترجمًا إلى اللغة العربية، ويقع في مجلد كبير، محشوًا بكلام علمي رصين وجاد، ويحوي صورًا كثيرة غير ملونه؛ أذكر أنني عندما اشتريته وأخذته للبيت كنت في الصالة بين المغرب والعشاء، ووالدتي وإخوتي في جانب من الصالة، وعندما بدأت أفتح الكتاب فتحته من النصف تقريبًا فإذا بي أفاجأ بأن صفحتي الكتاب كانت لصورة كبيرة للفضاء، عبارة عن ليل بهيم وظلام دامس، تخترقه نجومٌ من هنا وهناك؛ فأخذتني رعدة ورهبة، وأغلقت الكتاب في حينه، وأخذت أتأمل الصورة في مخيلتي وكأنني غرقت واندمجت في قسماتها، ولم أكن أريد فتح الكتاب لأجل أنني لا أريد أن تتشتت عن مخيلتي صورة الفضاء البهيم الأسود الرهيب لكل فؤاد؛ فأفقد المتعة والرهبة في آن معًا؛ ثم ما لبثت أن تصفحت الكتاب فوجدت الكثير مما لم أفهمه، ووجدت معلومات مهمة عن الكواكب وأقمارها هضمتها فهماً، ومما أذكره في ذلك الكتاب صورة رسم العالم الإنجليزي المرموق إسحاق نيوتن وهو جالس في حديقة تحت شجرة تفاح، وقد سقطت إحدى التفاحات؛ فكانت سببًا للفت نظره إلى وضع قانون الجاذبية.

ومن باب الاستطراد غير المخل فإنني وقفت في وقت قريب في أحد أعداد مجلة (آفاق العلم) على وثيقة مصورة بخط العالم الإنجليزي الكبير إسحاق نيوتن توفي سنة (١٧٢٧م/ ١١٣٩هـ) يتضح منها أنه يرى أنَّ نهاية العالم ستكون في سنة (٢٠٦٠م) الموافق (١٤٨٢هـ)، أي: في الربع الأخير من القرن الخامس عشر الهجري؛ أي القرن الذي نحن فيه، وقد سبقه إلى النتيجة نفسها بأكثر من قرنين من الزمان العلامة جلال الدين السيوطي المتوفى سنة (٩١٢هـ/ ١٥٠٦م) في كتابه (الكشف عن مجاوزة الأمة الألف)، ولا يعلم الغيب إلا الله.

أعود فأقول: ثم تلهفت إلى زيارة المكتبات العامة

والأهلية في زمني باحثًا في المقام الأول عن أي صور وثائقية عن الكواكب والنجوم والفضاء لهيامي بتلك الجلاميد الضخمة الصخرية أو النقط الباهتة المضيئة الآتية من الكون السحيق، ولكن لم أجد ما يشفي غليلي في ذلك الزمان، لشح الإصدارات عن علم الفضاء والفلك في عالمنا العربي حينها.

غير أن أجمل ما في الأمر مما أعدُّه تعويضًا عادلاً أن كان في تلك المدة بداية عرض المسلسل الكرتوني الياباني المدبلج: (مغامرات الفضاء: غرندايزر)؛ فقد تعلقت بالفضاء بعمق أكثر من خلال هذا المسلسل الناجح بكل المقاييس فكان القمر، وقاعدة جمجمة القمر التابعة لقوات فيغا المتحالفة، كوكب فليد، دوق فليد، وزير العلم زوهيل، وقندال، وبلاكي، وكوجي، والدكتور آمون.. إلى آخر شخصيات ذلك المسلسل الكرتوني البديع.

لقد كنت في تلك السن الصغيرة أعلم في باطن عقلي، وأغوار نفسي أنَّ ذلك المسلسل الكرتوني (غرندايزر) ما هو إلا خيال علمي ليس له من الواقع أدنى نصيب؛ لكن تزامن وقت عرضه وأنا في الصف الخامس الابتدائي؛ وكان في ذلك الوقت ثورة تحديث المناهج الدراسية شكلاً ومضمونًا؛ وكان من ضمنها منهج مادة العلوم؛ الذي حوى دروسًا في الفلك بشكل بسيط وميسر، وكان الغلاف يحوي صورة شهيرة مكبرة لجزء مقرّب من سطح القمر، عبارة عن فوهة كبيرة في وسطه ما يشبه (قاعدة جمجمة القمر) المشهورة في المسلسل الكرتوني؛ هكذا تخيلت، ولست أدري إن كان الأمر مجرد تخيل عفوي لمشابهة الأثر الذي في وسط الفوهة القمرية لقاعدة جمجمة القمر الذي في المسلسل الكرتوني، أم كان تخيلاً صاحبه الإسقاط القسري لأجل أن أقتنع نفسيًا أن (غرندايزر) وإن كان خيالاً علميًا فإنه حوى شيئًا من الحقيقة متمثلاً في وجود قاعدة جمجمة القمر؛ وبالفعل اقتنعت بذلك في وجداني وحبسته فيها وعدَدْتُهُ سرًا بيني وبين نفسي، أستمتع به غاية الاستمتاع كلما تأملته؛ ثم أبحته لواحد أو اثنين من الأصدقاء رأيت فيهما القاسم المشترك بيننا من الغرام بذلك المسلسل الكرتوني؛ فأقنعتهما بصورة الفوهة القمرية وأنَّ ما بداخلها هو قاعدة جمجمة القمر من بُعد.

واستمر الحال في اهتمامي بالفلك والفضاء والقمر ما بين مد وجزر حتى المرحلة الثانوية؛ فقد استعرت حينها منظارًا فلكيًا متواضعًا من أحد الزملاء، ونصبته فوق سطح المنزل، ورصدت القمر الذي كان حينها يقترب من أن يكون بدرًا؛ فكانت أول مشاهدة قريبة للقمر بالنسبة لي؛ فقد اتضَّحتْ لي بعضٌ من حفره أو فوهاته التي حدثت بفعل النيازك الساقطة عليه، ولا أنسى حينها مصادفتي رؤية شيء ما لامع سقط على القمر فأحدث ما يشبه الانفجار.. هل كان نيزكًا، أم كان شهابًا؟ أم خداعًا بصريًا؟ الله أعلم.

ثم تخصصت في الجامعة في علوم السنة المشرفة والدراسات الإسلامية، ومع ذلك لم أنقطع عن القمر والفلك، بل توسعتْ معلوماتي لأجل تطور مصادر المعلومات؛ فكانت المجلات العلمية المتخصصة كمجلة العلوم الكويتية وهي النسخة العربية عن مجلة العلوم الأمريكية، ومجلة (علم وعالم) اللبنانية، ومجلة (آفاق العلم)، ثم الكتب المترجمة ككتابيَ: (الكون)، و(الأرض نقطة باهتة زرقاء) لكارل ساجان، والجمعيات الفلكية على شبكة الإنترنت، وغير ذلك.

ثم توسعْتُ في قراءة ما يخص وجود كائنات حية ذكية في الكون غيرنا، والأطباق الطائرة، فكانت قراءات حولها في المجلات المتخصصة، ومن الكتب: (الذين هبطوا من السماء)، (والذين صعدوا إلى السماء) لأنيس منصور،

والكتاب الخطير: (عربات الآلهة) لإريش فون دانيكن الصادر في الستينيات الميلادية من القرن العشرين، والكتاب الماتع القيم: (المختطفون من الفضاء الخارجي) للعالم الإسباني المتخصص في علم الأطباق الطائرة والكائنات الذكية أنطونيو ريبيرا. ولا ننسى أنَّ المسلسل الكرتوني (مغامرات الفضاء: غرندايزر) المعروض في نهاية السبعينيات الميلادية فكرتُه قائمة على ما نحن في صدده؛ كما شاهدت عدداً من الأفلام السينمائية في هذا المجال مما يطول شرحه مع متعته اللامتناهية.

ولم يكن (القمر) حاضراً معي في اليقظة فقط؛ بل صاحبني منامًا؛ ولا أنسى ذلك المنام الذي رأيت نفسي فيه وأنا نائمٌ في غرفة النوم ليلاً، والغرفة مظلمة، فاستيقظت فجأة في منامي لأرى النافذة التي خلفي مباشرة فرأيت القمر شاخصًا أمامي عن قرب كأني سأناله بيدي، وهو بدرٌ لامع؛ فصرفت النظر عنه رهبة لقربه الشديد من النافذة، ثم شخصت ببصري إلى النافذة الأخرى من الغرفة فوجدته أمامي بمنظره الضخم القريب اللامع، وكأنه يلاحقني؛ وإلى هنا انتهى المنام، والله أعلم.

وأخيراً فإنه لم يمنعني تخصصي أن أكتب أو أصنّف في كل ما هو فوق؛ فكان إنتاجي العلمي في هذا الصدد؛ غير أنه قبل ذلك عليَّ أن أقول: إنه في المرحلة الجامعية وما بعدها وإلى يومي هذا؛ تبنَّيت في نظرتي للكون والفلك ربطها بالإسلام؛ أي أسلمتها؛ وذلك من خلال التنقيب، والتفتيش، والتحليل، والدراسة؛ والربط بين هذا وذاك.

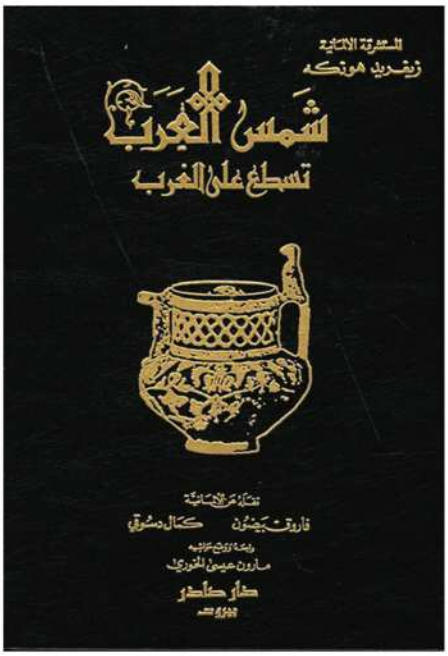
فأُظهر وأبين عظمة ديننا من خلال النقولات الشرعية التي تكلمت عن الأجرام العلوية؛ وأن حضارتنا الإسلامية لها إسهامات جليلة، وأسبقية بارزة في العلوم والاكتشافات الكونية الفلكية.

وحاولت الجمع بين النتائج الفلكية في تراثنا الإسلامي وبين النتائج الفلكية العصرية ما أمكن إلى ذلك سبيلاً؛ فإن اختلفتا؛ ووجدت في جانب النتائج الإسلامية أدلة نصية صحيحة؛ فإني حينئذ أنصرها بكل ما أوتيت من قوة على جانب النتائج الفلكية العصرية.

وحقيقة هناك مؤلفات معينة جعلتني أنطلق في رؤيتي الإسلامية لكل ما هو فوق؛ وكانت المفاتيح الأولية التي انطلقت منها في نظرتي للكون والفلك بعقلية إسلامية شرعية؛ إذا وجد النص النبوي؛ أو الأثر السلفي الصحيح، واستنتاجات العلماء المسلمين الفريدة.

وتلك المؤلفات، هي:

- **"شمس العرب تسطع على الغرب"؛ للمستشرقة الألمانية هونيكه.**



فهذا الكتاب القيم أبان عن مجد الحضارة الإسلامية في كل العلوم وبخاصة الكونية الفلكية، وأن ثورة الغرب التقدمية العلمية كانت في جميع أساساتها عالة على الحضارة الإسلامية؛ فتلقفت كثيراً من تلك الحضارة الإسلامية؛ ونسبتها زوراً وبهتانًا لعلمائها، واعترفت بالنزر اليسير بفضل الحضارة الإسلامية فيها. والكتاب رائع دل على إنصاف مؤلفته، وهو حري بالقراءة العميقة.

- **"العَظَمَة"؛ لأبي الشيخ الأصبهاني.**

وهو كتاب مسند عجيب غريب، أودع فصولاً للأجرام العلوية، يجد فيها الباحث بغيته.

- **"المطر والبرق والرعد والريح" لابن أبي الدنيا.**

وهو مطبوع بتحقيقي.

ومصنفات ابن أبي الدنيا فيها العجائب والغرائب، وتكمن أهميتها أنها مسندة على طريقة أهل الحديث والأثر. ولطالما استفدنا منها في دراساتي الفلكية.

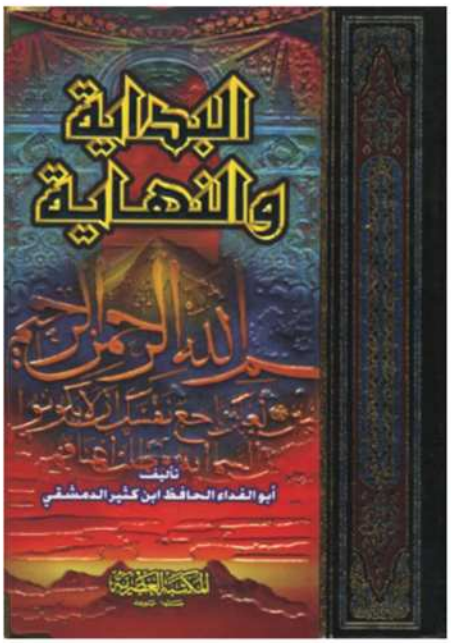
- **"الرسالة العرشية".**
- **"درء تعارض العقل والنقل".**

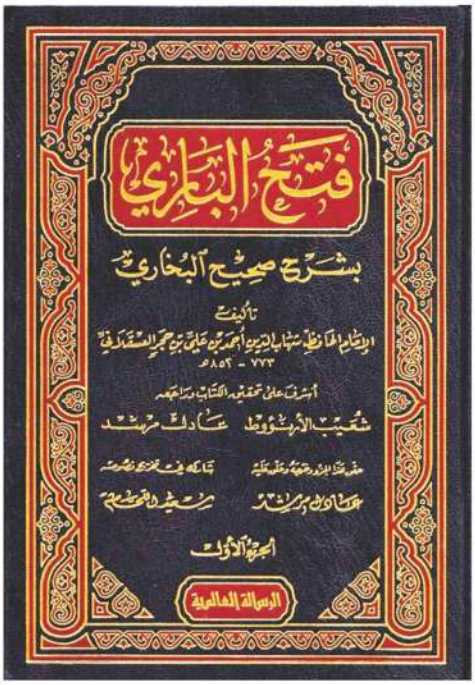
كلاهما لشيخ الإسلام الإمام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ).

فقد أجاد وتكلم عن ظواهر فلكية في كتابيه بما يجعلك تظن أنه متخصص في علم الفلك، وأنه لا يتقن غيره، فاستفدنا منه بما لا يحصى عده.

- **" البداية والنهاية" للحافظ ابن كثير الدمشقي.**

وهو كتاب شهير، ذائع الصيت؛ قد تكلم في بدايته عن بدء الخلق، وتكلم عن المخلوقات العلوية باقتدار، وجذب في السرد والطرح. ويتميز الحافظ ابن كثير، باهتمامه بسرد النصوص في الموضوع؛ ويتكلم عن صحة أسانيدها من ضعفها؛ وهذه ميزة فائقة الجودة.





- **"فتح الباري بشرح صحيح البخاري"؛ لحافظ الدنيا الجهبذ الإمام ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ).**

فقد كانت له نقولات فلكية دقيقة جميلة في ثنايا شروحاته، قد جمعتها في جزء صغير.

وقد تعرض الحافظ ابن حجر لرصد الظواهر الفلكية المشاهدة في عصره في كتابه: الفتح آنف الذكر، وكتابه الآخران القيمان: إنباء الغمر بأبناء العمر؛ و: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. وهما كتابان في تراجم الرجال؛ وكنت قد جردتهما قراءة أيام المرحلة الجامعية، فاستخرجت منهما رصد الحافظ لتلك الظواهر الفلكية في عصره، وهي حرية بأن توضع على طاولة الدراسة بين يدي علماء الفلك والله أعلم.

- **"الدر المنثور في تفسير القرآن بالمأثور"؛ للجلال السيوطي (ت ٩١١هـ).** وميزة السيوطي رحمه الله أنه يحشد وسعه وطاقته في جمع النصوص والآثار في الموضوع الواحد المحدد؛ فحفظ لنا ثروة من تلك النصوص لمؤلفات بعضها ما زال مخطوطًا، والآخر مفقود؛ وقس على ذلك ما جمعه من نصوص وآثار تحت الآيات القرآنية التي تكلمت في الظواهر الفلكية الكونية في كتابه التفسير. ولو أنه -رحمه الله- ذكر الأسانيد مع متون النصوص؛ لكان كتابه آية بين العالمين.

89
العدد (23)
يناير
مارس
2022م

ونعود الآن لسرد إنتاجي العلمي الفلكي؛ وهو على النحو الآتي:

- حول جبال الثلج الفضائية مقال منشور سنة ١٤١٧هـ بصحيفة المدينة، وأنزلته في منتدى اليوفو العربي، ومنتدى العمودي نت.

- كوكب المريخ كان مثار جذب علماء المسلمين كما هو حال علماء الغرب اليوم، مرقوم بالحاسب.

- حادثة زيارة الأطباق الطائرة لوادي حضرموت في القرون الوسطى، أنزلته في منتدى اليوفو العربي، ومنتدى العمودي نت. ومجلة الفلك الصادرة عن جمعية الفلك بالقطيف.

- فتاوى شرعية فلكية لرواد الفضاء، وسكان الكواكب، نُشر على موقع الوكالة العربية لأخبار الفضاء والفلك (١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م).

- تحقيق: المطر والبرق والرعد والريح لابن أبي الدنيا، وهو مطبوع بدار ابن الجوزي بالدمام، سنة ١٤١٨هـ.

- تحقيق: رسالة في علم النجوم هل الشروع فيه محمود أم مذموم؟ للحافظ الخطيب البغدادي، مطبوع بدار الكتب العلمية ببيروت سنة ١٤٢٥هـ.

- تحقيق: الوصول للقمر للعلامة عبدالعزيز بن باز. مطبوع بدار الكتب العلمية ببيروت، سنة ١٤٢٥هـ.

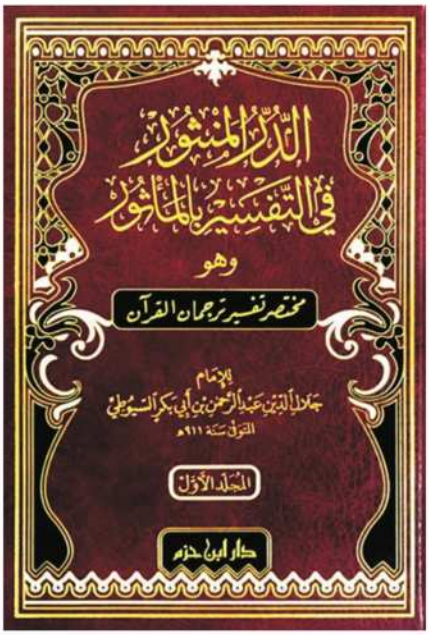
- تحقيق: أين القمر؟ للمحدث حماد الأنصاري، مطبوع بدار الكتب العلمية ببيروت، سنة ١٤٢٥هـ.

- إسحاق نيوتن وإثبات مصدر نزول الأمطار من الفضاء الكوني؛ مقالة نشرتها على الوتس اب.

- النفق الدودي؛ نُشر على موقع: الوكالة العربية لأخبار الفضاء والفلك (١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م).

- ما شكل كوننا؛ نُشر على موقع: الوكالة العربية لأخبار الفضاء والفلك (١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م).

- معادلة ايريك ونشأة علم الأحياء الفلكي نُشر على موقع: الوكالة العربية لأخبار الفضاء والفلك (١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م).



- البحث عن حياة ذكية خارج الأرض، مرقوم بالحاسوب.

- كوكب زحل يزداد جمالاً بالشكل السداسي الضخم على قطبه الشمالي؛ فما لغزه الذي حير العلماء؟!؛ نُشر بالوتس اب.

- إشارة (واو) الكونية؛ نشر على الوتس اب.

- استجلاب الأخبار والعبر عن جلمود صخر اسمه القمر، ما زلت في جمع شتاته.

- نظرية جديدة في أصل القمر - كان القمر في تكوينه الجيولوجي شمسًا من الشموس الكونية، وهي دراسة علمية شرعية انتهيت منها. انتظر من يتبنى طباعتها ونشرها.

- راعٍ حضرمي في مواجهة طبق طائر؛ وهي أول رواية لي في باب الخيال العلمي الكوني، (ما زلت في كتابة فصولها).

- الاستعانة بالذكر الشرعي في علم الفلك، وهو مبحث لطيف (مخطوط).

- حادثة كونية تحبس الأنفاس هل بالإمكان تكرار انشقاق القمر؟ نشر على الوتس اب.

ويتضح للقارئ الكريم أنَّ للقمر نصيبًا في تأليفاتي عن كل ما هو فوق.

هذا كل شيء في قصتي مع (القمر).. ومع كل ما هو فوق.. فهل تجد أخي القارئ في قصتي ما يستحق التأمل والوقوف عنده.. هذا ما أرجوه وحسب. والحمد لله في الأولى والآخرة.

90
العدد (23)
يناير
مارس
2022م



ليتها تقع بين يدي قارئ!

مسعود علي الفتنيني

انتظرتُ ساعات عدَّةً وصول رواية، وَعَدَ كاتبُها العزيز بإرسالها لي عبر الواتس آب، بعد فشلي في تحميلها أكثر من مرة، بوساطة رابط التحميل الذي رفعه على صفحته على الفيس بك، لم تكن علاقتي بالروايات جيدة قبل الولوج إلى عالم النت، فقد اقتصر الأمر على روايات عدَّةً لا تتعدى أصابع اليد، فقد قرأت رواية والإسلاماه لـ(علي أحمد باكثير) كمقرَّر دراسي للمطالعة في الصف التاسع (الثالث إعدادي) في مدرسة مصعب بن عُمير للتعليم الأساسي بمدينة الريدة الشرقية، بعد انتقالنا إليها لإكمال هذه المرحلة، كون الدراسة في منطقتنا - سرار - إلى الصف الثامن فقط، وكانت دفعتنا أول دفعة تدرس ثامنة في المنطقة؛ إذ كانت الدراسة سابقًا تتوقف عند الصف السابع، وعلى الطلبة الانتقال إلى منطقة الحافة المجاورة لإكمال دراستهم، أما الطالبات فعليهن البقاء في البيوت فلا يسمح لهن بالانتقال إلى منطقة أخرى في تلك الفترة - لكن الأمر الآن اختلف -، كان مدرس اللغة العربية في مدرسة مصعب بن عُمير أستاذًا سودانيًّا - عام ٩٥/ ٩٦م - وكان من أفضل المدرِّسين الذين مرُّوا علينا خلال دراستنا، رفقة سودانيَين آخرين أحدهما لمادة الرياضيات، والآخر للتربية الإسلامية، وقد استفدنا منهما أيَّما استفادة، من الروايات التي قرأتها مبكرًا (الحفّار) لـ(صالح مرسي) - استعرْتُها من أحد الأصدقاء في المنطقة - وهي قصة من قصص الاستخبارات المصرية، تحكي نجاح المخابرات المصرية في تفجير حفّار في عرض البحر، استقدمته دولة الكيان الصهيوني للتنقيب عن النفط في سيناء، كما قرأت أيضًا روايتي (رد قلبي)، و(نادية) لـ(يوسف السباعي)، وعددًا قليلاً آخر من الروايات عن طريق الاستعارة من الأصدقاء، كانت أولى الروايات التي اشتريتها هي رواية بوليسية لـ(اجاثيا كريستي) (جريمة في القصر) في أثناء دراستي في عدن، وقد استعارها منِّي لاحقًا أحد الإخوة ولم يُعِدْها إلى الآن، اقتنيت أيضًا رواية البؤساء لفكتور هوجو، في أثناء حضورنا دورة النيابة العامة في صنعاء عام ٢٠٠٩م، كانت صلتي وثيقة بمجلة العربي، وقد حصلت على أول عدد منها في مسابقة عامة أقيمت في المنطقة، والطريف في الأمر أن المسابقة في مجلة حائطية في أحد مساجد المنطقة، وكانت الجوائز مجلة العربي بالإضافة إلى عدد من الكتب الدينية، كان ذلك في المرحلة الإعدادية، استمرت علاقتي بالعربي بعدها سنوات عدَّة، ولم تنته هذه العلاقة إلا مع دخول تنظيم القاعدة إلى مدينة المكلا، وسيطرته عليها، وعلى مدن ساحل حضرموت عام ٢٠١٥م، ومع أنه تم دحر هذا التنظيم عن المدينة عام ٢٠١٦م، غير أن هذه المجلة لم تعد تصلنا، بسبب الحرب الدائرة، التي ما زالت آثارها تلقي بظلالها على الوطن.

كانت علاقتي قبل ذلك بمجلتي ماجد، و باسم، اللتين كان الوالد - رحمه الله - يحرص على إحضارهما لي، كلما ذهب إلى مدينتي الشحر أو المكلا لعمل خاص، كانت صلتي وثيقة بكتب الأدب والشعر، مثل كتاب الكامل للمبرد، والأمالي للقالي، وجواهر الأدب للهاشمي، وروضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن قيم الجوزية،

91
العدد (23)
يناير
مارس
2022م

وطوق الحمامة لابن حزم، والبخلاء للجاحظ، وكليلة ودمنة لابن المقفع، والمستطرف في كل فن مستظرف للأبشيهي، الذي كان رفيقنا خلال سنوات دراسة الحقوق بمدينة الشعب، نهرع إليه لنروّح عن أنفسنا كلما أثقلت نفوسنا مقررات القانون الجامدة، وقد استعاره أحد الإخوة أيضًا ولمْ يُعِدْهُ إلى الآن.

بعد الولوج إلى عالم النت، في السنوات القليلة الماضية، توثقت علاقتنا بالروايات التي أتاحتها لنا المواقع الإلكترونية بصيغة PDF ، فقد قرأنا عددًا منها، كالحب في زمن الكوليرا، ومائة عام من العزلة لغابرييل غارسيا ماركيز، والشيخ والبحر لإرسنت همنغواي، والجريمة والعقاب، والليالي البيضاء لدوستويفيسكي، والمحامي الوغد لجون غريشمان، وهي رواية طريفة لمُحامٍ بارعٍ يقع في عددٍ من المتاعب بسبب قضاياه الشائكة التي يتولى الترافع فيها، وترنيمة عيد الميلاد لتشارلز دكنيز، وعدّاء الطائرة الورقية لخالد حسيني، وغيرها من الروايات الأجنبية المترجمة، ومن الروايات العربية، رواية موت صغير لمحمد حسن علوان، وأول ما لفت نظري إليها حديث شائق جمعنا في مدينة المكلا مع العم المهندس محمد سعد باغشوة أبو إبراهيم، والأديب سالم العبد الحمومي، والدكتور العبد ربيع باموسى؛ إذْ أشاد العم محمد باغشوة بتلك الرواية وكاتبها وأكَّدَ كلامه الأستاذ سالم العبد، الرواية تحكي قصة محيي الدين بن عربي العالم الصوفي الذي عرف بالشيخ الأكبر والكبريت الأحمر، ورحلته بين الأمصار الإسلامية من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق، كتبت الرواية بأسلوب أدبي رفيع. من هذه الروايات أيضا ساق البامبو لسعود السنعوسي، ترمي بشرر لعبده خال، دفاتر الورّاق لجلال برجس، أرض زيوكولا لعمرو عبدالحميد، وحبيبي داعشي لهاجر عبدالصمد، أحبيتك أكثر مما ينبغي لأثير النشمي، مخطوطة ابن اسحاق مدينة الموتى لحسن الجندي، وغيرها من الروايات.



الرواية التي وصلتني عبر الواتس آب هي رواية (النوافذ الصفراء) للأديب الرائع سالم بن سليم، وهي رواية جميلة سلسة، تقع أحداثها في مدينة شبام الصفراء، تروى القصة على لسان بطلتها فاطمة وهي فتاة أربعينية تجلس في (نافذتها الخشبية، الجميلة، العتيقة، المنحوتة يدويًّا في هذه المدينة على الطريقة الحضرمية الشبامية) تنظر إلى المارِّين تحتها، تسترجع ذكرياتها، وقصة حبها مع ربيع، ذلك الحب العذري العفيف الذي حكمت عليه التقاليد بعدم اللقاء، تدور أحداث الرواية بين زمانين، ما قبل ١٩٨٥م، وما بعد ٢٠١٤م، تنقّل الكاتب بين هذين الزمنين بطريقة سلسلة، رصد خلالهما عددًا من الأحداث التي مرت بمدينة شبام وحضرموت عامة، ونقل لنا عددًا من العادات والتقاليد الأصيلة في المجتمع الشبامي والحضرمي، ووظف الموروث الشعبي بطريقة رائعة لخدمة الرواية، قرأت القصة بكل شغف، ولم تفارق يدي إلا بعد أن أنهيتها، فقد أدهشتْني حقًّا، واستمتعْتُ بقراءتها، قلت في نفسي – عندما علمت من الأستاذ سالم أنه أرسلها بالغلط إلى رقم آخر، لمّا سألته عن سبب تأخر إرسال الرواية – ليتها تقع بين يدي قارئ، فلاشك في أنها ستدهشه كما أدهشتني!.

92
العدد (23)
يناير
مارس
2022م

قَبَسٌ من النُّور في ترجمة ابن صاحب شِعْبِ النّور

السيد العلاَّمة القاضي
حسين بن محمد بن الشيخ أبو بكر

الحمد لله رب العالمين، نحمده أن سخر لنا من يعلّمُنا ويرشدنا، بفضله وتوفيقه، جعل من الخلق دُعاةً إليه، ومَنار هُدى يدلّون عليه، وأرسل إلينا معلّم البشرية، وهادي الأُمةِ، إلى طريق الخير والسعادة، حبيبنا وسيدنا محمد صلى الله عليه، وعلى آله حُماة دينه، وقُرناء كتابه، وعلى أصحابه حملة الرايات من بعده، المهتدين بالثقلين، المتبعين لسيد الأولين والآخرين، ومن تبعهم بإحسان، أما بعد:

فهذه سيرة بيضاء، ولمحات ناصعات، وكلمات مباركات، عن شيخنا السيد العلامة القاضي حسين بن محمد بن مصطفى بن الشيخ أبو بكر - رحمه الله تعالى - (١)، كتبْتُها؛ لما له حق علينا، من تعليم وإرشاد، وارتباط بسند العلم إلى سيدنا رسول الله صل الله عليه وسلم.

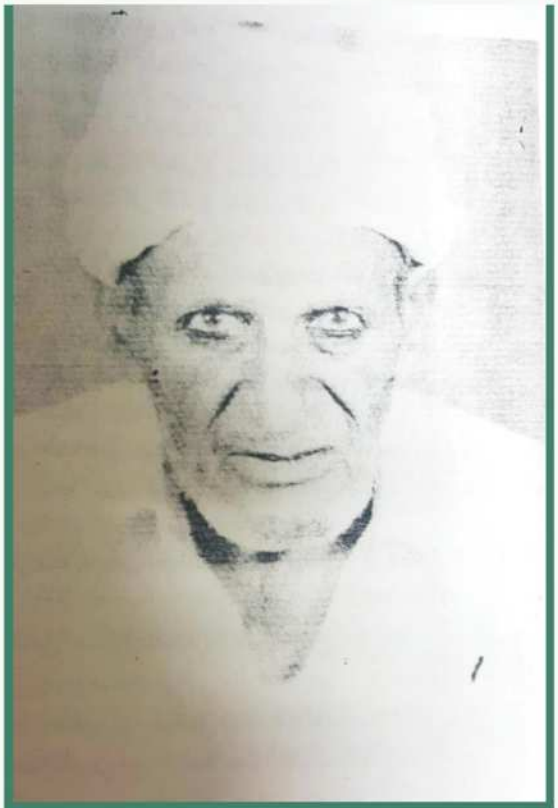


بقلم تلميذه
د. زين محمد حسين العيدروس

نسبه:

هو السيد العلامة القاضي حسين بن محمد بن مصطفى بن حفيظ بن أحمد بن صالح بن عبدالرحمن بن أحمد بن الحسين بن الشيخ بو بكر بن سالم بن عبدالله بن عبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالرحمن بن السقاف بن محمد مولى الدويلة بن علي بن علوي بن الفقيه المقدم محمد بن علي بن محمد بن علي بن علوي بن محمد بن علوي بن عبيدالله بن المهاجر أحمد بن عيسى بن محمد بن علي العريضي بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين علي بن السبط الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه- وأم الحسين فاطمة الزهراء رضي الله عنها بنت سيدنا رسول الله محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم (٢).

93
العدد (23)
يناير
مارس
2022م



السيد العلامة القاضي
حسين بن محمد بن الشيخ أبو بكر

نشأته وتعليمه:

ولد المترجم له – رحمه الله تعالى – في شعب النور، الشعب المبارك بالخير، والذي يُعَدُّ مكانًا لنزول الصالحين والأخيار، وشعب النور يبعد من الشحر قليلاً.

وتربّى على العلم ومحبة الخير، إذْ يَنْشأُ الإنسان على وفق البيئة التي عاشَ فيها، فأسرته مشهورة بالصلاح والعلم، والنجدة، والمساعدة، ومحبة الخير للغير.

ووالده أحد الصالحين الذين ارتبطوا من صِغره بالعلم والتديّن الصحيح، وله في العلم مكانة، وفي الشعر رصانة.

ففتَحَ المترجم له عينيه على القرآن الكريم، والكتابة والإفادة، والصبر على شظف العيش، والزهد في الدنيا، وهذا من أول عوامل بروزه ونبوغه.

وقد اعتنى والد المترجم السيد محمد بن مصطفى(٣) بابنه عناية مباركة، إذْ أخذه إلى غيل باوزير لطلب العلم بها، وكانت مركزًا ومهبطًا لطلاب العلم، وقد أسكنه والده عند بعض المحبين من قبائل آل همام، وبقي في الغيل مدة خمس سنوات، حفظ فيها من العلوم اللغوية والفقهية وغيرها.

وبعد خمس سنوات من التحصيل العلمي والسلوكي، عاد إلى شعب النّور، وبعد ذلك ذهب إلى تبَالهْ – قرية من قُرى الشحر – وذلك لمواصلة طلب العلم عند الشيخ العلامة سالم بن مبارك الكلالي(٤)، واستفاد منه في العلوم الشرعية ما يُؤهله لمناصب دينية مَرْمُوقة، وكان الشيخ سالم الكلالي من العلماء الربّانيين المباركين في تلك البلدة.

وقد عانى المترجم له من الحياة الصعبة مع والده الشيء الكثير، فقد سكن مع والده في تباله في منزل صغير، مع قلّة في المعيشة، ومع هذا كلّه لم يمنعه ذلك عن طلب العلم، والاستفادة من الخير وطلب المعالي.

وبعد أن فتحت بالشحر مدرسة مكارم الأخلاق، التحق السيد حسين بها مدة أربع سنوات، وانتفع بها كثيرًا ثم عاد إلى شعب النور.

شيوخه:

تلقّى المترجم له – رحمه الله – عن شيوخٍ مشهود لهم بالفضل، والعلم والصلاح، فكان ذلك سببًا في تخرّجه ونبوغه، وأثرًا كبيرًا في إخلاصه وزهده. ومن جملة شيوخه نذكر منهم على سبيل الذكر:

١ – الشيخ العلامة سالم بن مبارك الكلالي.

٢ – السيد العلامة علوي بن عبدالرحمن المشهور(٥)، وذلك في زيارته لوالد المترجم له، فقرأ على السيد المشهور بأمر والده رغم صغر سنّه، ونال منه أيضًا الدعاء.

٣ – الشيخ العلامة عمر بن مبارك بادباه(٦)، أحد تلاميذ السيد العلامة علي بن محمد الحبشي – رحمهما الله تعالى –.

٤ – السيد العلامة أحمد بن محسن الهدار(٧)، فقد أخذ عنه واستفاد منه وأجازه في علومٍ ودعوات.

أعماله والمناصب التي تقلّدها:

مكانة الإنسان وتمكّنه يؤهلانه لمناصب عالية، تحتاج لسياسة حكيمة، وعلم غزير، ولهاتين الميزتين – السياسة الحكيمة وغزارة العلم – تولّى القاضي حسين – رحمه الله – أعمالاً مهمّة في الدين والحياة الاجتماعية، ومن ذلك:

١ - تولّيه للقضاء: فقد تولّى القضاء مُدَّةً طويلة في مناطق مختلفة من مناطق ساحل حضرموت في الشحر والمكلا وغيرهما، فقام به أتمّ قيام مع فهم ثاقب، ووعي مُتوقّد لمجريات الأحداث، وقضايا العصر الغريبة.

٢ - تولّيه التدريس: تولّى القاضي حسين – رحمه الله تعالى – التدريس في علوم الشريعة بشتّى أنواعها، وكذا علوم الآلة، وكان نفعه للناس عن طريق التدريس للخاصة وللعامة:

فأمّا للخاصة:

فقد الّتف حوله جماعة من طلبة العلم كأمثال شيخنا الشيخ سعيد بن عمر باوزير(٨) – رحمه الله تعالى –، والشيخ سعيد بن عبدالله الرباكي(٩) – رحمه الله تعالى –، والشيخ عبدالله بامزاحم(١٠) – رحمه الله –، والشيخ محمد بن سعيد الرباكي(١١)، ومن المنتفعين به أيضًا: السيد عبدالله البيض(١٢)، واستفاد منه أيضًا شيخنا العلامة السيد عبدالله بن محفوظ الحداد(١٣)، فكانت بينهما صلة رحم العلم قوية، ومودة ومحبة خصوصًا لمّا كانا في القضاء معًا.

كما أنه لمّا استقر أخيرًا بمدرسة النور الأهلية المرتبطة بمسجد النور، وكان يقصده طلبة العلم للقراءة والاستفادة وتقديم الأسئلة، وكنتُ بحمد الله من المُتلقين عنه في تلك المدة، فقرأتُ عليه الرسالة للعلامة أحمد بن زين الحبشي كاملة، ومتن أبي شجاع، ومتن الآجرومية.


فَتحُ المُغِيثِ
بِشرحِ أنواعِ الحديثِ
ويليه
أربع منظومات حديثية
١) الجواهر من الحديث المتواتر
٢) غاية المرام بنظم صحيح الأخبار في الحلال والحرام
٣) تذكرة المسلسلات من الأحاديث النبوية المرويات
٤) نظم مختصر رياض الصالحين
للسيد العلامة القاضي
حسين محمد مصطفى بن الشيخ أبي بكر
رحمه الله تعالى
(ت ١٤٢٥هـ)
اعتنى بها
د. زين بن محمد بن حسين العيدروس
عفا الله عنه
١٤٤٠هـ-٢٠١٩م
{ ٢٧٠ }

ولمّا كان يعمل في القضاء أيام الشيخ العلامة عبدالله بكير(١٤) – رحمه الله تعالى – فرّغ من وقت السيد حسين – رحمه الله – لتدريس الشيخين السعيدين: الشيخ سعيد الرباكي والشيخ سعيد باوزير – رحمهما الله – فقرءا عليه في الفقه وغيره، ففتح الله عليهما، وبارك الله تعالى في أيامهما، ونفع الله بهما طلبة العلم، ولا زال كثير من طلبة العلم يستفيد ممَّن استفاد من الشيخين المذكورين.

وأما دروسه العامة: فكانت في المساجد، وكان له دروس في المساجد التي تولّى إمامتها قبل الصلوات وبعدها، في الفقه والتفسير والحديث، وكم حدّثني كثير من الناس من المنتفعين بدروسه العامة.

وقد تولى إمامة مساجد:

مسجد جامع قصيعر، مكث فيه أكثر من أربع سنوات، ومسجد جامع البلاد بالمكلا، مكث فيه إمامًا خلال أربع سنوات، ومسجد بمنطقة (مْحْمَدَهْ) بوادي حجر، ومسجد مشهور بالمكلا، ومسجد الروضة، ومسجد

النور بالحامي، ومسجد جامع الشرج بالمكلا، وقد ذكر إمامته بالمساجد الأربعة الأولى المذكورة في مقدمة كتابه: (تدريب القاري لمعرفة ما في تراجم البخاري)، وذكر أيضًا المساجد الأخرى في بعض كتبه.

٣- تولّيه للخطابة: تولّى السيد حسين - رحمه الله - الخطابة في المساجد التي قام بها، والتي يعقد بها صلاة الجمعة، ومن المساجد التي استقرّ بها آخر حياته مدة طويلة مسجد: جامع الشرج، فكانت خطبهُ واقعية ومختصرة، وتمتاز بوضوحها وسلامتها من الأخطاء اللغوية، التي نسمعها ليلاً ونهاراً من خطباء زماننا.

وقد اطلعتُ على جملة من خطبه، وقد كان يكتبها، وأحيانًا يَعدُّ الخطبة وهو يمشي في طريقه للجمعة، وهذا يدل على حرصه على وقته، وأن وقته كله مشغول في المطالعة وفي الخير، ويدل على تمكّنه من استحضار النصوص الشرعية، دون الرجوع إلى الكتب، وقد كان يكتب الخطب، وليس ذلك معيبًا؛ بل لكتابة الخطب فوائد منها: ضبط وقت الخُطبة، وإتقان قراءتها دون لحن أو إخلال، والاستفادة منها، فقد وجدتُ له ثلاث كراسات فيها خطب مُشكّلة بالفتحة والكسرة والضمة والسكون، وهي خُطب قصيرة، وهذه علامة على فقهه كما في الحديث الصحيح: (إن طولَ صلاة الرجل و قِصر خُطبته، مئنة من فقهه، فأطيلوا الصلاة واقصروا الخطبة، وإن من البيان سحراً)(١٥).

ومما استفدته من شيخنا المترجم له ذكره لصناعة الخطب المنبرية - أو أسس الخطابة - وهي:

١ - تفكير عميق في الموضوع الذي يريده علاجه.

٢ - تقسيمه في نفسه إلى عدّة نقاط.

٣- تخيّل الأضرار والمحاسن في الموضوع الذي يريد الخطبة فيه.

٤ - استحضار الزواجر المخوّفة من الأضرار بأسلوب تصويري حتى كأن المستمع يلمس الضرر بيديه، ويراه بعينيه.

٥ - استحضار المشوّقات للترغيب في العمل الحسن بذكر الفوائد التي تعود على الشخص في الدنيا والآخرة، واستعمال طرق التشويق بتزيين العمل المراد فعله.

٦ - استحضار الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، التي ترتبط بالموضوع.

٧- استحضار الحِكم والأمثال المناسبة للموضوع.

٨- ختم الخطبة بخلاصة وجيزة عمّا ذكره فيها؛ ليخرج المستمع وقد علِق ذلك بذهنه، فإذا راعى هذه الأسس وشرع في الكتابة مثلاً فينبغي أن تكون الخطبة مؤلفة من مقدمة تُشير إلى ما قصد الكلام فيه. -وهذا يسمى براعة الاستهلال-.

٤- التأليف: من أهم أعمال هذا القاضي العلامة هو تآليفه الكثيرة، والفريدة في الوقت نفسه، فكان لا يكتب إلا ما كانت الحاجة إلى الكتابة فيه، وكان له نظم في كثير من العلوم والكتب، وبلغت مؤلفاته نحو الخمسين، وفيما يأتي أذكر ما اطلعت عليها مع بيان مختصر عن كل كتاب:

١ - نظم (مطالع القصص فيما لها من العبرة في كل نص): وهو عبارة عن منظومة مرتبة على شكل فصول، أولها:

حمداً لمن قصّ لنا قصائصا أبدى لنا في طيّها خصائصا

في وحْيه القرآن والنبي في سنته الغراء فافهم واعرفِ

٢ - (بهجة الإنسان بنظم عجائب القرآن): هو عبارة عن نظم ما في القرآن من عجائب في سوره وآياته، إلا أنه لم يتمه. أولها:

حمدا لمن علّمنا التوحيدا بكلمة نقولها ترديدا

ثم قال:

وهذه عجائب القرآن نظمتها لتفرح الجنان

٣- **نظم في أصول الدين**: إلا أنه لم يتمه.

٤- **نظم كتاب الإحياء المسمى (جواهر الإحياء)**: وعدد أبياته ٧١ بيتًا أوله:

الحمد لله وصلى الله على نبيه ومصطفاه

ثم قال:

وبعد ذا نظم اختصار الإحياء أبوابه إن فهمت فتحيا

وقال آخره:

وتم ما رُمناه من نظم الكتاب والله يهدينا سبل الصواب

٥- **(فتح الرحمن في دروس القرآن في شهر رمضان)**: مشتمل على سبعة وعشرين درسًا.

٦- **(هداية الله للإنسان إلى مواضيع الكتاب من أم القرآن)**، وبحمد الله تعالى قمتُ بتحقيقه.

٧- **(نفحة القاري)**: نظم اشتمل على ذكر عد ما تكرر في القرآن ذكره، إلا أنه لم يتمه، أولها:

الحمد لله على أنعامه لنا بعلم الوحي من كلامه

ثم قال:

وهاك نظم العد الإعجاز حقيقة وليس بالمجاز.

٨- **(عجائب القرآن الكريم)**: كتاب اشتمل على عجائب القرآن من سور مختلفة في ٢٨ صفحة.

٩- **(عجائب القرآن)**: هو عبارة عن نظم لعجائب القرآن، إلا أنه لم يتمه. قال في أولها:

حمدًا لمن شرف بالقرآن نبيه محمد العدنان

ثم قال:

وهذه أرجوزة سميتها عجائب القرآن لأولى النهى.

١٠- **(تدريب القاري لمعرفة ما في تراجم البخاري)** إلا أن الموجود منه ١٣١ ورقة إلى باب ما يقول عند الخلاء.

١١- **(فتح الرتاج بتوضيح مسائل من الزبد والمنهاج)**، يشتمل على أربعة أجزاء، آخره الأطعمة، والجزء الأول غير موجود، وهو عبارة عن ذكر مسائل فقهيه من كتاب المنهاج للنووي، والزبد.

١٢- **منظومة (رياض الطلاب في بيان الحق والصواب)**، يقول في أولها:

حمدًا لمن أنزل في الأحكام كتابه المتقن بالإحكام

ثم قال:

وهذه منظومة الإحكام أخذتها من منبع الإسلام

ومن فتاوى العالم الشعراوي كأنها عن مذهب النواوي.

نظم فيها من فتاوى الشعراوي مع زيادات عديدة.

١٣- **(مورد العطشان إلى مسائل وشواهد زبد ابن رسلان)**: وهو كتاب عبارة عن مسائل الزبد جمعها على طريقة السؤال والجواب ليسهل حفظها، اشتملت على دروس إلى ٧٦ من كتاب الطهارة.

١٤- **(مقياس الناهض إلى علم الفرائض)**: وهو كتاب في جزئين، بأسلوب سهل مبسط مع الجداول، إلا أن الموجود الجزء الثاني فقط.

١٥- **(منحة الجواز في مسائل الألغاز)**: الموجود الجزء الأول منه إلى باب الحج، في ٤٤ صفحة، وتوجد منه نسخة أخرى بخط واضح، وتشتمل على ٣٦٥ صفحة.

١٦- **نظم حكم التشريع في الفقه الإسلامي**: أوله:

الحمد لله وصلى ربنا على النبي المصطفى حبيبنا

محمد خاتم رسل الله والآل والصحب بلا تناهي

وبعد هذي حكم التشريع قد نظمتها في الفقه والحُكم تعد

وقال في آخرها:

وذا تمام نظم المسمى دروس حِكم الإله فافهما

لا حول لا قوة إلا بالإله فهو الذي وفقنا لما يشاه

وهذا النظم مرتب على الأبواب الفقهية. ثم وجدت نسخة من النظم ناقصة، وفيها أبيات مزيدة.

١٧- **(فائح العطر والند بتوضيح مسائل الزبد)**، والكتاب عبارة عن أسئلة مأخوذة من نظم الزبد لابن

رسلان، وهي كشرح لها تبين مرادها وتتمم مفادها على شكل سؤال وجواب، الموجود منه الجزء الأول والثالث فقط.

١٨- (سفينة النجاة ببيان دروس في مفاهيم الصلاة): والكتاب عبارة عن معاني ألفاظ الصلاة وأفعالها وكيفيتها وصفتها وشروطها وأركانها وسننها ومكروهاتها ومبطلاتها، ولكن الكتاب ناقص، يشتمل على ٤١ ورقة فقط.

١٩- (إعانة الحكام بأقضية النبي خير الأنام)، والكتاب عبارة عن نظم لأحكام النبي قال في أوله:

حمدًا كمن علمنا الأحكاما من وحيه أوجزها إحكاما

وقال في آخر النظم:

نظمتها أقضية النبي لابن ظلاع الرضي الذكيي

٢٠- مختصر من كتاب (منحة الجواز في مسائل الألغاز) في الفقه، وهو عبارة عن ٤٠ ورقة.

٢١- (تحفة الطلاب الثقات في بيان حلول المشكلات)، ذكر فيها بعض المسائل التي سأل عنها، وهي من المشكلات عند الطلاب، إلا أنه ذكر فيه أربع مشكلات وحلها فقط، فالكتاب ناقص.

٢٢- (منحة الرحمن في مداخل الشيطان شرح على منظومة الحجب المنيعة لمداخل الشيطان الشنيعة)، وأصل النظم من كتاب (البيان مداخل الشيطان) لمؤلفه عبدالحميد البلالي، والكتاب ناقص، والموجود منه ١٥٨ صفحة.

٢٣- (المقامة الرمضانية في الرحلة الحامية)، يذكر فيه رحلته خلال شهر رمضان المبارك إلى الحامي للخلوة، وتعليم المسلمين، وذكر فيها استعراضه لأحوال المسلمين في شهر رمضان منذ عصر النبي صل الله عليه وسلم إلى زمنه، وتشمل على ١٨ ورقة.

٢٤- (الروائح العطرية بشرح القصيدة الحدادية) المسماّة النفحة العنبرية، والتي مطلعها:

يا رب يا عالم الحال إليك وجهت الآمال

ولم يتمه.

٢٥- كتاب فيه مجموع خطب الجمعة منوّعة بأسلوب رصين بليغ قصيرة في ١٥٣ ورقة، وكتاب آخر فيها خطب جمع به ٣٤ ورقة، وجزء ثالث فيه ٢٢ ورقة.

٢٦- (فتح الإله بنعم الله تعالى في سماه): وهو منظومة مختصرة عدّد فيها نعم الله تعالى على خلقه مع شرح لها مختصر، يقول في أولها:

الحمد لله على أنعامه والشكر للشكور عن آلائه

ثم قال:

وهذه في نظم نعم الإله سميتها تسمية فتح الإله

وفي آخرها يقول:

فهذه قبة نعم الإله فاعلم مكان الشكر لا تكن بساه

٢٧- شرح لطيف على منظومة في مقاصد القرآن الكريم في عشر صفحات، إلا أنه ناقص.

٢٨- (إحياء المعالم الدوارس بزيارة غار الحلائل والهواجس)، وغار الحلائل: غار بقرب منطقة شعب النور، كان يتعبد فيه أحد الصالحين من آل الشيخ أبو بكر بن سالم، ذكر فيها أنها رحلة علمية أدبية تأملية.

٢٩- (غذاء الأرواح والفكر بشرح المولد المسمّى سمط الدرر): وهو شرح لطيف على المولد الذي جمعه الحبيب العلامة علي بن محمد الحبشي، وصل في شرحه عند قول المؤلف: (فانفلقت بيضة التصوير في العالم المطلق الكبير) ولم يتمه، وتوجد نسخة أخرى منه، وهي ناقصة أيضًا.

٣٠- (بغية المريد للوصول إلى العزيز الحميد)، إلا أنه لم يتمّه، ويشتمل على ٢٩ ورقة.

٣١- مختصر لكتاب (غذاء الأرواح والفكر بشرح المولد المسمى سمط الدرر): وهو شرح يمتاز بفوائد كثيرة،

وأسلوب جديد في الشرح، وذلك بأن يأتي للكلمة الغريبة فيبين المراد منها عن طريق الآيات القرآنية والمعاني الأخرى لهذه الكلمة، ويجعل ذلك في جدول، والموجود منه إلى قول المؤلف: (صلاة يتصل بها روح المصلي) في ٨٥ ورقة.

٣٢- **(الدرر الحسان في المعاني والبديع والبيان)**، يقول في أولها: (أما بعد فهذه دروس تسمّى الدرر الحسان في المعاني والبديع والبيان جمعتها على طريقة السؤال والجواب) وصل فيها إلى ٣٤ درسًا.

٣٣- **(كنوز الألفية وبدائع مجازاتها اللغوية)**، وتوجد منها نسخة أخرى اسمها: (الإبانة عن كنوز الألفية وبدائع مجازاتها اللغوية) في ٣١ ورقة. وهي شرح لقصيدته أولها:

يا طالب النحو كم ذا أنت مشتغلُ
تروي تآليفه أجزا وأسفارا
وقلت إني أرى في النحو بغية ذي
لبٍ حوى كل علم فيه دارا

وهي منظومة في ١٤ بيتًا، ثم شرحها في هذا الكتاب، إلا أنه ناقص، وفيه ٤٢ درسًا.

٣٤- **المنظومة المتخلّلة في أبيات ملحة الإعراب**، وقد خلل أبيات من عنده على المنظومة في ٦١ بيتًا، وهي نسخة كاملة، إلا أن مقدمتها غير موجودة.

٣٥- **شرح تحفة الأحباب من ملحة الإعراب**، يقول في أولها: (فهذه فوائد علقتها على منظومة العلامة الشيخ عمر بن الوردي التي ضمنها أبيات النحو من ملحة الإعراب)، وسماها: (تحفة الأحباب من ملحة الإعراب)، إلا أنها ناقصة.

٣٦- **(نيل الأمنية بشرح خلاصة التحفة المرضية)**، يقول فيها: (فهذا شرح لطيف على كتاب خلاصة التحفة المرضية في العوامل النحوية، تأليف العلامة السيد عبدالله بن عبدالرحمن بن محمد بن شيخ بن الشيخ أبو بكر بن سالم مدير رباط بندر الشحر سابقًا، أمرني وأشار عليّ أن أشرح كتابه هذا بحسب ما يفتح الله عليّ فرأيت امتثال أمره حكم، والعمل بإشارته لي غُنم) إلا أنه ناقص. وتوجد منه نسخة كاملة مشتملة على ٣٨ ورقة.

٣٧- **دروس التوحيد**؛ كتاب مبسط على شكل سؤال وجواب، مأخوذ من كتاب تبسيط العقائد الإسلامية، لحسن محمد أيوب إلا أنه ناقص، موجود منه ٨ ورق.

٣٨- **(حياة الفقه في العصر الجديد)**، قال في مقدمته: (فهذه دروس في فقه الإمام الشافعي، أدخلت فيها كثيرًا من مسائل الألغاز والامتحانات، وأكثرها من استنتاجات فكري لا يوجد في كتب الفقه إلا القليل منها، فجاء بحمد الله تعالى كتابًا أعجوبة الزمان في جمع الألغاز والامتحان، فهو كتاب عجيب في بابه، غريب في إهابه لم يسبقني إليه في وضعه سابق، ولم يلحقني في طريقه لاحق...)، ويشتمل الكتاب على ١٠٩ درسًا، في ١٤٢ ورقة.

٣٩- **الرحلة إلى الحج**، وهي رسالة تضمنت رحلته لحج بيت الله الحرام.

٤٠- شرح لقصيدة ألقاها ترحيبية في الشيخ سعيد عبدالله الرباكي بمناسبة مجيئه من الأراضي الحجازية، لأداء فريضة الحج أولها:

يا مرحبًا أهلاً بكم أعداد حركة سيركم
وأكلكم وشربكم وكل خلقه باسمه

ثم شرحها شرحًا نفيسًا، إلا أنه لم يتمه.

٤١- **(الطرق الموصلات إلى فوائد المطالعات)**: الموجود منه الجزء الثاني، يشتمل على ٩٠ ورقة.

٤٢- **(سلك الدرر البهية في المسائل الفقهية)**: على مذهب الإمام الشافعي، وهو عبارة عن منظومة، وهي ناقصة آخرها في مبطلات التيمم أولها يقول:

الحمد لله الذي علمنا ولسلوك شرعته وفقنا
ثم الصلاة والسلام دائما على النبي خير من قد علما

٤٣ – (فتح المغيث بشرح أنواع الحديث)، وهو شرح لعشرة أبيات للعلامة محسن أبو نمي في أنواع الحديث، وقد قمت بتحقيقه بحمد الله.

٤٤ – منظومة (غاية المرام بنظم صحيح الأخبار في الحلال والحرام)، وهي منظومة كاملة.

٤٥ – نظم (تذكرة المسلسلات من الأحاديث النبوية المرويات)، وهو نظم كامل.

٤٦ – نظم (الجواهر من الحديث المتواتر)، وهو نظم كامل.

٤٧ – نظم (مختصر رياض الصالحين) وهو نظم كامل، وقد قمت بطباعة المنظومات الأربع الأخيرة.

وقد كانت له مكتبة عامرة بالكتب الدينية، والكتب المنوعة في شتى العلوم، حتى في الطب والجغرافيا والأدب واللغة وغيرها، وكان ينفق على الكتب التي يشتريها المبالغ الكثيرة؛ لأن عنده أن كل شيء يهان ما دام أنه في سبيل العلم، هكذا عاش في مُتعة القراءة، والمطالعة في الليل والنهار، ويأنس بالكتب ولا يفارقها، فتفجَّرت المعارف من لسانه وبنانه، فقد كان يُعلق على الكتب، ويشرح بعضها، وينظم بعضها من الكتب التي يهتم بها، ويرى فائدتها العلمية، وفي آخر حياته قام القائمون على جامعة الأحقاف، بشراء كثير من كتبه خصوصًا الموجودة بمسجد جامع الشرج بالمكلا، محافظة عليها، ووضعها بمكتبة كلية البنات، وجَعلت قيمة الكتب مبلغًا يُعطى له شهريًا إلى وفاته – رحمه الله –.

من شعره:

ممّا امتاز به السيد العلامة حسين – رحمه الله تعالى – سهولة شعره وقوة سليقته في قول الشعر، فكان إذا أعجبه شيء ألقى فيه قصيدة، أو رأى كتابًا استحسنه نظمه، كما سبق عند ذكر مؤلفاته.

ومن نظمه أيضًا قوله في قصيدة عن علم النحو وفضله:

يا طالب النحو كم ذا أنتَ مشتغلٌ
تروي تآليفهُ أجزا وأسفارًا
وقلتَ إني أرى في النحو بغية ذي
لُبٍ حوى كل علمٍ فيه قدْ دارًا.

صفاته وأحواله:

قال الإمام الشافعي – رحمه الله –: إذا لم يكن العلماء هم الأولياء فمَنْ؟ ويروى عنه أيضًا قوله: إذا لم يكن العلماء هم الأولياء فليس لله ولي.

فقد اتصف القاضي المترجم له – رحمه الله – بالصلاح والزهد، وكان من المحافظين على الصلوات في جماعات، والقائمين بحقوق الله تعالى أتم قيام، وبحقوق خلقه تعالى بأحسن وجه والتمام، وكان مجُاب الدعوة، كما يعرفه عنه من يعرفه، وله أحوال عجيبة غريبة، لا يخيّب الله تعالى دعائه وسؤاله.

وممّا يُلفت النظر أيضًا إلى أن مَنْ قرأ عنده أو تلقّى عنه العلم، نفع الله تعالى به، وبارك فيه، وقد أطال الله تعالى في عمره، فقد صرفه في التعليم والإرشاد ونفع الخلق، وكان إلى آخر حياته يذكر رحلاته العلمية، وحياته الاجتماعية، وما جرى له من عجيب ما رأى، ومن لطائف حياته وسيرته البيضاء.

واتصف السيد حسين – رحمه الله – باهتمامه باللغة العربية بشتى علومها، فكان إذا سمع خطأ لغويًا نبّه عليه، ولو كان في مجالس عامة، اعتناءً منه بلُغة القرآن، حتى أنه يُوقف المنشد إذا أخطأ، ويبيّن له النطق الصحيح في أثناء إنشاده كما رأيتُ ذلك منه مرارًا.

100
العدد (23)
يناير
مارس
2022م

وفاته:

بعد عمر مديد وحياة سعيدة قضاها هذا السيد الجليل، وبعد خدمة للإسلام والمسلمين، لبّى دعوة ربه، فقد توفي يوم السبت ١٤٢٥ هـ الموافق ٣/ ٧/ ٢٠٠٤م، عن عمر يزيد على مائة وعشرين سنة، بل قال بعض أحفاده: بأن عمره أكثر من ذلك، وله ذرية كثيرة، نسأل الله تعالى أن يبارك فيهم، وأن يَسلك بهم طريق أبيهم، وأسلافهم الصالحين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الهوامش:

١) أعطيتُ هذه الترجمة للسيد صالح بن أحمد بن سالم العيدروس الإندونيسي وكذا ترجمة شيخي الشيخ سعيد باوزير، بحسب طلبه، ونقلها كلها، وما فيها من تراجم بالهامش في كتابه (القدح المُملا من أخبار أعيان مدينة المكلا)، ولم يعزُ بالهامش لترجمتي بل نقل تراجم شيوخ المترجم له وتلاميذه من هامش هذه الترجمة، واكتفى بالإشارة نهاية كتابه في المراجع لترجمتي هذه، وهذا تصرّف غير مُرضٍ، ولا يليق بالأمانة العلمية، علماً أنه قصد الخير ولا أشك في ذلك، وذكرت هذا للعلم، والله المستعان!

٢) وجدتُ النسب المذكور بخط المترجم له -رحمه الله- في مقدمة كتابه فائح العطر والند بتوضيح مسائل الزبد.

٣) هو: محمد بن مصطفى بن حفيظ بن الشيخ أبو بكر، السيد الصالح والمربي، ولد بشعب النور من قُرى الشحر، وتلقى بها القراءة والكتابة عند والده وعمه، وتمكّن في باكورة طلبه من إجادة الخط، وقول الشعر، والتقى بعدد من رجال العلم والصلاح، ومنهم السيد العلامة علوي المشهور، الذي كانت بينه محبة وصحبة قوية، وكان يتصف بالزهد والنسك: انظر: لوامع النور، ١١٢- ١١٥.

٤) هو: سالم بن مبارك بن عبدالرحمن بن سالم الكلالي، الشيخ العلامة، والداعي إلى الله تعالى على بصيرة، وُلد ببلدة تبالة التي تقع شمال مدينة الشحر، نشأ الكلالي في جو الجهل والفساد، إلا أن الله تعالى أيقظ قلبه فتحرّك إلى بلدة الصداع، وتلقى العلم من شيخه الشيخ عمر مبارك بادباه، ونبغ في علوم الشريعة، فوجهه شيخه لنشر العلم، والدعوة إلى الله في بلدته، فتوجّه إليها، ولم يلق ترحابًا كثيراً، حتى جاء معه شيخه بادباه بالمساعدة، ومرّ بتبالة السيد العلامة علوي المشهور، وقام بنصرة الشيخ الكلالي، وبتشجيع الحركة العلمية، وتخرّج على يديه جماعة من أهل العلم منهم: عوض عليان، ومبارك باراشد، وشيخ بن علي بن الشيخ أبو بكر، والمترجم له، وتولّى القضاء بالشحر ثم اعتزله، من مؤلفاته: الفيوضات العميمة شرح الدرة اليتيمة في النحو، وذخيرة الناهض شرح عدة الفارض، والعدة والذخيرة في أحكام الجبيرة، وديوان شعر وغيرها، توفي عام ١٣٦٢ هـ. انظر: حضرموت فصول في الدول والأعلام والقبائل والأنساب للناخبي، صـ٩٤- ٩٩.

٥) هو: علوي بن عبد الرحمن بن أبي بكر المشهور، الإمام العلامة والداعي إلى الله تعالى، ولد بتريم عام١٢٦٣ هـ ونشأ بها، وأخذ عن عدد من أشياخ عصره، ثم سافر إلى دوعن وأخذ عن الشيخ محمد عبدالله باسودان سبع سنوات، ثم عاد إلى تريم، واشتغل بالتدريس سبعة عشر عامًا، ورحل إلى مصر، ومكث بها خمس سنوات، وأخذ عن علماء الأزهر، وتزوج بها، ثم ذهب إلى الحجاز، ثم عاد إلى حضرموت، وتصدّى للتدريس برباط تريم، وله رحلات إلى الهند وسيلان والسواحل، وأسلم على يديه خلق كثير، وبنى مساجد، توفي سنة ١٣٤١ هـ. انظر: لوامع النور، صـ٣٤، وقبسات النور للمشهور، صـ٢٢.

٦) هو: عمر بن مبارك بن عوض بادباه، العلامة المُربي القدير، والعالم النحرير والناسك الأوّاب، المولود بحصن العولقي المسمّى بالحزم، بقرب بلدة الصداع في أجواء عام ١٢٥٧ هـ، سافر الهند عام ١٢٨٢ هـ، ودرس القرآن وجوّده، وحصل على معلومات دينية وطبية واجتماعية وعسكرية، ثم عاد إلى سيئون لطلب العلم عند السيد العلامة علي بن محمد الحبشي، ومكث بها خمس سنوات، ثم عاد إلى بلدته الصداع معلماً ومرشداً ومصلحًا، فانتفع به الناس، وأقام حفلاً دينيًا سنويًا في شهر ربيع الأول يحضره جمع غفير، ويقوم بتذكيرهم وإرشادهم، ومن تلاميذه: الشيخ سالم بن مبارك الكلالي، والشيخ عبدالله بن عوض بكير، واستمر في العطاء حتى انتقل إلى رحمة الله تعالى وعمره يقارب ١١٠ عامًا عام ١٣٦٧ هـ. انظر: حضرموت فصول في الدول والأعلام والقبائل والأنساب للناخبي، صـ٩١- ٩٤.

٧) هو: أحمد بن محسن بن عبدالله الهدار، أحد العلماء الأولياء، المشهود لهم بالعلم والعمل، له شيوخ كثير منهم: السيد العلامة أحمد بن حسن العطاس، والسيد الإمام عيدروس بن عمر الحبشي، والسيد العلامة علي بن محمد الحبشي وغيرهم من اليمن وجاوة، وله ثبت مسمّى بالعقد الفريد، وله روض ولأنوار ومختصر كنز الأسرار في الصلوات على النبي صل الله عليه وسلم، توفي سنة ١٣٥٧ هـ. انظر: قبسات النور للمشهور، صـ١٧٥- ١٧٨.

٨) كتبتُ عنه ترجمة سميتها: (لَمحاتٌ وذكريات عن فقيه المكلا الشيخ سعيد عمر بازير) نشرت في مجلة (حضرموت الثقافية) العدد (٢٠).

٩) هو: سعيد بن عبدالله بن سعيد بن سالم بن مبارك الرباكي، الشيخ العلامة، والداعي إلى الله تعالى بصبر وعزيمة، والمربي للأجيال، اتصف الشيخ بالصلاح والخير، وله جولات دعوية وعلمية، فقد أسس مدرسة بالعيص -من ضواحي المكلا- وأسس مدرسة النور للعلوم الشرعية، الملاصقة بمسجد النور بالمكلا، وازدحم عليه الطلاب صغارًا وكبارًا في

أوقات مختلفة، ونفع الله تعالى به خلقًا كثيرًا، وله زيارة لبروم للدعوة إلى الله ونشر العلم، وزيارة المشايخ بها، ومن شيوخه: الشيخ مبارك الجوهي، والشيخ عبدالله بكير، والمترجم له، وكانت بينهما رابطة قوية ومحبة أكيدة، حتى قال السيد المترجم له فيه قصيدة طويلة يثني عليه وعلى مدرسته، جاء فيها:

اسئلوا أهل الزمان اسألوا كل الأنام خير من قد فقد إنه الشيخ سعيد
مدرسة نور العلوم شاهدة له بالعلوم انجلى به الظلام إنه الشيخ سعيد
ظل وقته داعيًا بين وعظ ذاكرًا فاتحًا صدره رحب إنه الشيخ سعيد

ومن تلاميذه: ابنه الشيخ الفاضل محمد الرباكي، الذي قام بمقام والده في مدرسة النور، تعليماً وإرشاداً، والشيخ سالم بن محمد باصم، والشيخ صالح بن سعيد باعطية، والشيخ عمر باماخش وغيرهم .وانتقل إلى رحمة الله تعالى يوم الأربعاء ١١/ شوال/ ١٣٩٩هـ، وقد أصدر رباط النور للدراسات الإسلامية بالمكلا - قسم الإعلام ترجمة وجيزة عن حياة الشيخ سعيد الرباكي، ومنها استفدتُ بعض الترجمة.

١٠) هو: عبدالله بن أحمد بامزاحم، الشيخ الفاضل والمقرئ لكتاب الله تعالى بإتقان، ولد بمدينة أجداده بروم، من ضواحي مدينة المكلا سنة ١٩٥٤م، وهو من تلاميذ المترجم له، ومن تلاميذ شيخنا السيد العلامة عبدالله بن محفوظ الحداد، ويأتي من مدينة بروم إلى المكلا لحضور دروس السيد العلامة الحداد -رحمه الله- وكذا دروس السيد العلامة علي محمد مديحج - رحمه الله - ويعمل بالجمعية الإسلامية الخيرية، التي أسسها شيخه الحداد، وهو إمام جامع بروم وخطيبه، ومتولي عقود الأنكحة، وتخرّج على يديه عدد كثير من الرجال والنساء حفظة كتاب الله تعالى، وله دروس عامة وخاصة لطلبة العلم بجامع بروم، توفي الاثنين ٨ ربيع الأول ١٤٤١هـ الموافق ٤/ ١١/ ٢٠١٩م -رحمه الله رحمة واسعة-.

١١) هو: محمد بن سعيد عبد الله الرباكي، الشيخ الفاضل ذو تواضع وأخلاق مرضية، له دروس في مدرسة والده لطلبة العلم، ودروس عامة تُبث عن طريق إذاعة المكلا، تولى مدير دائرة الإرشاد والتوجيه بمكتب الأوقاف بمحافظة حضرموت سابقًا، وتولىّ عقود الأنكحة، وتولىّ خطابة جامع الروضة مدة طويلة من الزمن، وهذه المناصب تدل على أنه ذو كفاءة عالية في العلوم الشرعية فجزاه الله تعالى خير الجزاء، وأمد الله تعالى في عمره في طاعته تعالى.

١٢) هو: عبدالله أحمد حسين البيض، السيد الفاضل، ذو خلق ظاهر وعقل رصين، ولد عام ١٩٥٤م واتصل بشيخنا المترجم له، وقرأ عنده الفقه، واستفاد منه، كما درس عند شيخنا العلامة عبدالله الحداد، وهو الآن إمام جامع خلف وخطيبه، ويلقي دروسًا عامة للمصلين، فجزاه الله تعالى خيرًا وأطال الله في عمره في طاعته.

١٣) هو: شيخنا عبدالله بن محفوظ بن محمد الحداد، السيد العلامة والقاضي الفهّامة، مفتي حضرموت بلا منازع، الذي أحبه الناس؛ لعلمه وتواضعه بلا مدافع، أخذ عن شيوخ مشهورين منهم: جده السيد محمد بن إبراهيم الحداد، والسيد العلامة عبدالله بن عمر الشاطري، والسيد العلامة المحدث علي محمد بن يحيى وغيرهم، له آراء اجتهادية، قوي مدركها، وله جهود خيرية اجتماعية مشهورة، كتشجيعه لحلقات القرآن الكريم، في مساجد المكلا وضواحيها، ومن أبرز مؤسسي الجمعية الإسلامية الخيرية، ومن المشاركين لجامعة الأحقاف، والمشرف عليها، وأسس قسم الدراسات الإسلامية بكلية التربية جامعة عدن -جامعة حضرموت حاليًا- وغيرها، وكان لا يخاف في الله تعالى لومة لائم، يقول الحقَّ ولو كان مُرًا مع غزارة علم وحكمة، من أشهر تلاميذه: شيخنا العلامة سعيد بن عمر باوزير، والشيخ عبدالله بامزاحم، والشيخ عبدالله براهم باعشن، والسيد عبدالله البيض، وأخي علي محمد العيدروس والذي اعتنى به شيخنا الحداد، واعتنى شقيقي بمؤلفاته، ونشر ما تيّسر له منها، ولشيخنا تلاميذ يطول ذكرهم. وله مؤلفات من أهمها: السنة والبدعة، وهو من أحسن ما أُلف في بابه، وقد طبع مرتين، والمقصد المنيف بمراجع الورد اللطيف وطبع بتحقيق شقيقي علي أيضًا، ورسالة في الغناء، والوجيز في أحكام الصيام وفتاوى رمضان بتحقيق شقيقي علي أيضًا، وخطب المساجد: بالتوعية الدينية عن طريق الخطب المنبرية، وقد طبعت في جزئين، وله فتاوى قيّمة في كراسات في طريقها للإخراج، وقد أفرد شقيقي علي محمد العيدروس ترجمة واسعة لشيخنا الحداد أسماها: شفاء الفواد بترجمة السيد عبدالله الحداد (يسرّ الله تعالى طبعها)، كما ترجم له الأخ الشيخ سالم بن عبدالله باقطيان ترجمة مختصرة، وطبعت باسم: سيرة خضراء، وجدير بهذا الإمام أن تُكتب عنه دراسة مفصّلة عن شخصيته وآرائه، وما قام به من جهود علمية واجتماعية، وقد توفي ظهر الجمعة ١٣/ محرم/ ١٤١هـ الموافق ١٠/ ٢٥/ ١٩٩٦م، وقد شجعه عدد كثير بالآلف، وهي أول جنازة في المكلا يشهدها هذا العدد، فرحم الله تعالى شيخنا الحداد ورفع درجته.

١٤) هو: عبد الله بن عوض بكير، الشيخ العلامة القاضي، ولد بغيل باوزير سنة ١٣١٤هـ، وانتقل إلى القارة، وتعلّم بها القرآن الكريم في كتّاب بالقرية، وأكب على القراءة والمطالعة، في العلوم الشرعية عند شيخه عمر بن مبارك بادباه، والشيخ عمر بن سالم بن يعقوب باوزير، التحق بخدمة القضاء الشرعي في الدولة القعيطية سنة ١٣٥١هـ، وأصبح رئيس القضاة الشرعيين، وله بعض الإصلاحات في القضاء وغيره، من مؤلفاته: رسالة في بيع العهدة، وثبوت الهلال، وله شرح على سفينة النجاة. انظر: حضرموت فصول ودول للناخبي، صـ١٠٣-١٠٦.

١٥) رواه مسلم في صحيحه ك: الجمعة باب: تخفيف الصلاة والخطبة ح٨٦٩.

102
العدد (23)
يناير
مارس
2022م

عمر العمودي لمجلة (حضرموت الثقافية):

وجدت نفسي أكتب القصة القصيرة لأني أحببت هذا النوع من الكتابة



عمر محمد العمودي شاب عشريني، من مديرية أحور بمحافظة أبين، عاش مع أقرانه ويلات الأزمات، التي تعصف بالبلاد لكنه اتجه إلى عالم الأدب، ينزوي وحيداً، تدور في مخيلته أفكارٌ يترجمها في بعض الأحيان إلى قصص، وأحيانًا أخرى إلى هواجس مشاغبة؛ تعبيراً عما في نفسه من أسى مكبوت، دفعه لخوض تجربة تأليف كتاب (لاجئ لم يفر من الحرب).. عمر العمودي وجد نفسه فارغًا بعد مرحلة الجامعة ليقتحم المجال الأدبي كاتباً...

حاوره/ يوسف باسنبل

• كيف وجد عمر العمودي نفسه في عالم الأدب؟

– أحب قراءة الأدب منذ طفولتي؛ فقد كنت حريصًا على اقتناء المجلات، مثل مجلتي العربي الكبير والصغير، ومجلة ماجد، وبعض روايات الجيب، وروايات أجاثا كريستي البوليسية. وكنت أكتب خواطر، أو أضيف إلى بعض العبارات التي أحفظها أو أحاول محاكاتها في دفتر قديم لم أعد أحتفظ به. حتى أنهيت الجامعة، وكانت مرحلة فراغ بعد التخرّج، كما تعرف وضع البلد، وإغلاق جميع المنافذ الممكنة للمستقبل ماعدا الجبهات. وجدتني آنذاك أكتب خربشات وخواطر بشكل يومي، ولاحظت الفوارق بين كل مرحلة وأخرى، ومازلت لا أنظر للكتابة بجديّة.

• أول قصة كتبتها هل تتذكر عنوانها ؟

– أتذكّر أنني قمت بكتابة قصة، طلب منّي الأستاذ سعيد الخضر العمودي أن أكتبها ليقوم بتوجيهي، بعد أن قرأ لي بعض الخواطر.. بعدها لم أكتب شيئًا في المرحلة الجامعية، حتى تخرّجت، فعدت لهذه الوسيلة كمحاولة للسيطرة على الوقت.

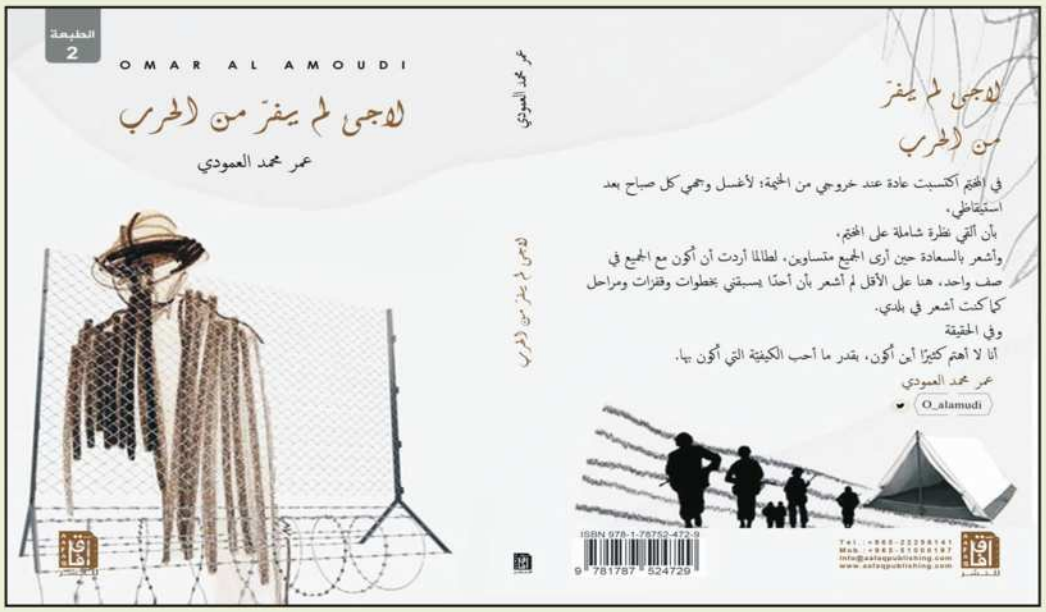
• ماهي أبرز أعمالك الأدبية إلى الآن؟

– كتابٌ، عبارة عن مجموعة قصصية، طبع في دار آفاق الكويتية، يحمل عنوان لاجئ لم يفر من الحرب.

• من أين استلهمت فكرة الكتابة القصصية؟

– كنت أكتب دون التقييد بجنس محدد، كتبت نصوصًا لا أعرف جنسها، وخواطر، وأقاصيص، ووجدتني أكتب القصة القصيرة فيما بعد لأنني أحببت هذا النوع من الكتابة.

103
العدد (23)
يناير
مارس
2022م



• **المجتمع الذي تعيش به وسط أقرانك الشباب هل تجد منه التشجيع؟ وما دور أسرتك فيك؟**

– في البدايات كنت أعرض ما أكتبه على الأستاذ سعيد الخضر العمودي، فكان يقوم بتشجيعي، فدائماً أشعر بالامتنان تجاهه. أيضًا هناك بعض الأصدقاء والأقارب. ووجدت تحفيزًا كبيرًا وتشجيعًا من الأهل، ولمحت فيهم مشاعر اعتزاز بما أفعل مؤخرًا؛ وذلك ما يبقيني مستمراً.. ولعل أبرز ما ربطني بالأدب مكتبة والدي، التي اعتدت على القراءة منها صغيرًا، وكذلك اهتمام أخي بقراءة المجلات سهّلت علي الكثير في توفيرها، وحبّبتني فيها.

• **ماذا يحتاج عمر للكتابة؟**

– بدأت بممارسة الكتابة لأنني أنا من أحتاج إليها، وما زلت أشعر بذلك. لكن مع عدم وجود الوقت والفكرة ستكون عملية الكتابة معقّدة.

• **كيف سقطت في حب مذيعة قناة العربية الحدث كريستيان بيسري؟ وما حقيقة الرسالة التي وجهتها لك؟**

– ما كتبته عن كريستيان ربما كانت حالة شعورية حينها، وأعتقد بأنها رغبة في الكتابة والتقاط زوايا عدة لإذابتها في النص. لم أكن أتوقع أبدًا أن يصل إليها النص، ولم أتخيل مدى انتشاره.

العمودي:

"بدأت بممارسة الكتابة لأنني أنا من أحتاج إليها، وما زلت أشعر بذلك. لكن مع عدم وجود الوقت والفكرة ستكون عملية الكتابة معقّدة".

كريستيان تواصلت معي برسائل خاصة على تطبيق تويتر قامت بشكري فيها. لكن لم تكتب ذلك النص المتداول الذي يحمل اسمها. فقد كتبه صديقي سلمان الباتلي، وقد قمت بإيضاح ذلك حينها.

• **إلامَ يعزو الكاتب أسباب نجاحه؟**

– أرى أنه على الكاتب أن يكتب، وأن يستمر بالتطوّر والتقدّم في مجاله.. النجاح سياتي وحده.

• **مَنْ مِنَ الكُتَّاب تحرص على القراءة له ومتابعته؟**

– قيس عبدالمغني.

104
العدد (23)
يناير
مارس
2022م

شهارة.. قصة عشق لا تنتهي



سالم محمد بجود باراس

شهارة تلك القرية الجميلة... تحيط بها الجبال كأنها تحتضنها بين ذراعيها، شهارة أرض وإنسان... شهارة تهب منها نسائم البشرى حينما تتفتح الأزهار وتسقط الأمطار، أحبَّ صالح قريته من الرأس حتى أخمص القدمين.

كان صالح فلاَّحًا يعيش معظم وقته في مزرعته الصغيرة... وغالبًا ما تأتي مريم تجتاز الساقية برجليها الرشيقتين وعلى وجهها ابتسامة الربيع... يكاد ثوبها الأحمر يعانق الأرض شوقًا ولهفة... تحمل على رأسها سلة مصنوعة من الخوص... وبداخلها كسرة خبز وقطعة بصل... فتجلس وتنادي.

تعال يا صالح فالفطور جاهز يكفيك عناء اليوم... ويأتي صالح والعرق يتصبب من جبينه... كان قصير القامة... معتدل الجسم... تجاوز الأربعين عامًا... بدأ الشيب في رأسه كأنها نجوم في ليلٍ دامس... جلس فأخذ رشفة ماء ليرطب عروقه، وقال: الأرض يا مريم تأخذ منا أكثر ما تعطينا، ولكن ماذا نقول، منها خلقنا وفيها نموت!

ابتسمت مريم ابتسامة أشرقت من خلالها أسنان كأنها اللؤلؤ والمرجان، أحس صالح بنشوة السعادة، ونسي تعب هذا اليوم، ثمَّ قالت مريم: لا عليك يا صالح ما دامت السعادة تظللنا بظلالها، فنحن بأحسن حال، كُلْ بالهناء والشفاء.

فقال صالح: أنتِ زوجة صالحة، وتعرفين معنى العيش والملح.

ولكن دوام الحال محال... جاء ابنهم علي من السفر الذي دام خمس سنوات في طلب الرزق جاء ليقول لهما: إننا نعيش في جحيم... جاء علي وهو يرتدي ملابس أنيقة، تنمُّ عن شخص قد كسب مالاً وفيراً... استقبله أهل البلد بفرحة لا توصف... ذهب أحدهم ليحمل البشرى لأبيه صالح وأمه... فما أن سمعا الخبر حتى رمى صالح كسرة الخبز من يديه وهو يقول: لقد جاء ابننا يا مريم، اللهم لك الحمد، وسجد على الأرض ليحمد الله على وصول فلذة الكبد وابنهم الوحيد علي.

جرى صالح من شدة الفرح وكان التراب لا زال في يديه... فلما رأى ابنَه عليًّا تساقطت الدموع من عينيه على الأرض فاتحًا ذراعيه ليحتضن ابنه عليًّا... ولكن يا لهول ما حصل!!

قال علي: وعلى مسمع ومشهدٍ من الناس: يا أبي اغسل يديك حتى لا تتسخ ملابسي ؟

وقف الأب متسمِّرًا في مكانه، ويداه ممدودتان كأنهما حمامة تلاعب أفراخها... كانت مريم خلفه عندما سمعت ما قال ابنها علي فلم تتكلم بكلمة واحدة، بل دخلت بيتها لتلطم خدها وتبكي، وعليه دموع الحسرة والندامة.

105
العدد (23)
يناير
مارس
2022م

انفضَّ الناس وهم يقلِّبون كفًّا على كف... طوى صالح ذراعيه وهو يرتعش كريشة في مهب الريح صارخًا ينادي في أعماقه (أهذا علي الذي أنجبته من لحمي ودمي وربيته حتى استقام عوده، كلا إنه ليس ابني، ليس ابني، ولن يكون ابني، لقد مسح التراب بوجهي أمام القاصي والداني...).

دخل صالح غرفته وساد الصمت في أنحاء الجدران كأنّ مأتمًا حلّ بالدار... ظلّ علي واقفًا لا يعرف ماذا فعل ولماذا فعل هذا؟ إنها جملة واحدة قالها كانت بقصد أو بغير قصد، غير أنها قلبت الموازين رأسًا على عقب... عاد علي أدراجه من حيث أتى بعد أن خلّف جرحًا داميًا لا تداويه السنون.

ليس هناك حديث في القرية وكل القرى المجاورة غير حديث علي، الذي استقبله أبوه صالح بالدموع والفرح، وكيف انقلب الأمر في لحظة واحدة إلى حزنٍ عميق غائر الجراح؟!

وبعد صمت مميت نطق صالح وهو يتأوه ويئن من فلذة كبده قائلاً: يا مريم من اليوم إنسيَ بأنك رضعتِ ابنًا اسمه علي، آه يا مريم لو ربَّيت كلباً لوجدت منه الوفاء والإخلاص، يا حسرتاه لقد سوّد وجهي أمام القاصي والداني!!.

مسحت مريم دموعها وهي تقول: يا صالح هذا قدر، ومن كُتِبت عليه الأقدار مشاها، اصبر وسوف يأتي الله بغلام نشفي به جروحنا ويكون لنا نعمَ الابنُ البار.

ولكن الأقدار أنشبت أظافرها من جديد... لقد أجدبت الأرض... وجف ضرع السماء، باع صالح كل ما يملك... وكانت الحياة قاسية لا ترحم ولا تشفق، وكان البقاء للقوي.

قرر صالح السفر ولا رجعة عن قراره، كانت وجهته مصر، أرض الحضارات، ومهبط الرسالات، قال لزوجته: يا مريم أنتِ حياتي، ونور قلبي، وهذا الجنين الذي تحملينه هو الروح التي تربطنا، ولهذا قرَّرْتُ السفر إلى مصر؛ لكي أوفر لقمة العيش، اذهبي عند أبيك مرزوق؛ فهو أيسر حالاً منِّي، وسوف يعتني بك.



يا مريم أنتِ لا زلتِ في سنِّ الصبا وريعان الشباب، فإن تأخرت على السنتين فتزوجي؛ فإنك لا تعلمين ما فعلتْ بي الأقدار.

يا مريم تذكري (إن هذا قدر ومن كُتِبت عليه الأقدار مشاها).

وهكذا وبهذه الكلمات الحزينة ودَّع صالح زوجته مريم، ودموعها تلامس الأرض التي طالما كان صالح يقول: الأرض يا مريم تأخذ منا أكثر ممَّا تعطينا.

وفي مصر ظلّ صالح يعمل ويكد على نفسه ليل نهار حتى ضعفت قوته ووهنت عزيمته، فجلس في بيت صديقه أيوب الذي تعرّف عليه في المصنع... كان أيوب متزوجًا ولكن شاءت الأقدار أن يكون عقيماً... كان دائماً ما يأتي بجريدة الأهرام ليسمع آخر الأخبار، وفي إحدى الأيام عاد صالح على غير عادته إلى البيت، ففتحت له زوجة صديقه أيوب الباب وكانت تحمل الجريدة... فرأى صورة ابنه علي، فقال: يا بركة اقرئي هذا الموضوع عمَّ يتحدث؟ هذا موضوع يتحدث عن شخص اسمه علي صالح الدوش مهرِّب مخدرات قبض عليه في مطار

القاهرة، فما أن سمع ما قرأت بركة حتى سقط على الأرض مغمًى عليه، فصرخت وهي لا تعلم ما جرى لصالح... في هذه اللحظة دخل أيوب وحمله إلى المستشفى وظلّ أيوب وزوجته عنده حتى استعاد عافيته، وقال: أسمعت يا أيوب ما فعل علي صالح الدوش؟ إنه مهرب مخدرات وأسلحة! آه يا أيوب.

فقال أيوب: أتعني هذا الشاب الذي يهرب السموم للمجتمع ويعيث فساداً؟!

نعم! يا أيوب إنه ابني.

ابنك يا صالح؟!!

أجل! أجل! وغارت عيناه بالدموع.

ثم حكا لهما ما حصل حتى سافر إلى مصر لكي يوفر لقمة العيش لزوجته والجنين المنتظر.

عادوا إلى البيت والأسى يخيم عليهم كسحابة سوداء... وفي الصباح ذهب صالح وصديقه إلى المصنع ليعملا بجدٍ ونشاط.

ودارت الأيام والشهور حتى أكمل صالح سنتين... قرر العودة إلى قريته شهارة، ودَّع صديقه وزوجته وداعًا لا رجعة بعده.

استقل صالح سيارة أجرة إلى المطار ولكن؟

بدأت عيون السائق تراقبه عن كثب... كان صالح يغوص في ذكريات (شهارة) تلك القرية الجميلة بجبالها وسهولها وأشجارها الخضراء... كان يحن إلى زوجته مريم... أغمض عينيه فالطريق طويلة إلى المطار.

وما شعر صالح إلا بضربة هوت على رأسه أفقدته الوعي... فما أحس إلا برجل يهزه ويقول له:

يا بيه جرى لك إيه! إيه إللي حصل ذا نافوخك بيسيل دم؟! فقال صالح: أين السائق، فلوسي سرقت يا ناس؟

لا حول ولا قوة إلا بالله يا أخانا ذا الحرامية ما خلوش لولاد الحلال حاجة، قم يا بيه نروح أقرب مركز شرطة ونبلغ النيابة بللي حصل في الناس الغلابة ده.

وبلَّغ صالح الشرطة، وعملت محضراً، وسُجلت الواقعة ضد مجهول أخذ صالح يدور حول نفسه لا يدري لماذا جاء إلى مصر؟! لقد فقد الوعي جملةً وتفصيلاً.

فقال الفلاح له: يا بيه تعال معي واحكِ أيه إللي جرى لك من الأول إلى الآخر.

فقال صالح: أنت مين؟!

أنا الحاج عبدالمعطي، صعبت عليَّ قوي قوي، ولكن أنت مين وجاي ليه، باين عليك من بلاد بعيدة صُح والله أني غلطان يا بيه؟

أنا... أنا... أنا مين؟!

إيه أنت مين، يعني إيه، نافوخك ضربت الله يصيب ولاد الحرام.

وعاش صالح عند الفلاح المصري عشر سنوات، وأطلق عليه اسم محمود الغريب... وفي إحدى الأيام سقط وهو يحرث الأرض على حجرة... في إثرها استعاد صالح ذاكرته ووعيه فجلس على الأرض، ووضع كفَّيه على خدَّيه، وصار يستذكر كل شيءٍ، ثم قال في نفسه: ياه لقد تغيرت ملامحي! يا ترى كم جلست عند هذا الرجل الطيب؟ آه يا زمن كل المصائب على الغلابة؟! في هذه الأثناء ناداه الحاج عبد المعطي قائلاً: إيه تفكر في إيه يا محمود؟

محمود أنا محمود هه هه هه حتى اسمي تغير آه يا دنيا.

فقال عبدالمعطي: يعني رجعت لك الذاكرة، الحمد لله، ياه بعد عشر سنوات يا بيه.

عشر سنوات وأنا عندك يا حاج عبد المعطي، يا رجل يا طيب! الله يجزيك خير الجزاء.

ثم حكا لصديقه قصته، فقال: أنا لا أدري كيف أشكرك يا حاج عبدالمعطي، لقد أكرمتني كل هذه السنين، أنا فعلاً مدين لك بحياتي يا حاج.

فقال الحاج عبدالمعطي: ما تقولشي حاجة، البلاد ما زالت بخير، الجدعان موجودين في كل حته، الله معاك يا بيه.

ببساطة الريف المصري ودّع الحاج عبد المعطي صديقه صالح ليعود إلى قريته شهارة.

عاد صالح كما ذهب أول مرة من بيته صفر اليدين... عاد بقلبٍ مهشم وأحزان لا تنقطع، أطلَّ على قريته (شهارة) وهو يُقبِّل الأرض وكل ذرة من رمالها... بدأ نظره يضعف ولكن لا زال هناك بصيص من النور في عينيه... ليرى من خلاله مزرعته الصغيرة وقد دبَّت الحياة فيها... يرى الطيور وهي تزقزق وتغرد وتغنيه أغنية الغائب عن شهارة.

لا زال يسمع حفيف الأوراق وهي تتساقط كسنوات عمره التي ذهبت ولم تعد... ويسمع خرير الماء كأنه لحن عذب حزين... لم يتمالك نفسه الحزينة فتساقطت دموعه كحبات اللؤلؤ لتحكي مرارة غربة ذاق منها المُرَّ والعلقم... تذكر صالح زوجته مريم تلك الزوجة الوفية التي بذل لها عمره حتى يسعدها ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، وقال في نفسه: بعد هذه السنين لا أظن ولا يعقل أنها تنتظرني، لقد تزوجت بالطبع، وأصبحت تحب أولادها، فلن أُعكر صفو حياتها مع زوجها، يكفي ما عانت من الأقدار ومن حظي التعيس، سأذهب إلى أخي أحمد في القرية المجاورة لكي أعيش عنده بقيَّة عمري.

وذهب صالح إلى أخيه أحمد فاستقبله بالأحضان، لقد كان أحمد يصغره بعشر سنوات، وهو متزوج وله خمسة أبناء.

وبعد أن قص عليه صالح قصته قال: ولهذا يا أخي لا أريد أن أعكر صفو حياتها، لهذا يا أحمد سأعيش معكم حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولاً.

قال أحمد: يا أخي أنا وأنت من دم واحد، وهؤلاء الأولاد أولادك وسوف أعتني بك وأمسح في هذه الأرض همومك وأحزانك.

وذهب أحمد إلى شهارة وصالح لا يدري ثم أحضر له بشرى لا تساويها جبال من الذهب والفضة، جلس أحمد وأمامه رجل وسيم لم يبلغ مبلغ الرجال بعد، ولكنه يحمل صفات الرجل، وكان قوي البنية... مُشرق الوجه... يبلغ الثانية عشرة عامًا... لا تعرف مريم ما يريد أحمد منهما، دخلت هي عند زوجته إيمان ولم تكلِّمها بشيء عمَّ يخطط له زوجها أحمد.

أخذ أحمد يوسف إلى المجلس الذي يجلس فيه أخوه صالح، وقال: يا صالح هذا يوسف زميل عبد الله ابني في الدراسة، جاء اليوم عندنا لكي يراك بعد طول غياب.

فقال صالح: أهلاً يا يوسف يبدو عليك الوقار يا بني، إنك تذكرني بابني علي، فيك ملامح منه غير أنه لص يا بني.

فقال يوسف: احكِ يا عمي قصة ابنك هذا فأنا متشوق لسماعها؟

ثم أخذ صالح يحكي والدموع تتساقط من عينيه على لحيته البيضاء، فانتهزها أحمد فرصة ودخل إلى زوجته مريم وأخبرها بالبشرى وخرجت مريم وصالح يحكي قصته والدموع لم تنقطع بعد، وقالت بصوت حزين والدموع تسبقها: يا صالح أنا على العهد ما حييت يا صالح (هذا قدر ومن كُتِبت عليه الأقدار مشاها).

انتفض صالح كالطائر، وقام وهو يقول: مريم مريم، لا أصدق ما ترى عيني أنا في حلم أو في علم.

فقالت مريم: بل أنت في علم، وهذا ابننا يوسف.

فصاح يوسف: أبي أبي أنا لست يتيماً معي أب وهو يبكي ويصرخ، ويحتضن أباه بكلتا يديه، ودموعه كالسيل من الفرح، فاللقاء بعد يأس وطول انتظار بشرى لا تساويها كنوز الأرض فأبكى بصوته الحزين كل من كان في البيت، وتعانقا عناقًا لا فراق بعده أبدًا، عناق الروح للجسد، وعناق الأرض لتربة شهارة. وقال: لقد عدت يا مريم عدت لشهارة وعدت لابني وزوجتي، آه يا مريم كم أنا ممتن لكِ، لا زلتِ على الوفاء والإخلاص يا مريم.

لا زالت هذه العبارة تتراءى لي كالروح تعانق الجسد وتلتصق به (هذا قدر ومن كُتِبت عليه الأقدار مشاها).

108
العدد (23)
يناير
مارس
2022م

نوافذ حضرمية على شجن في الطريق

نصوص قصيرة جدًّا



صالح سعيد بحرق

أحلام باهتة

لساعات طويلة يظل يحلم .. ينقش على غيم الذكرى ألوان الأحلام .. يستمطر المنى .. يستفتح من كتب العشق لونا جديدا لحياته ..

يستعذب الأمنيات أن تهطل .. وتجرفه إلى حياضها .. يذهب في خيالاته .. يستشف الرؤى القادمة .. يخطط، يدع الأيام أن تسعفه بحلم نهائي .. وفي كل مرة يعود خالي الوفاض ..

وعود صغيرة

خبأها لأمه ذات يوم وحبيبته / ومع الأيام ذهبت أدراج الرياح / حزن كثيرًا / وكلما نظر في عيني حبيبته تألم أكثر / يجلس الآن يتباكى / على حلم الأمس / ويهمس للمدى علها تعود..

ذات فجاءة / أصر على استرجاعها / عقد العزم من أجل عيني أمه وحبيبته /

بيد أن عجلة الزمن / كانت لا تدور للوراء..

اصطفاف

بعد استشهاده تفرغت لتربية ولدها .. أسدلت الستار على الحب.. وجنحت للأمومة .. ذات صيف كما في كل عام .. تهلُّ ذكرى استشهاده .. تضع الورد على قبره .. وتجدد العزم .. تقفل أبوب الشوق .. تحبس دموع الأمس.. لكن الحنين ما يلبث أن يباغتها.. في المساء وقفت أمام المرآة.. هالها الأمر.. من بضع شعيرات بيضاء على مفرقها .. ضحكت وحزنت في سرها كثيرا.. قبل أن تحتضن وليدها .. وتقفل آخر باب شوق..

أشياء

عاد الشباب من الجبهة ولم يعد ..

أربكها الأمر فبكت

ذهبت إلى المخفر

كان الجميع يبكي.. فبكت مرة أخرى.. وعادت بقميصه..

ومنذ ذلك اليوم لم تبك ..

مسرة

انطلقت الحافلة بمن فيها من المسافرين / ساد صمت طويل قبل أن يبدِّده سعال رجل عجوز/

أطل من النافذة على الطبيعة والأشياء / تذكر فصولاً من الماضي / أحس بانتعاش ومسرة / التفت إلى امرأة بدينة تحتل المقعد الخلفي / التفت إلى شابتين .. جميلتين / وبدأت تنهمر عليه منهما المسرة ..

بشاشة

لا أعلم أنها تضجرت منا ذات يوم .. كنا صغارًا إذا اشتد بنا العطش ولجْنا دارها .. فتلقانا بجسمها البض الممتلئ وبشاشتها .. ترسم على وجوهنا رحلة أخرى للصباح .. تعلمنا من أين تأتي البشاشة..

ذات يوم دفَّأتني في حجرها .. أحسستُ للتوِّ من أين تأتي تلك البشاشة ..

109
العدد (23)
يناير
مارس
2022م

لو كُنتُ.. لكُنتُ!!



علي سالم الشرفي

لو كنتُ طبيبًا لكنتُ سفّاحًا.. تحتَ الجلد البشريِّ أكثرُ من مجرَّد لحم!!.. عيونُ شياطين!!

لو كنتُ لاعبًا لكنتُ لاعبَ نرد.. إذن لحاولتُ وحاولتُ رميَ وطني مرارًا ومرارًا!!.. لعلَّهُ يستقرُّ على وجه سعيد!!

لو كنتُ كلمةً لكنتُ (أحبُّك).. في العالم ما يكفي من ضجيج كلمة حرب!!

لو كنتُ شفيعًا لكنتُ مقصًّا.. لأخصمَ من جسد المسافات مقداراً كبيراً من البُعْد!!

لو كنتُ ساعيَ بريد لكنتُ رياحا.. أريدُ إيصالَ الرسائلِ المخبوءة، والآهاتِ المحصودةِ في حقولِ الليل، إلى مُثيري الشَّغَب في القلوب!!

لو كنتُ جحيماً لكنتُ (لنفترق)!!.. ماذا بقيَ بعدَها من أناشيد النار؟!

لو كنتُ أرقًا لكنتُ وجودًا.. ناجٍ بلا كُلفة!! محظوظٌ من لم يسمح له الإلهُ بالخروجِ من شرنقةِ العَدَم!!

لو كنتُ سجنا لكنتُ إيمانا.. الخَرَسُ الأعمى يمضَغُ لسانَ الأسئلة القَلقَة، والصوتُ الأوحَدُ مكرورٌ في عُلبَة لا تُمس!!

لو كنتُ حريةً لكنتُ شكًّا.. قد شاخت الأجوبة، والقلبُ يدنو، والأسئلةُ يافعةٌ مبتَسمة!!

لو كنتُ قاتلاً لكنتُ جَشَعًا.. رغيفُ البُسَطاء مُتَّهَمٌ في لونهِ الذَّهَبي.... الصلاةُ على روحِ الرغيف!!

لو كنتُ منتحراً لكنتُ فكرة!! .. الرصاصةُ في الرأس عبقرية!!

لو كنتُ وطنا لكنتُ وسادة.. هَهُنا الجميعُ يرضَعُ أُصبُعَه.. ههُنا الشرُّ ينام، والسِّلاحُ والحربُ والبُكاء!!

لو كنتُ مرسًى لكنتُ حُضنَ أمِّي.. مهما نُفينا في ألف بُعد، وحُصدنا في ألف درب، ونُثرنا في ألف ريح، تُعيدُنا بُوصَلَةُ الحليب!!

لو كنتُ حصنًا لكنتُ حذائَي أبي.. لا الفزعُ ولا اللصوصُ يتسلَّلونَ إلينا ما دامت الفردتانِ مُتلاصقتين في نهايةِ المَمَر!!

لو كنتُ موسيقا لكنتُ جَرَسًا.. على بابِ حبيبةٍ ملهوفةٍ مُنتظِرة... يقرَعُهُ العاشقُ المُنتظَر!!

110
العدد (23)
يناير
مارس
2022م

قصة قصيرة

عِقدٌ من مشاعر

دعاء سعيد باصحيح



انقطع عقدها الثمين، فتساقطت اللآلئ على الأرض، جعلت تبكي: انقطع عقدي المفضل يا أمي. هدأتها قليلاً: لا بأس، إننا نبدو أجمل بالأشياء التي نفقدها أكثر من الأشياء التي نمتلكها، بحلقت بعينيها في كلامي غير المفهوم كما يبدو للأطفال الذين لا يعترفون بالرمادي، ومجبولون بفطرتهم على تصنيف واحد إما الخير وإمَّا الشر: كيف نَسعدُ بالفقدان ونحن نلهث دائماً للحصول على الأشياء؟ أجبتها: عندما نتيه في الطريق فإننا نكتشف أراضي جديدة، كل شيء نفقده يعود إلينا بطريقة أجمل لم نضعها بالحسبان، ولكن هناك من يخاف الخوض في هذه الأرض الجديدة، وهناك من يستمر بالسير حتى يصل.

أخذت التقط اللآلئ واحدة تلو الأخرى، هممتُ بإعادة تجميعها في الخيط فلم أستطع معرفة ترتيب اللآلئ السابق، تخبرني طفلتي: من يهتم للأمر؟ جميع اللآلئ لديها ذات الشكل واللون، فقط قومي بالأمر ببساطة، ولكن الصوت الآخر الذي يسكن بداخلي

يخبرني أن لكل شيء سببًا، وأن عليّ ترتيبها بالشكل الصحيح، والشخص الوحيد الذي يعلم ترتيبها هو العقد نفسه. هو من يعلم قيمة كل لؤلؤة، وكل طريق أدّى بها إلى هذا الموضع من خيط حياته.

هذه اللآلئ تذكّرني بسنوات عمري التي لا أملك منها شيئًا سوى الذكريات، وهذه اللحظة التي تمر عليّ الآن، جميع اللحظات التي أملكها من الماضي تقبع بمكان واحد وهو الذاكرة، لا فرق بين لحظات الأمس والسنة الماضية، بين لحظات الطفولة والمراهقة، أو بين الجمال والسوء، جميعها لديها القيمة ذاتها، وتسكن بمكانٍ واحد، وما أكسبها القيمة هو أنها لن تتكرر ولن تعود مجددًا، عندما ندرك تلك الحقيقة جيِّدًا ينبعث منّا الخوف والحنين لأننا لا ندرك قيمة الشيء إلا بعد فقدانه.

أخذت أكمل تركيب اللآلئ فإذا لكل لؤلؤة بريق يختلف عن الأخرى، تفحّصت إحداهن فإذا بها تتحدّث بصوتٍ يملؤه الحزن: لقد بذل كل ما يملك في سبيل إسعادها، وكنتُ أنا محاولته الأخيرة موضوعة في قلب خاتم لعلّه يأسر قلبها المادي ولكنها أبت أن أكون ذكرى جميلة له، لم أستطع احتمال صوت أنينه في كل ليلة فهربت علَّني أجد حكاية أخرى أحملها.

تقول لؤلؤة أخرى: بعد أعوام عدَّة من البحث وجدت الفتاة أباها، أخبرها بأنني هديتها من أمها المتوفاة، لم تكتمل فرحتها باللقاء حتى تُوُفِّيَ هو الآخر، كانت تنظر إليّ بحب شديد، وبعدها تفيض نظراتها بالحزن، لم أحتمل الصراع الذي وضعته بين مشاعر الفرح والحزن فهربتُ أيضًا.

تحدّثت اللؤلؤة التي بجانبها: لم أستطع تحمّل نظرات الأسى والشفقة، لقد ظلّ يكدح لسنين عدَّة في مزرعته الصغيرة إلى حين اكتشافه أنّ جوهرة واحدة فقط ستمتلك كل ذلك التعب.

بدأت اللؤلؤة الرابعة تتحدث ولكن طفلتي قطعت حديثها: كفى، لا تكملي إصلاح هذا العقد يا أمي لم أعد أريده، أظنه سيجلب لي التعاسة مثل أولئك الأشخاص قبلي.

أجبتها بعيدًا عن اللون الرمادي وتحوير الأحداث: هذه اللآلئ يا صغيرتي لا تجيد تفسير المواقف؛ إنها تفسر مواقفها بأبشع طريقة ممكنة؛ كي تتمكن من الهروب بحرية، لأنها تجد الأمان في الهروب ونكران الحقيقة، فذلك الفتى المحب لم يخسر المعركة ولكنه تخلّص من أسره في حب الفتاة، وكانت نظرات تلك الفتاة التي وجدت أباها مملوءة بالإنجاز بعد أن استطاعت أن تتحدى الوقت في إيجاد أبيها، وذلك الفتى الذي كان يحرث مزرعته لم يشفق على تعبه أو على ذاته، كانت عيناه متّقدة بالشغف، كيف به قد حافظ على مزرعته وفضّل الروح على الجسد والحياة على الكسب، لقد تاهَ هؤلاء الثلاثة في طرقهم ولم تكن لديهم خطة بديلة للمشوار ولكنهم اكتشفوا ذواتًا جديدة، نحن نندم على الأشياء التي فعلناها ثم ننسى، أما عن الأشياء التي لم نفعلها فإن لعنة الحيرة بعدها تظل ترافقنا دائماً هذا العقد ليس ثمينًا ولكنه يمتلك لحظات ثمينة.

112
العدد (23)
يناير
مارس
2022م

قصة قصيرة

حُلُم

وردة عوض بلسود

عدتُ من المدرسة ظهرًا، كانت أصوات الشارع تعلو في هتافات الصغار، كأنهم يتسابقون في الصراخ لإظهار فرحتهم، يركضون ويتزاحمون في أزقة الحارة الضيقة، ضحكاتهم البريئة أدمعت قلب السماء لعل تلك القطرات قد تعمدت أن تبعد عنهم الحر وبعض السحب الخجولة قد تجرأت ووقفت كي تظللهم، كان الجو رائعًا، وثمة شاحنة كبيرة تقف أمام بيت كنت أحسبه لنا، تسمَّرتُ في مكاني، أراقب ما حولي، جاء والدي ورفعني بيديه عاليًا، أجلسني على قمة الأثاث المتراكم وقال لي: انتبه! احذر أن يسقط شيء من متاعنا.

تحركت الشاحنة وأنا عليها، سار أبي وأمي وإخوتي على الأقدام انتهت رحلتنا القصيرة في حي قريب من حيِّنا السابق، وأفرغنا عُدَّتنا في جوف بيت قديم سمعتُ السمسار يقول لأبي: هذا بيت بإيجار يناسب دخلك المحدود خذ المفتاح.. وإليّ بعمولتي يا أبا مالك.

بعد عامَينْ تكرَّر المشهد نفسُه فإذا شاحنة تقف مجدَّدًا أمام بيتنا وتنقل متاعنا إلى مكان جديد، أبعد بكثير، لكنه بإيجار قليل، وفي الليلة الأولى في بيتنا الجديد السكون يتلبس المكان، إخوتي نائمون استوحشت المكان، كنتُ ملتصقًا بغطائي، أُخفي بيدي الصغيرتين معالم وجهي، أخذتُ في البكاء بصوت مشوب بالحزن، يرفض هذا الواقع وهذا المكان، فإذا والدتي تأتي إليّ تقترب مني وتمسح دموعي وتأخذني بين أحضانها الدافئة فتقول لي: أنا كنت في الغرفة المجاورة يا صغيري لِمَ لَمْ تنمْ مثل أخوتك.

فقلتُ لها: أمي لا أريد هذا البيت.

خاطبتها بحزن وحنق وألححْتُ عليها بالمغادرة، وشرعتُ أبكي، فما كان منها إلا أن سعتْ لتهدئتي فقالت: الحمد لله يا ولدي... غدًا سوف تألف المكان وتحبه، ثم تركتني وذهبت..، حاولتُ أن أبدِّد الخوف وأنام لكني لم استطع، لقد كنتُ فظًّا معها، أطبق على جفني وأفتحهما، فأراها أمامي فقررتُ أخيرًا أن أذهب وأعتذر إليها، فخرجتُ خلسَةً كي لا يستيقظ إخوتي.

فسمعتُ أبي يقول لها: هل أولادي بخير؟ هل أعجبهم البيت الجديد؟

فتقول والدتي: نعم،... أتريد العشاء؟ فيقول لها والدي: لا، فالوقت متأخر وأنا أصابني التعب من العمل المتواصل. ضعيه في الثلاجة فالأطفال هم بحاجة له غدًا...

دخلت تلك الكلمات مسمعي فرجعتُ عند إخوتي وأخذت أبحث عن غطائي، إلى أن وجدته فاختبأتُ تحته منتظرًا قدوم الصباح، وقررتُ أن أجتهد وأطيعهما في صمت.

تمر الأشهر والسنوات ينمو جسدي وتستطيل قامتي، أصعد على متن الشاحنة بنفسي، أحرس أثاثنا الذي صار يتناقص شيئًا فشيئًا بعد كل ظعن وإقامة...

انطلقتُ أهيم، بوجهي في الشوارع مودِّعًا، أُلَملِمُ ذكرياتي ثم أنثرها على طرقات المدينة وأرصفتها، فهاهنا ولدت وهناك ترعرعت، وخلف هذه البنايات رسوم مضحكة ابتدعتها، وصديق أثق أنَّه لم يعد يتذكرني، واشتريتُ من هذا الدكان حلوى لصديق أحببته، وهذا طريق مدرستي.. وهنا تعثرتُ تحطم قلبي وبكيت.

تنهمر الدموع على خدِّي ساخنة والشاحنة لا تملُّ المسير، تنفث في غلٍ دُخَانهَا الأسود ليخنق في داخلي حلمي ببيت صغير يؤويني يحميني نملكه ولا يرحل عنا أبدًا.

113
العدد (23)
يناير
مارس
2022م

"الشوق ولا المشقة"



أ. د. عبدالله سعيد بن جسّار الجعيدي

تقال هذه (الجملة) في مواقف خاصة، ورغم وضوحها، وجمال تركيبها، وربما شعريتها فقد وجدتُ صعوبة في تصنيفها؛ فهل هي مثل شعبي؟ أو قول مأثور؟ وظللت في حيرة من أمري إلى أن سمعتها ذات يوم بنبرة حزينة من أُم صبورة، آثرت أن يكون لها سكن مستقل مع ابنها الصغير، بعيداً عن بيت أسرتها الكبير رغم ما يبدو من تماسك البيت، وبِر أبنائها الكبار بها. عندها أحسست أن لفظتَي (الشوق المشقة) المتسللتَينْ بين شفتيها ما هما إلا واجهة من حروف متسقة لآهات خافتة، وتوجُّعات دفينة.

وسواء كانت هذه الجملة مثلاً أو قولاً مأثوراً، أو آهات، فإنها قريبة من الحكمة إن لم تكن هي الحكمة ذاتها. فمع ضغوطات الحياة وسرعة وتيرتها، وفجاءة تغيرّاتها، يأتي التدافع بين الناس في داخل الأسرة النووية إلى ما هو أبعد من ذلك من مستويات اجتماعية، بل علاقات بين الدول. وفي قلب هذا المعترك والتداخل تبرز خيارات صعبة، منها الصدام المباشر، أو الفراق الذي لا عودة بعده، وهناك من يسلك الطريق الأقل خسارة وإن طالت، وهو اختيار لحظة الفراق وحبل الود قائماً ومتينًا كحال تلك الأم العظيمة - وكل الأمهات عظيمات - التي قبضت على قلبها، وضحَّت بسعادتها في العيش وسط أبنائها درءًا لاحتمالات مواقف قد تعكِّر صفوها، وصفو أسرتها، "والقلوب مثل الزجاجة كسرها لا يجبر".

في العلاقات الإنسانية البينية لا تخلو كل الأسر، والصداقات، والزمالات من القطيعة، والاختلافات، والفروق نجدها في الكيفية التي تدار بها الاختلافات والخلافات، وكلما شعر الطرفان بمصلحة مشتركة في التقارب قدموا بوعي تنازلات، ووضعوا مسافات محايدة، تحد أو تقلل من حدة القطيعة، والنتائج الوخيمة للخصومات والمنازعات تبرز عادة عندما يهرول المتدافعون دون مسافات محسوبة. وعلى أية حال فإن الحياة الإنسانية ما هي إلا كتلة واحدة، تتداخل فيها حركتا التداني والتنائي، وتتقاطع، وهذا يعطي للحياة حيويتها بأفراحها وأحزانها.

أما العلاقات الدولية فتحكمها المصالح، وقانون القوة، لا العواطف، إلا إذا كانت محققةً المصالح، لهذا عندما دخلت فرنسا وألمانيا - على سبيل المثال - في حربين عالميتين استعماريتين، وسقط من الجانبين ملايين الضحايا، ورغم ما بينهما من تاريخ من العداوة؛ فإنهما بعد أن سكتت المدافع وضعوا هذا العبء التاريخي في كفة، ومصالحهم المستقبلية المشتركة في كفة أخرى، فانحازوا لمصالحهم ومستقبلهم، بمعنى آخر: تغلَّب صوت العقل على رهافة العواطف، فصار لا مكان للشوق، ولا دواعٍ للمشقة.

أما حُكَّام العرب وما أدراك ما حكام العرب فالكتلة العاطفية عندهم تطغى على أعمال العقل، ولا سيما عندما يختلفون ويتنازعون فيما بينهم، بل تجد في كثير من الأحايين الفجور في الخصومة، فمثلاً عندما يزعل الحاكم العربي من أخيه العربي يتم قطع العلاقات الاقتصادية والاجتماعية، والإنسانية، وتشتغل الأبواق الإعلامية للطرفين على التعبئة، مستخدمة كل الأساليب والألفاظ المسيئة، وفضح الأسرار. كما يتم طرد طلاب العلم، والعمالة، وتهتز علاقات التصاهر عندما يكون الزوج أو الزوجة من (الدولة المعادية)، وكأن الأمر سيستمر إلى يوم الدين، وبهذه المواقف العبثية تتحطم الأشواق، وتخيّم المشقة إلى أن تهدأ فورة الغضب، فيتغير الخطاب الإعلامي بنبرة لا تخلو من الرومانسية عن العروبة والأخُوَّة واللحمة، ووحدة المصير المشترك، "وما محبة إلا بعد عداوة" كما يقولون.

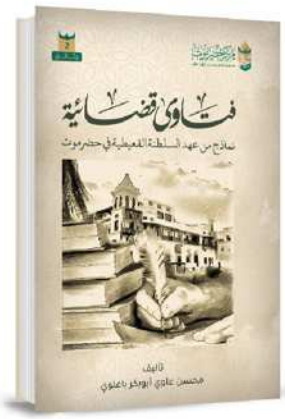
وبدافع هذه الحكمة (الشوق ولا المشقة) التي لا تكاد تفارق تفكيري، ولا سيما عندما تتجدد المشاحنات والصراعات العربية العربية رغم تعقيداتها أسائل نفسي - بمثالية المثقف، وحرقة المحب، المؤمن بوحدة مصير العرب، واستراتيجية مصالحهم - لماذا - نحن العرب الذين تجمعنا أواصر الدين والتاريخ المشترك والثقافة والجغرافيا - لا نقدِّم مصالح شعوبنا على مشاعر الغضب العابرة عند حُكَّامنا؟ لماذا الحاكم هو كل الشعب؟ لماذا تتخندق النخب المثقفة خلف المراسيم الرسمية؟ لماذا يغضبون بالعدوى؟

الإجابات معروفة، لكننا ندفع - نحن العرب إزاءها - أثمانًا باهظة، تتصاعد بمتوالية هندسية مع مستوى الغضب عند الحكام، مقابل انتصارات (دون كيشوتية) أو إعلامية، تفتح لأجلها خزائن الدول بمفاتيحها التي تنوء عن حملها العصبة أولو القوة في صفقات تكديس السلاح، وشراء رضا الدول الكبرى، وهم دائماً الكتلة السعيدة في مشهد الغضب العربي التعيس.

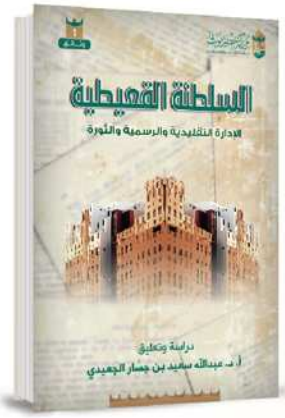
إن التدافع بين الناس والدول حقيقة مؤكدة ومستمرة، وبما أن تبعات (الغضب) بالنسبة (للدول الشقيقة) أكبر وأمرُّ، فما أحوجَ العربَ إلى ميثاق شرف - من أجلهم - يضبطون به خلافاتهم، وانفعالاتهم الجامحة، (ويصنعون) مسافة زمنية محايدة، تتهيأ فيها فرص كبيرة، يكون فيها من الشوق رسول بينهم.

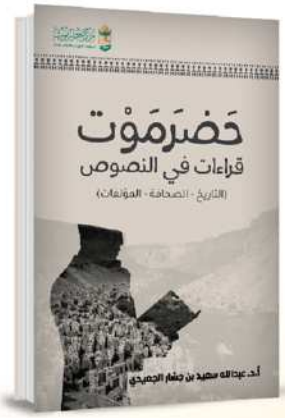

بريشة/ إيمان ثابت

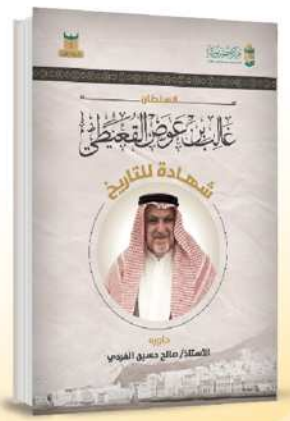
متوفر الآن

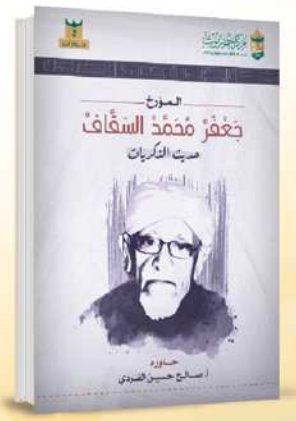

فتاوى قضائية
نماذج من عهد السلطنة القعيطية في حضرموت
تأليف
محسن عاوي أبوبكر باعلوي

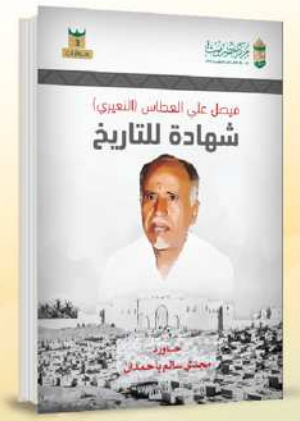

الصراع
الكمادي البريكي
في وثائق تاريخية تنشر لأول مرة
تأليف
أ. د. علي صالح الكاف


السلطنة القعيطية
الإدارة التقليدية والرسمية والثورة
دراسة وتعليق
أ. د. عبدالله سعيد بن جسار الجعيدي

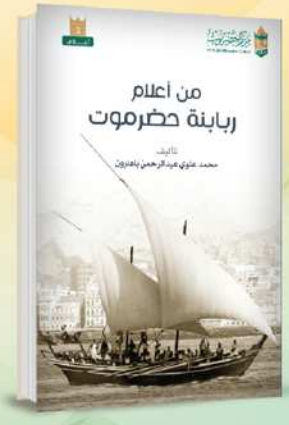

حَضرَمَوْت
قراءات في النصوص
(التاريخ - الصحافة - المؤلفات)
أ.د. عبدالله سعيد بن جسار الجعيدي

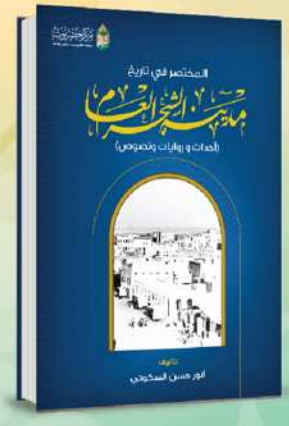

السلطان
غالب بن عوض القعيطي
شهادة للتاريخ
حاوره
الأستاذ/ صالح حسين الفردي

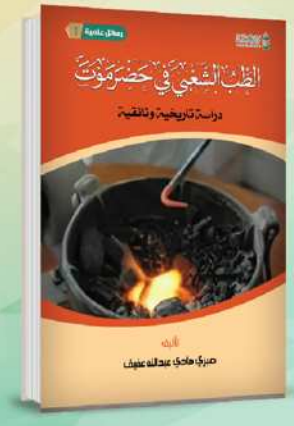

الموزع
جَعْفَرْ مُحَمَّدْ السَّقَّاف
صديق الذكريات
حاوره
أ. صالح حسين الصردي

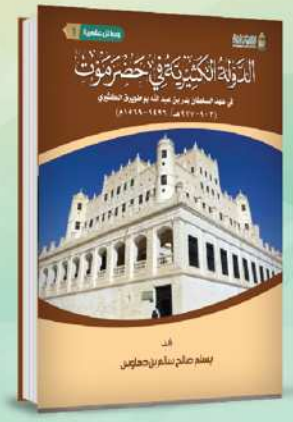

ميصل علي العطاس (النعيري)
شهادة للتاريخ
حاوره
مبخوت سالم باحمدان


حضرموت
التاريخ والنقوش والديانة
فصول ترجمها
د. خالد عوض بن محاشن


من أعلام
ربابنة حضرموت
تأليف
محمد عنوي عبدالرحمن باعدرون


المختصر في تاريخ
مدينة الشحر العام
(أحداث و روايات وتصريح)
تأليف
أنور حسن السكوتي


الطب الشعبي في حضرموت
دراسة تاريخية وثائقية
تأليف
صبري هاشي عبدالله عنيف


الدولة الكثيرية في حضرموت
في عهد السلطان بدر بن عبد الله بن عفرير الحامدي
(٩٢٧-١٠٠٣هـ/ ١٥٢٠-١٥٩٤م)
إعداد
يسلم صالح سالم بن حماس